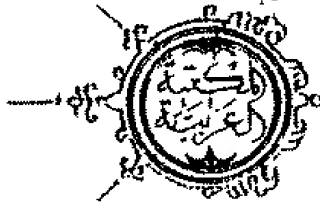


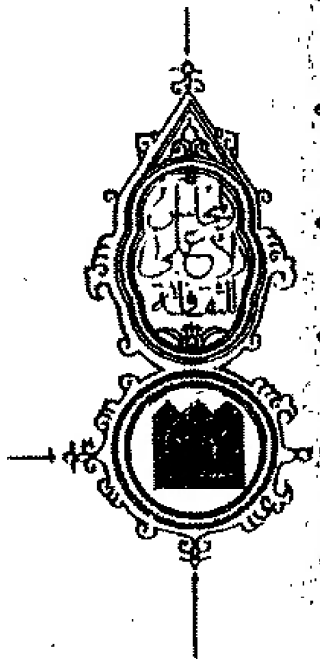


١٢ - ١٩٦٥



خلاصة التوحيد

مختارات من نشر أبو حيان التوحيدى



اعداد وتقديم
جمال الغيطانى



El-Mechaa Alexandria



خلاصة التوحيد

مختارات من نثر أبو حنيفة التوحيدى

اعداد وتقديم :
جمال الغيطانى

المجلس الأعلى للثقافة
خلاصة التوحيدى
أكتوبر ١٩٩٥ - القاهرة

الخطوط للفنان :
حامد المويضى
الاخراج الفنى :
سيد عبد الخالق

مقدمة

أخى الذى لم أراه !

المعايشة والصحبة ..

محوران أساسيان يحطمان علاقتى بالنصوص التراثية وأصحابها ، فما أن يبدأ ارتباطى بأديب أو مؤرخ أو متصوف أو رحالة حتى تتبلور عناصر الصلة ، وأبدا المعايشة ، احتفظ بالمتن على مقربة منى ، وفى الأغلب الأعم يكون فوق مكتبى الذى أجلس إليه جل وقتى ، فإذا فرغت من القراءة الأولى أعود إلى تلك الفصول أو الأجزاء أو المقاطع التى توقفت عندها ، ثم أفرغ إلى كتب أخرى ربما تشرح أو تقرب أو تفسر ذلك المتن الذى بدأ تعلقى به ، وقد أقدم على نسخ صفحات منه فى كراسات خاصة احتفظ بها لذلك الغرض ، وقد علمتني التجربة أن ما تنسخه اليد يكون الصق بالذهن ، وأثبتت فى خلايا الذاكرة مما أكتفى بقراءته فقط ، ومازلت أذكر ترددي على دار الكتب المصرية ، فى مقرها المهيّب ، القديم بميدان باب الخلق ، وقاعة القراءة الفسيحة ، نقية الضوء ، عندما كان يقدم الموظفون لمساعدتى وإرشادى حتى أن أحدهم كان يدعونى لمعاينة أحدث ما وصل إلى الدار من كتب لعلى أجد بعض ما أبحث عنه . حتى إذا أعجبنى كتاب ولم يكن بمكنتى فى ذلك الوقت شراؤه لمحلوديهما عندي . أقدمت على نسخه حتى يمكننى إقتناؤه . ما نسخته باق فى ذهنى ، تمسك به ذاكرتى أكثر مما اكتفيت بقراءته .

وأثناء جهادى لاستيعاب المعانى ، أتخيل الكاتب ، أقرأ عنه ، مع الوقت أرسم له صورة فى ذهنى ، ثم تدب الحياة فيها ، فأشاهده كأنه أمامى ، أحاوره أحيانا وأصفى إليه عبر فواصل الزمن السحيقة .

هكذا ارتبطت بعدد من أعظم الشعراء والنثرين فى تراثنا العربى ، حتى لأعدهم شيوخى وأعوانى .

الشيخ محمد أحمد بن إياس الحنفى المصرى صاحب بدائع الزهور فى وقائع الدهور . تقى الدين المقرئى -

الجبرئى

لسان الدين بن الخطيب

الجاحظ

بديع الزمان الهمداني

الحريرى

المسعودى

التغلبى

الأصبهاني

الشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى

الشيخ عبدالكريم الجيل

شعراء عديدون من العصر الجاهلي وحتى وقتنا هذا ، وشيخ أجل ، توقفت عنده وإمامه ، وصحبته في وقتي وأمكنتي التي أرحل إليها ، إنه أبو حيان على بن محمد بن العباس التوحيدى ، أحد أعظم الناثرين في تاريخ الأدب العربى ، وأحد أئمتي وشيوخى في اللغة والابداع .

علاقة ممتدة

لا يمكننى تحديد التاريخ الذى بدأت به الصلة ، فكثير من الكتب تستقر وقتنا طويلا فوق أرفف خزائنى قبل أن اقترب منها وأشرع ، وأحيانا تمضى سنوات ، المهم .. أن يكون المتن على مقربة ، حتى إذا ما احتجت إليه لا تتكلف مشقة البحث أو السعى ، فما من أمر يكلفنى نصبا مثل بحثى عن كتاب لمدة طويلة ، وخلال أربعة عقود من الزمان خبرت سوق المخطوطات والمطبوعات العتيقة . وأصبح لى من رجالها خبراء وأعوان أستعين بهم على الوصول إلى ما يمكن أن يشق على وجوده . ومنذ سنوات طويلة تتجاوز الربع قرن ترقد مؤلفات أبو حيان على مرأى منى ، وإلى جوارها العديد من الدراسات التى أخرجتها المطابع عنه ، وبدأ تعرفى به بعد اطلاعى على الامتاع والمؤانسة لكننى لم اتعلق به كثيرا . فالكتاب أحد المراجع التى تضم المسامرات ، والمعارف ، وإن لفت نظرى روح مغامرة ، وأذكر أننى توقفت مطولا أمام أسماء عدة نسب إليها أبو حيان المشاركة في تأليف ، رسائل اخوان الصفا ، وكنت شديد التعلق بهذا المتن . دائم الإبحار في لججه الغامضة . إلى أن تعرفت في نهاية السبعينات بصاحب تونسى بقيم في فرنسا ، درس ويدرس بها ، هو الدكتور عبدالله شيخ موسى كنا في زيارة إلى مكتبة ابن سينا المتخصصة في الكتب العربية والتى يديرها صديق لبنائى نشط ، تقع في مواجهة جامعة باريس الخامسة (أحد فروع السوربون) وعلى مقربة من معهد العالم العربى . أشار عبدالله إلى كتاب ، الأشارات الالهية ، على الرف ، تحدث عن خصوصية السرد فيه واختلافه عن أساليب السرد القديمة ، بمجرد عودتى إلى القاهرة شرعت في قراءته . ومنذ توغلى عبر صفحاته الأولى يمكن القول اننى لم أفارقه حتى الآن ، وأن علاقتى بالتوحيدى بدأت وظلت تتوطد حتى الآن حتى أصبحت احدى مكوناتى الأساسية ، وقبل التوقف أمام مؤلفاته ، أفضل أن أذكر قبسا من سيرته .

ملامح شخصية

للأسف ، لم يحتفظ لنا التاريخ بملامح التوحيدى الشخصية ، لم يصفه المعاصرون ، ولم يذكر ملامحه الذين أرخوا له أو ترجموا . لكننى من خلال سطورهِ أكاد أستشف حضوره ، مهيبا ، قلعا ، ربما أميل إلى الطول ، مهيبته خاصة ، مصدرها مضمون روحه الخصبة ، وثراء ثقافته ، وغزارة علمه ، يمتازها اضطرابه إلى معاشية ظروف تتناقض مع شخصه ، مع قيمته كما يراها في الواقع ، وكما هى عليه فعلا ، وهذا حال غالب على معظم عباقرة الثقافة العربية ، إدراكهم لقيمة مواهبهم واضطرابهم إلى طرق سبل شتى لضمان العيش ، ولنا في سيرة المتنبى الذروة في هذا التناقض . ولعل ذلك سار حتى الآن ، فالجوهر واحد .

من هو أبو حيان التوحيدى ؟

إننى أفضل الرجوع إلى أقدم المصادر للتعرف عليه ، فلنلجأ إلى واحد من أشهر مصادر تراجم الأدباء ، « معجم الأدباء المعروف بإرشاد الأريب إلى معرفة الأديب » لياقوت الحموى . ماذا نجد ؟

أصله

يقول ياقوت :

« علي بن محمد بن العباس ، أبو حيان التوحيدى ، شيرازى الأصل ، وقيل نيسابورى ، وجدت بعض الفضلاء يقول له الواسطى ، صوفى السمعت والهيئة ، وكان يتأله والناس يقولون فى دينه ، قدم بغداد فأقام بها مدة ، ومضى إلى الرى ، وصحب الصاحب أبا القاسم اسماعيل بن عباد ، وقبله أبا الفضل بن العميد فلم يحمدهما . وعمل فى مثاليهما كتابا ، وكان متقنا فى جميع العلوم من النحو واللغة والشعر والأدب والفقه والكلام على رأى المعتزلة ، وكان جاحظيا يسلك فى تصانيفه مسلكه ويشتهى أن ينتظم فى سلكه ، فهو شيخ فى الصوفية ، وفيلسوف الأدباء ، وأديب الفلاسفة ، ومحقق الكلام ، ومتكلم الحققين ، وإمام البلغاء ، وعمدة لبنى ساسان ، سخيف اللسان ، قليل الرضى عند الإساءة إليه والاحسان ، الذم شأنه والثلب دكانه ، وهو مع ذلك فرد الدنيا الذى لا نظير له نكاه وقملته ، وفصاحة ومكنة ، كثير التحصيل للعلوم فى كل فن حفظه ، واسع الدراية والرواية ، وكان مع ذلك محدودا ، محارفا يتشكى صرف زمانه ، ويكفى فى تصانيفه على حرمانه ، ولم أر أحدا من أهل العلم ذكره فى كتاب ولا دمج فى ضمن خطاب ، وهذا من العجب العجيب ، غير أن أباحيان ذكر نفسه فى كتاب « الصداقة والصديق » وهو كتاب حسن نفيس .

ثم يذكر ياقوت مؤلفات أبى حيان ومنها : كتاب رسالة فى الصديق والصداقة ، كتاب الرد على ابن جنى فى شعر المتنبى .

كتاب الامتناع والموانسة جزءان .

كتاب الاشارات الالهية جزءان .

كتاب الزلفة .

كتاب المقابسات .

كتاب رياض العارفين .

كتاب تقرير الجاحظ .

كتاب نم الوزيرين .

كتاب الحج العقل اذا ضاق القضاء عن الحج الشرعى .

كتاب الرسالة فى صلوات الفقهاء فى المناظرة .

كتاب الرسالة البغدادية .

كتاب الرسالة فى أخبار الصوفية .

كتاب الرسالة فى الحنين إلى الأوطان .

كتاب البصائر وهو عشرة مجلدات ، كل مجلد له فاتحة وخاتمة ، كتاب المحاضرات والمناظرات .

للأسف ، أحرق أبو حيان كتبه كلها فى نهاية حياته ، ولم يصلنا منها الا عدد قليل ، نشر كله فيما عدا المجهول الذى لم يكتشف بعد . ما نشر هو :

● الامتناع والموانسة .

● ما وصلنا من البصائر والذخائر .

● ما وصلنا من الاشارات الالهية .

● المقابسات .

● الهوامل والشوامل .

● مثالب الوزيرين .

● رسائل أبى حيان ومنها : رسالة السقيفة ، رسالة الحياة ، رسالة فى الكتابة ، ورسالة فى

تصنيف العلوم .

□ خلاصة التوحيدى □ ه

هذا ما وصل إلينا من مؤلفات التوحيدى . لعل القادم الآتى من الزمن يكشف لنا بعضا مما اختفى أو تبعد . لكن .. يبقى السؤال . من هو أبو حيان ؟
لماذا تحامل عليه القدامى وبعض المعاصرين ؟
لماذا أحرق كتبه ؟
أى حال بلغ به هذا الحد المفزع ؟
كل سؤال يحتاج الى وقفة مطولة .

للأسف ..

لا تشفع الموهبة لصاحبها في تاريخ الثقافة العربية وحتى حاضرها المعاصر ، يستوى الأمر عند ظهورها أو بعد ثبوتها ، ومن خلال تأمل لسير المبدعين الكبار ، شعراء كانوا أو ناثرين أو فلاسفة أو علماء ، نلمح ذلك الصراع المستمر أحيانا ، الظاهر في معظم الأحوال ، بين أصحاب المواهب ، وبين أصحاب الشأن ، بين الأديب وصاحب الثروة ، أو السلطة ، على الشاعر أن يسعى دائما كالتسول الى هذا الملك أو ذلك السلطان ، لينظم مدائحه ، وليستجدى الرضا والدرهم أو الدينار حتى يمكنه العيش ، حتى لا يموت جوعا ، يستوى في ذلك أى شاعر صغير أو المتنبى أو البحتري أو أى قامة كبرى ، وحتى يحل الشعراء هذه المعضلة ، اضطارهم الى المديح كى يعيشوا ، كى يلتمسوا الأمان ، لجأوا الى بدء قصائدهم بالنسيب ، بالغزل ، وهنا يعبر الشاعر عن ذاته بصدق ، حتى إذا وصل الى الحد الذى يتذكر أو يعي فيه أن المديح تأخر ، أو .. يجب أن يبدأ ، ينقلب على الفور وتبدأ انصتعة ويبدأ الافتعال ، وإذا أعدنا قراءة الشعر العربى سوف نجد هذه الظاهرة ، وبالنسبة لى ، عندما أعيد قراءة ما أحببت من شعر القدامى ، فانتى اكتفى بقراءة الأجزاء الأولى حيث التلقائية والصدق . حتى إذا ما وصلت الى بدايات المديح لا أكمل ، حتى لو كان مديح المتنبى لسيف الدولة الذى كان معجبا به حقا . في أحيان نادرة كان الشاعر يصيغ مديحه متضمنا ذما خفيا ، كما فعل المتنبى عند مدحه كافورا .

مهما عظمت قامة الأديب ، فإنه مضطر الى خطب ود ذوى الجاه والسلطان ، ومن هنا وجد بعض اصحاب الرؤى الثاقبة ، والمواهب الاستثنائية أنفسهم في تناقض فظيع ، فمن ناحية يشعر الواحد منهم بذاته ، ويدرك تفوقه ، وتفرد ، وما يمكن أن يقدمه ، لكنه في نفس الوقت مضطر الى الوقوف بآبواب القصور ، وطرقها بأدب ومذلة ، فإذا ما سمح له فإنه يقف أمام صاحب الجاه ، يتشد المديح ، أو ينظم ما يطلب به الود ، ويثير الرضى عنه ، وقد يتحول الى ما يشبه بالهلوان ، عندما ينظر اليه صاحب الجاه ويشير الى شمعة أو تقاحة أو شيء ما ويطلب من الشاعر أن يقول شيئا على الفور ، يمتحن بذلك بديهته وقدرته ، ولا تخلو كتب التراث العربى من هذه الوقائع السخيفة التى تعكس رؤية معينة للثقافة ، للموهبة ، رؤية تعتبرها حلية أو لعبة لقضاء الوقت ، أو وسيلة لدعم المكانة ، وهذه النظرة سارية ، مستمرة الى الآن . ولاشك أنها من أهم أسباب التدهور الثقافى .

من الأمور اللافتة للنظر انشغال القدامى وبعض المحدثين بتحقيق نسب الأديب ، والاحظ في كتب التراجم على اختلاف القرون كلها ، ذلك التقدير الذى يشنه صاحب الكتاب للشاعر أو الفقيه أو العالم إذا كانت شجرة نسبه كريمة تنتهى الى أصول نبيلة . وفي دراسة حديثة من قرننا نقرأ ذلك الجهد الذى بذله الأستاذ محمود محمد شاكر ليثبت لنا أن المتنبى لم يكن والده سقاء يملا قرب الماء ويوزعها على البيوت ، وكان مكانة المتنبى ستقتضى لو أن والده كان سقاء فعلا .
هكذا اهتم القدماء والمحدثون أيضا بأبى حيان التوحيدى ، فراحوا يبحثون عن أصله ونسبه ، ولقد نظرت في مؤلفات أبى حيان ذاتها لأتبين تفاصيل حياته ودخائلها ، ويعكس المؤلفين العرب القدامى ، أدلى الرجل بالكثير من التفاصيل التى تنبئ بما كان عليه ، وتشير الى أحواله ، يقول في البصائر والنخائر :

« إن عمى كان قاعدا في بعض العشيات في قطيعة الربيع ، فاجتزأت به متوجها إلى مجلس أبي الحسن بن القطان الفقيه الشافعي ، فقال له جلساؤه : ان ابن أخيك يا أبا العباس مجتهد في طلب العلم يغدو ويروح ، ولقد سمعنا منطقه فاستأنسنا به ، وقد كتب الحديث الكبير وسافر ، وتصوف ، فقال للجماعة : هذا كله كما تقولون ، ولكن له عيب واحد ، قالوا : وما هو ؟ قال : يأكل في كل يوم أربعة أرغفة ، فورد على الجماعة ما حيرها وأضحكها . »

فقد أبو حيان والديه مبكرا ، وكفله هذا العم القاسي ، ولا تقرا عن طفولته ، أو عن صباه ، بل أننا لانجد في كتبه التي وصلتنا أي إشارة إلى أسرة ، إلى زوجة ، إلى ابن أو ابنة ، وأكد أوقف أنه عاش وحيدا تماما ، منذ طفولته ، وصباه ، وحتى شيخوخته .

عاش غريبا ومات غريبا .

هذا أهم مدخل لفهم أبو حيان والاحاطة بمكنونه ، لقد بدأت غربته مبكرة باليتيم ، واكتملت عبر مراحل حياته ، خاصة مع ادراكه لذاته ، وقيمه ، واضطراره في الوقت نفسه إلى السعي هنا وهناك ، إلى طرق أبواب العماد وابن العميد وغيرهما ، وعبر عن غربته بعمق لم أعرف له مثيلا في الأدب العربي ، أو الأجنبي ، ولكم اقرأ مثل السطور التالية بصوت مرتفع .

« فقد أمسيت غريب الحال ، غريب اللفظ ، غريب النحلة ، غريب الخلق ، مستأنسا بالوحشة ، قانعا بالوحدة ، معتادا للصمت ، ملازما للحيرة . محتملا للأذى . يائسا من جميع ما ترى . »

اتوقف وأشعر بزفراته الحرى تدركني بعد ألف عام ، فأشفق وأحنو وأكاد أقول بنطقى المسموع .

« أه يا أخى الذى لم أره .. » .

لقد وردت سطور السابغة في كتاب « الصداقة والصديق » وهو من أجمل كتبه وفي تقديرى أن هذا الكتاب ما هو إلا رسالة حنين جارية إلى الصديق الذى لم يعرفه أبو حيان ، إنه تعبير عن احتياجه إلى الصداقة ، إلى الآخر الذى لم يعرفه قط ، ولم يعرف حنوه ، وفي مقدمة « الصداقة والصديق » نقرأ تعبيراً حاداً ومؤثراً عن الغربة ، وكأنه ينبه بشكل غير مباشر إلى أهمية معنى الصداقة بوصفه حال وحدته وشدة وحدته .

بدأ أبو حيان يتيمًا ، عصاميا ، ولو أن ثقافتنا العربية تحترم الموهبة لصار جهد أبى حيان من أجل تحصيل العلم وتكوين نفسه مثالا يحتذى . ودرسا يلقي لمن هم في بداية الطريق . لكن جرى التعتيم عليه ، حتى إن القدماء والمحدثين لم يختلفوا على شخصيته كما اختلفوا حول نسبه وتاريخ ميلاده . وتاريخ وفاته ، لم يصل من أخباره إلا القليل ، والقدر اليسير ، وكما يقول ياقوت في معجمه ، « لم يذكره أحد في كتاب ولا دمج في خطاب » .

غير أن أبى حيان لم يكن نصيبه التجاهل فقط ، ولكن التشويه أيضا ،

يكفى أن أقدم نموذجا لبعض من ترجم له ، في كتاب « سير أعلام النبلاء » تصنيف الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ، المتوفى سنة ٧٤٨ هجرية أى بعد أبى حيان بحوالى ثلاثة قرون ونصف ، يقول في مطلع الترجمة :

« الضال ، الملاح ، أبو حيان ، على بن محمد بن العباس ، البغدادي ، الصوفي ، صاحب التصانيف الأدبية والفلسفية ، ويقال ، كان من أعيان الشافعية .. » .

أما ابن الجوزي فيقول : « زنادقة الإسلام ثلاثة ، ابن الراوندى ، والتوحيدى ، والمعري ، وشهرم التوحيدى لأنهما صرحا ولم يصرح » .

وهنا نتوقف أمام ظاهرة أخرى في ثقافتنا العربية ، وهى ظاهرة الاشاعات معتمدة المدى التى تعبر القرون والدهور المتعاقبة ، فيكفى أن يطلق أحد المؤثرين اشاعة ما ، وتتردد بعض الوقت إلى أن يقدم أحدهم على تدوينها ، فتبدو كحقيقة ، وربما كانت أشهر اشاعة من هذا النوع ما قيل عن ادعاء أبى الطيب للنبوة ، حتى صار اسمه « المتنبي » ، مع أنني قرأت ديوانه الذى رتبته بنفسه ، وحاولت

جاهدا أن أعثرولو على تلميح خفي ، غير أنني لم أجد ، ولم أستشعر ، أما في حالة أبي حيان فالأمر أقدم ، ذلك أن من يطالع كتبه ، خاصة ، الاشارات الالهية ، سوف يجد مناجاة عميقة ، لا يمكن أن تصدر إلا عن روح عميقة الإيمان ، ويبدو ياقوت أكثر انصافا ، يقول عنه أنه كان :
• صوفي السميت والهيئة ، وكان يتأله ، والناس على ثقة من دينه .. شيخ الصوفية وفيلسوف الأدباء .

وفي طبقات الشافعية يقول السبكي مدافعا عن أبي حيان خاصة في مواجهة الذهبي ، يرجع السبكي الاتهام إلى :

• اتهام الذهبي للرجل بسبب كراهية - الذهبي - للصوفية .
ثم يقول :

• ولم يثبت عندي إلى الآن من حال أبي حيان ما يوجب الوقفة فيه . ووقفت على كثير من كلامه فلم أجد فيه ما يدل على أنه كان قوى النفس مزديريا بأهل عصره ، ولا يوجب هذا القدر أن ينال منه هذا النيل .

لأيس ما قاله الذهبي هو منهج التكفير الذي مازال يمارسه البعض في عالمنا العربي ضد خصومهم في الرأي ، أو من يختلفون معهم أيا كانت درجة الخلاف ، لأن الذهبي يكره الصوفية ويبدأ ذكره لأبي حيان بهذه التهمة البشعة ، وتتحول إلى ما يشبه الحقيقة ، ويضطر آخرون إلى الرد ، فتصير عقيدة الرجل إلى أن تصبح موضع جدل ، بل ربما كان ذلك أحد الأسباب التي أدت إلى غياب ذكره وعدم تداول كتبه التي بقيت بعد أن أحرق معظمها ، بل صار البعض يتشائم من قراءتها أو تداولها .. وهذا عجيب !

كثيرة تلك المؤلفات ، خاصة في القرن الحالي عن أبي حيان ، منذ أن كتب حسن السندوي مقدمته الوافية لكتاب المقابسات المطبوع في مصر سنة ١٩٢٩ ، توالى بعد ذلك الكتابات للدكتور زكي مبارك في ، النشر الفني في القرن الرابع الهجري . وأبو حيان للدكتور عبدالرزاق محيي الدين (العراق) . وأبو حيان للدكتور إبراهيم كيلاني (سوريا) وأبو حيان للدكتور زكريا إبراهيم (مصر) وأبو حيان للدكتور محمد أحمد الحوفي (مصر) وأبو حيان للدكتور احسان عباس (لبنان) وأبو حيان للدكتور محمود إبراهيم (الأردن) وأبو حيان للأستاذ علي دب (تونس) .. هذه المؤلفات ساعدتني ، أضاعت وفسرت ، شرحت ويسرت ، غير أن المصدر الأول عن أبي حيان بالنسبة لي ، سواء كنسان ، أو مفكر ، أو أديب ، أو صوفي ، تظل خصوصه ذاتها . تلك التي خطها بيده ، وأودعها دخائله ، في حالة فريدة ونادرة من حالات الأدب العربي .

إعتداد شديد بالذات ، ربما كان أحد الأسباب القوية التي قوت ذلك الشعور بالغربة . وفاء عميق لأساتذته ، أبي سليمان المنطقي السجستاني ، يحيى بن عدي ، (الفلسفة) ، والرماني ، وأبو سعيد السيرافي (في اللغة والأدب) القاضي المروردي أول أساتذته خاصة في الفقه . وأيضا المعاني بن زكريا النهرواني ، وكان من علماء عصره ، وبرع في عدة علوم .
يحدثنا أبو حيان عن شيوخه بإجلال وحب وتعظيم ، سعى هو إلى كل منهم لتحصيل العلم ، درس النحو ، واللغة ، والمنطق ، وعلم الكلام ، والفلسفة ، والحديث النبوي الشريف ، ومن سبقه أعجب بالجاحظ وأحبه وأخلص له الود ، وأحيانا تكون العلاقة بين الأديب وأديب عاش في عصر آخر ، وزمن مغاير ، أقوى من تلك العلاقة التي يمكن أن تقوم بينه وبين معاصريه ، وقد خبرت ذلك وعرفت ، وأقوى دليل علاقتي بأبي حيان الذي أعتبره من أجل شيوخه وأقرب صحبي ، هو الذي لم ينعم بالصحة في حياته !

لأشك أن خطوات تكوين أبي حيان لنفسه ولثقافته تشكل سيرة رائعة ، الملح إلى بعض تفاصيلها في كتاباته . ولم يكن ذلك سهلا في عصر اضطراب وتمزق ، كان القرن الرابع الهجري مليئا

بالمناقضات ، فرغم ازدهار الثقافة العربية بتفتحها على الثقافات الأخرى ، خاصة اليونانية والفارسية ، وصيغها آثار هذه الثقافات المنقولة بالروح العربية ، رغم ازدهار الأدب ، والنثر بصفة خاصة ، وظهور فن القامة ، وتطور فن الرسائل ، إلا أن العصر كان مضطربا سياسيا واجتماعيا ، إذ شمل الضعف دولة الخلافة العباسية ، وتناثرت أطرافها ، ودب الفساد إليها ، واتسعت الهوة بين أثرياء لا يعرفون كيف ينفقون مالههم ، وفقراء أغلبية يأكل بعضهم بعضا في أيام المجاعات ، حتى إن بعض المصادر التاريخية تروى مشاهد مرعبة عن أمهات اضطرين إلى أكل أبنائهن (نشوار المحاضرة للتتويح - الجزء الأول - صفحة ٢٥١) يصف لنا أبو حيان أحوال الناس في عصره . خاصة سنة ٢٧٠ هجرية . يقول في كتاب الإمتاع والمؤانسة :

« كنت بنيسابور سنة سبعين وثلاثمائة ، وقد اشتعلت الفتنة بخراسان ، وغلا السعر ، وأخيف السبيل وكثر الأرجاف وساعت الظنون ، وضجت القامة ، والتبس الرأي ، وانقطع الأمل ، ونبح كل كلب كلب من كل زاوية وزار كل أسد من كل أجمة ، وضج كل ثعلب من كل قلعة » .

في تلك الظروف الصعبة راح أبو حيان يطوف شرقا وغربا ، من بغداد إلى سمرقند (سامراء) إلى سمرقند ، إلى الري ، إلى جرجان ، إلى جند سابور ، إلى مكة التي حج إليها سيرا على الأقدام بصحبة جماعة من الصوفية ، إلى شيراز التي كانت نهاية المطاف ، حيث بلغ فيها رأس الجدار ، أو نهاية الحائط ، وانحسر ظله ، وثوى في أرضها .

أحيانا ، أتساءل .

متى كان يكتب ؟ وأين ؟ وكيف تمكن من الاطلاع ؟

أعرف أنه عمل وراقا أي ناسخا للكتب ، ورغم صعوبة المهنة ، إلا أنها مكنته من الاطلاع الواسع العميق ، وقد خبرت هذا في مطلع حياتي عندما كنت اضطر إلى نقل بعض الكتب من دار الكتب بباب الخلق ، تلك التي لم أستطع اقتناءها ، ما نسخته منها بقي محفوظا في ذهني حتى الآن ، أكثر من الكتب التي اكتفيت بالاطلاع عليها ، ما نسخته كتب معدودة ، غير أن أبا حيان عمل بالورقة معظم سنوات عمره ، وله رسالة نادرة في فن الكتابة (الخط) ، لم يحدثنا عن مكتبته الخاصة ، أو كتبه التي كان يعتز بها ويقيها بقربه ، وإن كنت أشك في وجود مثل هذه المكتبة مع تلك الحياة المضطربة ، البائسة ، المعذبة ، ولكم يبدو التناقض شاسعا بين رسوخ مؤلفات أبي حيان ، وظروف حياته القلقة والتي لم يستقر خلالها في مكان وثير ، أو حتى تتوافر فيه الحدود الدنيا للراحة . بل إن ما وصلنا من وصف لثيابه وأحواله على فترات مختلفة يؤكد أنه كان مضطرب الحال ، يعاني اللاقة والغربة ، رغم ذلك فقد وصلنا منه هذا التراث الثري ، الغني .

ذكرنا نقلا عن ياقوت الكتب التي وضعها ولم يصلنا معظمها ، ونتوقف عند الكتب التي وصلتنا وطبعت ، أولها البصائر والذخائر ، والمرجح أنه أول ما وضع أبو حيان ، ويعد أضخم كتبه من ناحية الحجم ، ويعتبر بمثابة دائرة معارف تعكس معرفة عصره ، وثقافته هو المتنوعة ، وقد اخترت منه المقدمة ، أما متن الكتاب فيتكون من أمثال ، وحكم ، ونوادر ، ومقتطفات تورث بدون منهج ظاهر محدد ، ويتناول مسائل لغوية ، وأدبية ، وتراجم وأخبار ، وبه نصوص من كتب ضاعت أصولها ، ويقول التوحيدى واصفا كتابه :

« وإنما أتباع قليلا ، وأتقارب قليلا ، وأذكر فصلا نحوا ، وفصلا كتابيا ، وفصلا كلاميا وفصلا فقهيا وفصلا فلسفيا وفصلا لغويا وفصلا شعريا ، وأشيع ذلك كله بما احتمل من الاعتراض والبحث والتفسير » .

الكتاب التالي هو « أخلاق الوزيرين » أو « مثالب الوزيرين » ، ويرجع الدكتور عبد الواحد الشيخ في بحثه القيم عن أبي حيان وجهوده الأدبية والفنية أنه ثانی كتبه ، لأن البصائر استغرق تأليفه حوالي خمس عشرة سنة ، انتهى منه حوالي سنة خمس وستين وثلاثمائة . بعد أن فرغ رحل إلى

أنرى . منتسباً للرعاية عند صاحب ابن عباد ، لكن خاب سعيه . وعاد من الرى خاوى الوفاض ، ولم يكن حظه عند ابن العميد بأفضل مما لقيه عند ابن عباد . وكان كل منهما وزيرا له نفوذ وصاحب بلاط . وكل منهما يحيط نفسه بالأدباء ، غير أن كلا منهما ، شأن أصحاب السلطان الذين يتظاهرون برعاية الأدباء ، لا يحبون الأدباء المعتدين بأنفسهم ، أصحاب المواهب الكبيرة ، وكلا الوزيرين كن له موقف مشابه من المتنبي . صحيح أن أبا حيان لجأ إليهما ، ولكنه في أعماقه كان يدرك قيمتهما الحقيقية ، ولم يكن مداحا كالشعراء . إنما يبدو أنه لم يكن يستطيع أن يخفى ما يدور في نفسه . وأصحاب السلطان يدركون ما يمكن أن يدور في نفوس الساعين اليهم . بل إنهم قد يشترطون مواصفات معينة للقرب منهم قد تطال الملامح الجسدية . انصرف أبو حيان عنهما خائبا ، خاوى الوفاض . وإذا لم يقدر الأديب على مواجهة السلطان بالفعل ، فانه يلجأ إلى الكلمة . إلى أداته الوحيدة ، هكذا تقدم أبو حيان على تأليف كتاب « أخلاق الوزيرين » والذي تضمن أعنف هجاء يمكن أن نقرأه في الأدب العربي . وإن كان لم يستسلم لغضبه تماما . فقد ذكر لكل منهما ما يمكن اعتباره ميزة . غير أن قيمة الكتاب تكمن في إبرازها لتلك العلاقة المعقدة بين الأديب والسلطة ، بين الكاتب والحاكم ، والتي لم يتغير جوهرها في الواقع العربي منذ عصر أبي حيان وحتى الآن .

راح أبو حيان يحاول التقاط أسباب رزقه من أعمال متواضعة ، مرة بمهنته الأصلية ، نسخ الكتب ، ومرة بالعمل في البيمارستان (المستشفى) كملاحظ للمرضى ، وربما بلغت غربة التوحيدى مداها في تلك الفترة الصعبة التي لم يكن يجد خلالها قوت يومه ، حتى اضطر إلى أكل أعشاب الصحراء . هذه الغربة وتلك الوحدة ، جعلته يتوق إلى الصداقة . وباستثناء المقدمة والخاتمة التي يجر فيها عن راته ، فقد جمع في المتن أمثلة وحكايات عديدة حول معاني الصداقة ، وما يتصل بالوفاق والخلاف والهجر والصلة والعقب والرضا والاخلاص والرتاء . والنفاق والحيلة والخداع والافتواء والاستكانة والاحتجاج يقول أبو حيان

« وما من أحد إلا وله في هذا الفن حصة لأنه لا يخلو أحد من جار أو معامد أو حميم أو صاحب رفيق أو سكن أو حبيب أو صديق أو أليف أو قريب أو بعيد أو ولي أو خليط . كما لا يخلو أيضا من عدو كاشح أو مداح أو مكاشف أو حاسد أو شامت أو منافق أو مؤذ أو منابذ أو معاند أو مدل أو مضلل أو مغفل . فإلى نسلان مدنى بطبعه . »

إننى اعتبر كتاب « الصداقة والصديق » من النصوص الفريدة في النثر العربي ، ويجمع بين الكتابة الذاتية بما تضمنه من حديث أبي حيان عن نفسه وهذا ما توقفت عنده ، وبين المختارات النثرية التي تدور كلها حول معنى الصداقة وجوهرها ، الصداقة التي حرم منها فكان اغترابه العظيم .

الوزير ابن سعدان يسأل . وأبو حيان يجيب على امتداد أربعين ليلة ، في مجملها ليالى الإمتاع والمؤانسة .

والوزير ابن سعدان ممن اتصل بهم أبو حيان . وكما يرجح الأستاذ أحمد أمين ، فهو أبو عبدالله الحسين بن أحمد سعدان ، وزير صمصام الدولة البويهى من ٢٧٢ هجرية إلى ٢٧٥ هجرية ، وهو الذى وضع من أجله الكتاب . وكان ابن سعدان شغوفا بالمعرفة من فنون شتى ، كالفلسفة والأخلاق والأدب واللغة والدين . وهو كما يبدو من خلال الكتاب محاور إيجابى ، فأحيانا ينتقد إجابات أبي حيان ويحاوهر فيها ، وربما أظهره أبو حيان كذلك ترضية له ، لكننا في كل الأحوال نجد أنفسنا في موقف فريد في كتب التراث العربى القديمة ، فالسائل هو الوزير صاحب السلطان ، والمجيب العالم هو الأديب الفقير ، هو أبو حيان نفسه .

خلال ليالى المسامرة جرت الأسئلة والإجابة ، ويبدو أن أبا حيان لم يخطط لتدوينها في كتاب ، غير أن أبا الوفاء المهندس (محمود بن محمد بن يحيى بن اسماعيل بن العباس البوزنجانى المولود

سنة ٢٢٨ والمتوفى سنة ٢٨٨ هجرية) طلب من أبي حيان أن يدون له ما سامر به الوزير . ذلك إنه هو الذى قدم أبا حيان إلى الوزير . ولما بلغه ما يجرى من مسامرة عاتب أبا حيان لأنه اختص الوزير بسمره ، وذكره بفضله في تقديمه إليه . وطلب منه أن يكتب ما جرى . وبدأ أبو حيان يكتب ليالى (الإمتاع والمؤانسة) ويبدو أنه كان يرسلها أولا بأول . إلى أبي الوفاء المهندس . إذ يذكر في أول الجزء الثالث :

« أوصلت إليك الجزعين الأول والثانى على غلامك فائق وهذا الجزء هو الثالث ... »
ليس للكتاب موضوع واحد . وإنما اثنان مختلفان من المعرفة . كما تضمن مناظرات حول أيهما أفضل ، العرب أم الفرس ؟ . وانحاز أبو حيان إلى العرب . ومناظرة بين أبي سعيد السيرافي ومثي بن يونس في المنطق اليونانى والبيان والنحو العربى . كما كشف عن أسماء بعض جماعة اخوان الصفا ، التى قد يكون أبو حيان واحدا منها . وقد اخترت من هذا الكتاب ما يعبر عن ذات أبي حيان ، خاصة المقدمة ، فعندما يكتب أبو حيان عن ذاته ، عندما يعبر عن آرائه . نجد أنفسنا أمام نمط نادر من الكتابة في النثر العربى وفي ذلك تكمن فرادته .

السؤال أول الطريق إلى المعرفة ، أول خطوة إلى أفق العلم بالشئ المسئول عنه خاصة . وبالإحاطة عامة . يرتبط السؤال بالتوق ، بالشوق ، بالرغبة في أن يلم الإنسان بما لا يعرفه . والسؤال لا يصدر إلا عن الإنسان ، من بين كافة المخلوقات التى تسعى ، لا يتوجه بالسؤال إلا الإنسان ، والسائل يكون في الأغلب الأعم جاهلا بما يستفسر عنه . غير أن المجيب لا يكون بالضرورة عالما ، بل أحيانا ما يتضمن السؤال اشراقات معرفية أكثر وأعمق مما تتضمنه الإجابة . وهنا يصبح السؤال مقجرا للمعرفة ، محرضا على التماسها ، والوصول إليها . يصبح السؤال في حد ذاته معرفة ، وأحيانا يتضمن الجواب أيضا إما بصيغة إشارة خفية إلى الإجابة ، أو ينطق السؤال فيما يتعلق بالمحظور ، المسكوت عنه ، ما يصعب الاقتراب منه .
تلك قيمة السؤال المعرفية . ومن هنا تأتى أيضا قيمة الكتاب الفريد ، النادر ، الذى لا أعرف له مثيلا في التراث العربى . كتاب « الهوامل والشوامل » والمتضمن أسئلة التوحيدى ، وأجوبة الفيلسوف المتكلم مسكويه .

يقول المحققان الجليلان ، أحمد أمين وأحمد صقر ، في مقدمة الطبعة الوحيدة ، للجزء الأول من « الهوامل والشوامل » ، « التى صارت أنفس من المخطوطات لندرتها ، وفي معرض تفسيرهما لهذا العنوان ، أن الهوامل مقصود بها الإبل الهائمة ، الشاردة ، أما الشوامل فهى الحيوانات التى تضبط الإبل الهوامل فتجمعها . غير أن الدكتور أحمد محمد الحوق في كتابه عن التوحيدى يختلف في تأويل العنوان ، قالهوامل في رايه هى الإبل المهملة المسيية التى لا راعى لها . وربما كانت جمعا لكلمة هاملة أى من « هملت » السماء ، أى دام مطرها في سكون . والمراد إذن الأسئلة المنطلقة المتوالية الموجهة إلى مسكويه ، كأنها المطر النازل المدرار ، أما الشوامل فهى جمع لكلمة شامل أو شاملة ، من شملهم الأمر إذا عمهم . والمراد إذن الأجوبة الشاملة المحيطة المستوعبة لما في نفس السائل ، وربما كانت كلمة (شومل) وهى اسم من أسماء ربيع الشمال التى تهب على بلاد العرب من ناحية الشام والمراد إذن الأجوبة المنعشة لشوق أبى حيان إلى العلم والمعرفة (فهى جمع شومل) كأنها نسيمات الشمال الهابة على بلاد العرب من ناحية الشام .
أيا كانت التفسيرات لعنوان الكتاب الذى أرجح أنه من وضع التوحيدى ، فإنه دال بعمق ونفاذ على مضمون الكتاب الذى تتدفق فيه الأسئلة كالإبل الهوامل في بيداء المعرفة ، غير أن الحيوانات الشوامل لا تتجح أبدا في الأمساك بها وحصارها أو حتى تهدئتها .

عندما قرأت الهوامل والشوامل للمرة الأولى ، قرأت الأسئلة والأجوبة معا ، وعندما قرأته للمرة

الثانية توقفت أمام الأسئلة فقط ، وعدت إليها مرات ، والآن بعد حوالي ربع قرن من معايشة لهذا الكتاب الرائع لا أجد في ذهني ما علق منه إلا الأسئلة ، فلكم تبدو أجوبة « مسكويه » متواضعة ، محدودة في مواجهة شمولية الاستفهام واتساع أفقه ، واستيعابه للتجربة الإنسانية .
لم يترك التوحيدى دربا إلا وسلكه عبر أسئلته . دروب فلسفية ، علمية ، اقتصادية ، خلقية ، اجتماعية ، نفسية . تعكس بصيرة نافذة ، وروحا قلقة يعذبها التوق إلى المعرفة ، وهذا التوق كان التوحيدى يدرك جيدا أنه لن يجد مستقرة عند مسكويه أو غيره ، إنما أراد بتوجيه الأسئلة أن يعلنها ، أن يجاهر بها ، أن يطرحها على العالمين ، وما توجيهها إلى مسكويه إلا وسيلة ، إلا حجة ، بل أنه يورد في بعض الأسئلة تفاصيل دقيقة يبدو من خلالها أكثر علما من مسكويه ، لقد أدرك التوحيدى تلك الأسئلة الأبدية التي ستظل بلا إجابة فطرحها ، لكن مجرد النطق بها يعنى أنه ما من أفق يحول بين الإنسان والتوق إلى المعرفة . وتلك عظمة الإنسان ونيل جوهره ، أنه يسعى إلى ادراك ما لا يمكن ادراكه ، لكن الوعي بذلك لا يحول بينه وبين شرف الطرح ، شرف التساؤل رغم ادراكه أحيانا باستحالة الإجابة .

لماذا لا يعود الإنسان شابا فطفلا فجئنا ؟

ما ملتصق النفس في هذا العالم ؟

ما سبب استشعار الخوف بلا مخيف ؟

ما الزمان ؟

ما المكان ؟ وهل الوقت والزمان واحد ؟

لماذا يحن الإنسان إلى مكان بعينه ؟ أو إلى زمان بعينه ؟

ما السبب ، ما العلة ؟

ما ملتصق النفس في هذا العالم ؟

توقفت مطولا أمام الأسئلة التي تتعلق بالإنسان ، وقضاياها الخالدة ، الباقية ، وتجاوزت تلك الأسئلة التي طرحها التوحيدى منذ ألف عام والتي لم تكن معارف عصره قد توصلت إلى الإجابة عنها بعد ، مثل تساؤله : ما البرق ؟ ما الرعد ؟ ، لم كان صوت الرعد إلى أذانتنا أبداً وأبعد من رؤية البرق إلى أبصارنا ؟

لقد أجاب العلم الحديث على مثل هذه الأسئلة وإن كانت ملاحظة التوحيدى الدقيقة الثاقبة تظل موضع تقديرنا ، ذلك أنه أدرك بثاقب بصره أن الضوء أسرع من الصوت في وقت لم يكن العلم قد اكتشف فيه ذلك . هكذا يكون السؤال حافزا للمعرفة ، وكاشفا عن الحقيقة حتى مع العجز عن الوصول إلى الأسباب . لقد أعاد التوحيدى إلى السؤال قيمته ، السؤال المطلق ، المحرض ، الدافع ، أعاد إليه قيمته ، وعلمنا جوهر فرادته ، ويبدو ذلك رائعا في ثقافة طابعها المحافظ أعم ، وميلها إلى القائم أقوى ، وأخذها بالمفروق منه ، بالنصوص المصاغة ، المنقولة أكثر ، من هنا قيمة التوحيدى في تراثنا العربي ، القدرة على طرح السؤال ، وصياغته في أكثر من صورة ، مرة مباشرة ، ومرة بمراوغة ، وبعد ألف عام من رحيله ، نحن في أمس الحاجة إلى تعلم واحياء هذه القيمة ، قيمة السؤال ، مرة ببراءة الأطفال ، ومرة بدهاء المحنكين ، المجربين ، الذين يعون الأخطار التي يمكن تلحق بهم ، ولكن اخلاصهم للإنسانية ، لا يمنعهما أو يحول بينهم وبين النطق بالسؤال !

إذا كان التوحيدى قد طرح الأسئلة في « الهوامل والشوامل » فإنه في المقابسات يحاول أن يدمج السؤال بالجواب ، المؤكد أن « المقابسات » يلي « الهوامل والشوامل » إذ ترد إليه إشارة في المقابسات ، إذ يقول :

(وهذه مسألة في الهوامل ولها جواب آخر في الشوامل ..) ويبدو أنه كتبه في مرحلة متقدمة من عمره ، فلمح في بعض أجزائه شجنا يكاد يقارب ما يحويه « الاشارات الالهية » من شجن ، إذ يقول :

« الدنيا في عيني مسودة ، وأبواب الخير دوني منسدة ، يثقل المؤونة ، وقلة المعونة ، وفقد المؤنس بعد المؤنس ، وعثار القدم بعد القدم ، وانتشار الحال بعد الحال ، هذا مع ضعف الركن ، واشتغال الشيب ، وخمود النار ، وأقول شمس الحياة وسقوط نجم العمر ، وقرب الرجيل وإلى الله التوجه ، أما الباعث على تأليفه فهو حبه للفلسفة والفلاسفة ، يقول :

« إنما يبعثني على رواية كل ما سمعته من هؤلاء الجلة الأفاضل ، عشقى لهم وحمدي لله تعالى على ما أتاح منهم ، فلا تقرأ هذا الفصل ، ثم تقول : وما في هذا من الفائدة ؟ فإن درجات الحكمة مختلفة ، ولكل كلمة قائل ، ولكل قول راع ، ولكل عمل عامل ، ولكل عامل راع ، وهذا الشيخ معن قد أعل الله كعبه في علم الأوائل ، ووفر حظه من الحكمة الميثوبة في هذا العالم ، وفيما قال حث على حسن معرفة فضل الحكمة ، وفي معرفة فضل الانبعاث على اكتسابه والاستكثار منه .

ورغم ما يقوله التوحيدى نفسه عن مخالطته كبار علماء عصره ، ونقله عن بعضهم ، إلا أن المقاييسات يعد امتداداً للهوامل ، فالسائل التي يدور حولها سبق أن عبر عنها بالسؤال ، خاصة ما يتعلق بالإنسان . وعلاقته بالزمان والمكان ، وهذا ما توقفت أمامه .

نصل إلى الذروة ، إلى أحد قسم النثر العربى ، إلى الاشارات الالهية ، والذي تخطى فيه التوحيدى أساليب التعبير المستقرة ، المؤطرة ، ليخلق أسلوبه الخاص ، المتدفق ، الذي يستوعب كافة تقاليد النثر العربى ، لكنه يتجاوزها أيضاً ، هذا كتاب لا أقرأ صفحاته إلا بصوت مرتفع ، وإذا شرعت فلا أقدر إلا على قراءة عدد محدود من الصفحات لا يتجاوز العشرين في الجلسة الواحدة ، ذلك أن تدفقه ، وما يفيض به من ثراء ، يجعل استيعابه على مهل ضرورياً ، خاصة أنه جمع النثر والشعر معا .

في النثر العربى اتجاهان رئيسيان ، اتجاه مستقر ، واضح ، لا يخرج عن الأسس البلاغية التي وضعها علماء اللغة ، وهذا الاتجاه يحاكى في تقديري المؤسسات الظاهرة ، المسيطرة ، التي تسعى إلى اقرار الثبات ، والحد من المغامرة ، فكرية كانت أو سياسية أو اجتماعية ، أنه مواز أيضاً إلى ما يمكن اعتباره الظاهر .

وثمة اتجاه آخر ، يعبر عما هو أعسق ، عما لا يدرك في الظاهر ، عن تقلبات الذات وأحوالها ، عما لا يمكن أن تستوعبه العبارة ، فاللفظ محدود بحروفه ، لكن المعنى شاسع ، مراوغ ، وجهاد المبدع الحقيقي في الامساك به والتعبير عنه . هذا ما حاوله الصوفية الكبار ، عندما أشاروا ولم يحدوا ، وعندما رمزوا ولم يفسروا .

التوحيدى وحد بين ظاهر النثر وباطنه ، بين الأساليب التي تعارف عليها القوم ، والمعاني التي لم يطررها أحد ، بالطريقة التي يألّفها الكافة ، نادرة تلك الكتابة الذاتية التي يتوحد فيها الكاتب بما يكتب ، لا يخبر عن آخر ، ولا ينقل عن أولين ، إنما الكاتب والمكتوب عنه شيء واحد ، نادرة تلك الكتابة في تراثنا القديم ، يشير إلى رسائل بديع الزمان الهمداني ، وإلى « اعتبار » أسامة بن منقذ ، وسير بعض الدعاة الفاطميين مثل الأستاذ جودر ، والقاضى النعمان ، وما بثه الصوفية من أشواق ومكابدات في ثنايا كتبهم ، التوحيدى لم يكتف بالتعبير ظاهراً وباطناً ، إنما طرق دروباً مؤدية إلى أغوار النفس لم يسلكها قبله أحد .

اقرأ « الاشارات الالهية » فأجد نفسى في مواجهة نص حديث كأنه كتب اليوم ، واطنه أصبح خارج التحديد لأنه صادق صدقاً موجعاً . يعبر عنى وعن أى إنسان ، في أى مكان وزمان ، أكثر مما يعبر بعض المجاهلين ، المعاصرين .

اقرأ « الاشارات الالهية » فأتخيل لو أن النثر العربى انطلق من صفحات ذلك الكتاب وتطور ، لكننى أعرف جيداً أن « لو » لا تجوز في التاريخ ، لكن هذا لا يمنع من استخلاص العبر ، لقد جرى تعميم مقصود على التوحيدى ، وكتبه . وحتى سنة ١٩٢٩ عندما قدمه حسن السندوبى في مصر ، من خلال طبعه للمقاييسات لم يكن يسمع به أحد ، ولم يتوقف عنده أحد ، وقبل السندوبى طبعت

المقاييسات في مكان ناء عن تلك الرقعة الجغرافية التي نعيش فيها ويتكلم أهلها العربية ، طبع في الهند طبعة محدودة جدا . ولحسن الحظ أن نسخة منها وصلت إلى يدي حسن السندوبي فقدمها ، ونقحها ، وطبعها من جديد ، جزاء الله خيرا ، ورحمه رحمة واسعة .
أقرا ، الاشارات الالهية ، فأدرك هذا الحس الإيمانى العميق ، وأذهل من جرأة بعض الفقهاء الذين رموا التوحيدى بالزندقة .

أقرا ، الاشارات الالهية ، ويدركنى الاعجاب بهذا التعبير القوى عن الغربة ، غربة الموهبة ، عاقبة التفرد ، غربة الذات التى تدرك قيمتها ، تفشل في تحقيق الصلة بمن يحيطها ، فتسعى إلى تحقيق الصلة بالطلق . بالأبدى ، بالأكوان كلها ، فتتحقق صلة من نوع آخر ، بقدر ما تحوى من تحقق . بقدر ما تحوى من غربة أبدية .

ولأن الكتاب كنز ، ومن الصعب اشاعة هذا الكنز في حيز ضيق ، واطار محدد ، أثرت الاشارة إلى الاشارات من خلال نموذجين متكاملين ، الرسالة الأولى ، والرسالة التى اطلقت عليها ، رسالة الغربة ، . للأسف وصلنا بعض من الكتاب ، ومازال جزء منه مفقودا ، بل اننى أتخيل تلك المخطوطات العتيقة في الهند وماليزيا وقرى الصعيد ومساجد اليمن والمغرب وسائر انحاء الدنيا ، وأمل العثور يوما على مؤلفات التوحيدى المفقودة ، نسخة كاملة من الاشارات الالهية ، او نسخة كاملة من المحاضرات الذى أورد ياقوت الحموى أجزاء منه ، وكتاب الزلفة ، وكتاب رياض العارفين ، ونصوص رسائله التى اتوقف امام آخرها ، تلك الرسالة المؤثرة التى يشرح فيها ، لماذا أقدم على حرق كتبه .

هذا الموقف المأساوى الذى لا أقرا عنه إلا وأرتعد . ولا أتخيله إلا وأفرع ، ولا أسمع من يتحدث عنه إلا ويتأبى كمد .

اعتدت معايشة من تعلقت بهم من أعظم الأقدمين ، ومع الوقت ، مع القراءة لهم وعندهم ، يصبحون جزءا من صحبى ، وعمادا في أسرتى ، وأركاناً لروحي .
الشيخ محمد أحمد ابن آياس الحنفى المصرى ، صاحب « بدائع الزهور في وقائع الدهور » ، صاحبى الذى يحدثنى عما لم أعشه .

الشيخ محبى الدين ابن عربى الحائضى ، الشيخ الأكبر ، أراه كمعلم ، شيخ أحيانا يحتو وأحيانا يقسو ، لكنه في كل الأحوال يكشف ويدل ويهذى إلى مجرات الروح الخفية .
أما على بن محمد بن العباس أبو حيان التوحيدى ، فأراه وأشعر به بمنزلة شقيقى وأخى الذى سبقنى في الوفاة على الدنيا . لكنه لسبب ما اغترب ورحل ، ولا أحد من أهلى يريد أن يبصرنى ، لكننى كلما خلوت بنفسى تلوت بعضا مما خطه وأودعه تلك الصفحات ، فاشفق وأرثى وأعجب ، ويفغمرنى حنين ، لأفظا في صوت بين بين ، لعله بالغة .
« أه يا اخا غريبى الذى لم أراه . »

جمال الغيطانى



البصائر والذخائر

يرجح بعض الدارسين لأبي حيان أن كتابه البصائر والذخائر من مؤلفاته المبكر ، ويشير أبو حيان إلى سنة تأليفه في مقدمة الجزء الأول (٣٥٠ هجرية) ، وقد اعتمدنا على الطبعة التي حققتها الدكتورة وداد القاضي ، وصدرت عن دار صادر - بيروت ، والهوامش الواردة في ذيل المختارات من إعدادها .

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه ثقني

أنتهم إنني أسألك جداً مقروناً بالتوفيق ، وعلماً بريئاً من الجهل ، وعملاً غريباً من الرياء ، وقولاً موثقاً بالصواب ، وحالاً دائراً مع الحق ؛ نعم ، وفطنة عقلٍ مضروبة في سلامة صدر ، وراحة جسمٍ راجعة إلى رَوْحٍ بال ، وسكونٍ نفسٍ موصولاً بشبات يقين ، وصحة حجة بعيدة من مرض شبهة ، حتى تكون غاييتي في هذه الدار مقصودة بالأمثل فالأمثل ، وعاقبتني عندك محموداً بالأفضل فالأفضل ، مع حياة طيبة أنت الواعد بها ووعدك الحق ، ونعيم دائم أنت المبلِّغ إليه .

اللهم فلا تخيب رجاء من هو منوط بك ، ولا تصغر كفاً هي ممدودة إليك ، ولا تُبدل نفساً هي عزيزة بمعرفتك ، ولا تسلب عقلاً هو مستضيء بنور هدايتك ، ولا تُعم عينا فتحتها بنعمتك ، ولا تحبس لساناً عودته الثناء عليك ، وكما أنت أولى بالفضل فكن أحرى بالإحسان : الناصية بيدك ، والوجه عان لك ، والخير متوقع منك . والمصير على كل حال إليك ، ألسني في هذه الحياة البائدة ، ثوب المعصمة ، وخلصني في تلك الدار الباقية بزينة الأمن ، وافطم نفسي عن طلب العاجلة الزائلة ، وأجرني على العادة الفاضلة . ولا تجعلني ممن سها عن باطن ما لك عليه ، يظاهر ما لك عنده ، فالشقي من لم تأخذ بيده ، ولم تؤمنه من غده ، والسعيد من أوثقه إلى كنف نعمتك ، ونقلته حميداً إلى منازل رحمتك ، غير مناقشٍ له في الحساب ، ولا سائقٍ له إلى العذاب ، فإنك على ذلك قدير .

ثبت - أطل الله بقاءك - الرأي بعد المخض والاستخارة ، وصح العزم بعد التنقيح والاستشارة ، على نقل جميع ما في ديوان السماع ، ورسم ما أحاطت به الرواية ، واشتملت عليه الدراية ، منذ عام خمسين وثلاثمائة ، مع توخي قصار ذلك دون طويله ، وسمينه دون غثه ، ونادره دون فاشيه ، وبديعه دون معتاده ، ورفيعه دون سفسافه ، ومنى أنصفتك نفسك ، وهدتك الرأي ، وملكتك الزمام ، وجبتك الهوى ، وحملتك على النهج ، وحمكت دواعي العصبية ، علمت علماً لا يُخالطه

شك ، وَتَيَقَّنْتَ تَيْقَنًا لَا يَطْوُرُ بِهِ رَيْبٌ ، أَنْكَ مِمَّنْ كُفِيَ مُؤَوْنَةُ التَّعَبِ بِنُضْبٍ غَيْرِهِ ،
وَمُنَحَ شَرِيفَ الْمَوْهَبَةِ بِطَلَبِ سَوَاءٍ ، وَذَلِكَ يَبَيِّنُ عِنْدَ تَصَفُّحِ مَا تَضَمَّنَ هَذَا الْكِتَابُ ؛
فَأَنَّكَ مَعَ النَّشَاطِ وَالْحِرْصِ سَتُشْرِفُ عَلَى رِيَاضِ الْأَدَبِ ، وَقَرَائِحِ الْعَقُولِ . مِنْ لَفْظِ
مَصُونٍ ، وَكَلَامِ شَرِيفٍ ، وَنَثَرٍ مَقْبُولٍ ، وَنَظْمٍ لَطِيفٍ ، وَمَثَلٍ سَائِرٍ ، وَبَلَاغَةٍ
مُخْتَارَةٍ ، وَخَطْبَةٍ مُخْبِرَةٍ ، وَأَدَبٍ حُلُوٍّ ، وَمَسْأَلَةٍ دَقِيقَةٍ ، وَجَوَابٍ حَاضِرٍ ، وَمَعَارِضَةٍ
وَاقِعَةٍ ، وَدَلِيلٍ صَائِبٍ ، وَمَوْعِظَةٍ حَسَنَةٍ ، وَحُجَّةٍ بَلِيغَةٍ ، وَفَقْرَةٍ مَكْنُونَةٍ ، وَلَمْعَةٍ
ثَائِقَةٍ ، وَنَصِيحَةٍ كَافِيَةٍ ، وَإِقْنَاعٍ مُؤَنَسٍ ، وَنَادِرَةٍ مُلْهِمَةٍ ، وَعَقْلٍ مُلْقِحٍ ، وَقَوْلٍ
مُنْتَقَحٍ ، وَهَزْلٍ شَيْبٍ بَجْدٍ ، وَجِدِّ عُجْبٍ بِهَزْلٍ ، وَرَأْيٍ اسْتَبْطِ بِعُنَايَةٍ ، وَأَمْرٍ يَبْتَ
بَلِيلٍ ، وَسِرٍّ كُتِمَ عَلَى الزُّهْدِ ، وَحُجَّةٍ اسْتَخْلِصَتْ مِنْ شَوَائِبِ الشُّبْهِ ، وَشَبْهَةٍ أُنْشِثَتْ
مِنْ قَرُوطِ جَهَالَةٍ ، وَبِلَادَةِ طِبَاعِ رُؤَيْتِ بِلِسَانِ عِيٍّ ، وَلَفْظِ مَرْدُولٍ عَنْ صَدْرِ خَرَجٍ ،
وَفَوَادِ عِبَامٍ .

جَمَعْتُ ذَلِكَ كُلَّهُ فِي هَذِهِ الْمُدَّةِ الطَّوِيلَةِ مَعَ الشَّهْوَةِ^(١) النَّامَةِ ، وَالْحِرْصِ
الْمُتَضَاعَفِ ، وَالذَّأْبِ الشَّدِيدِ ، وَلِقَاءِ النَّاسِ ، وَقَلْبِي الْبَلَادِ ، مِنْ كِتَابٍ شَتَّى حُكِيَتْ
عَنْ أَبِي عَثْمَانَ عَمْرَو بْنِ بَحْرِ الْجَاخِظِ الْكِنَانِيِّ ، وَكُتِبَ هِيَ الدَّرُّ الثَّيِّرُ ، وَالنُّورُ
الْمَطِيرُ ، وَكَلَامُهُ الْخَمَرُ الصَّرْفُ ، وَالسُّحْرُ الْحَلَالُ ؛ ثُمَّ كِتَابُ « النَّوَادِرِ » لِأَبِي
عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدِ بْنِ زِيَادِ الْأَعْرَابِيِّ^(٢) ، ثُمَّ كِتَابُ « الْكَامِلِ » لِأَبِي الْعَبَّاسِ مُحَمَّدِ بْنِ يَزِيدِ
الْثُمَالِيِّ ، ثُمَّ كِتَابُ « الْعَيُونِ » لِأَبِي مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُسْلِمِ بْنِ قَتِيْبَةِ الْكَاتِبِ

١ - ابن الأعرابي هو اللغوي النحوي الذننبة الكوفي المشهور المتوفى في سر من راي سنة ٢٣٦ : انظر ترجمته في الفهرست . ٧٥ وتاريخ بغداد . ٥ . ٢٨٢ ومعجم الأدباء ٧ . ٥ ووفيات الأعيان ٤ . ٣٠٦ والوافي بالوفيات ٣ . ٧٩ وإنباه الرواة ٣ . ١٢٨ . وكتابه « النواذر » لم يصلنا ، وقد وصفه ياقوت بأنه « كبير » . وقال ابن النديم إن جماعة رَوَوْهُ عَنْ ابْنِ الْأَعْرَابِيِّ ، مِنْهُمْ الطُّوسِيُّ وَتَعَلَّبَ وَغَيْرُهُمَا . وَاضْأَفَ أَنَّهُ قِيلَ إِنَّهُ أَفْنَا عَشْرَةَ رَوَايَةٍ ، وَقِيلَ تَسْعَ .

٢ - لأبي عبد الله العباس محمد بن يزيد . والمبرد هو أحد كبار أئمة اللغة والنحو والأدب ببغداد . وكانت وفاته بها سنة ٢٨٥ . وله الكتب الكثيرة ، وكتابه « الكامل » المذكور هنا طبع عدة مرات . انظر ترجمته في الفهرست . ٦٤ وتاريخ بغداد ٣ . ٣٨٠ ومعجم الأدباء ٧ . ١٣٧ ووفيات الأعيان ٤ . ٣١٢ ونور القبس ٣٢٤ وإنباه الرواة ٣ . ٢٤١ .

الدَّيْنُورِي^(١) ، ثم « مجالسات » ثعلب^(٢) ، ثم كتاب ابن أبي طاهر الذي وسمه بـ « المنظوم والمشورة »^(٣) ، ثم كتاب « الأوراق » للصولي^(٤) ، ثم كتاب « الوزراء » لابن عبدوس^(٥) ، و« الحيوانات » لقدامة^(٦) . هذا إلى غير ذلك من جوامع للناس مضافات إلى حفظ ما فاهوا به ، واحتجوا له ، واعتمدوا عليه ، في محاضرتهم ونواديهم ، وحواضرهم ونواديهم ، مما يطول إحصاؤه ، ويُمل

١ - هو من كبار علماء الكوفة باللغة والنحو وغريب القرنين ومعانيه والفقه والشعر . ولد في الكوفة وتوفي سنة ٢٧٠ . وله المؤلفات الكثيرة المشهورة ، وكتابه « العيون » المذكور في النص هو كتابه المشهور المسمى كتاب عيون الأخبار . انظر ترجمة ابن قتيبة في الفهرست : ٨٥ وتاريخ بغداد ١٠ : ١٧٠ ووفيات الأعيان ٣ : ٤٢ وإنباء الرواة ٢ : ١٤٣ .

٢ - أبو العباس أحمد بن يحيى بن زيد الشيباني هو أحد أئمة الكوفيين في اللغة والنحو والمعاني والشعر والغريب . توفي ببغداد سنة ٢٩١ . وله الكتب الكثيرة . وكتابه « المجالسات » المذكور هنا طبع تحت اسم « مجالس ثعلب » (القاهرة . ١٩٤٨) ، إلا أنه يبدو أن المطبوع هذا يشكل جزءاً وحسب من الكتاب . إذ إن بعض نقول أبي حيان عنه لا ترد فيه : وقد وصف ابن النديم كتاب المجالسات هذا فقال : « ولأبي العباس مجالسات أملاها على أصحابه في مجالسه » . تحتوي على قطع من النحو واللغة والأخبار ومعاني القرآن والشعر مما سمع وتكلم عليه . روى ذلك عنه جماعة منهم أبو بكر ابن الأنباري وأبو عبدالله اليزيدي وأبو عمر الزاهد وابن درستويه وابن مقسم . انظر ترجمة ثعلب في الفهرست ٨٠ وتاريخ بغداد ٥ : ٢٠٤ ووفيات الأعيان ١ : ١٠٢ وإنباء الرواة ١ : ١٣٨ وتذكرة الحفاظ ٦٦٦ .

٣ - ابن أبي طاهر هو أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر طيفور الكاتب الشاعر المشهور المتوفى ببغداد سنة ١٨٠ . ألف كتباً عديدة (أشهرها كتاب بغداد) وكتابه « المنظوم والمنثور » لم يصلنا كله . وقد قال ابن النديم إنه يقع « في أربعة عشر جزءاً والذي بيد الناس ثلاثة عشر جزءاً » . وهناك جزء منه قد وصلنا ولكنه مازال مخطوطاً محفوظاً في دار الكتب (أدب ٥٨١) بعنوان اختيار المنظوم والمنثور . ترجمة ابن أبي طاهر في الفهرست ١٦٣ ومعجم الأدباء ١ : ١٥٢ وتاريخ بغداد ٤ : ٢١١ والوافي بالوفيات ٨٧ .

٤ - الصولي هو أبو بكر محمد بن يحيى بن عبدالله الصولي الشطرنجي الكاتب الأديب النديم المشهور المتوفى سنة ٣٣٥ . ترجمته في الفهرست ١٦٧ وتاريخ بغداد ٣ : ٤٢٧ ومعجم الأدباء ٧ : ١٣٦ ومعجم المرزبان ٤٣١ ووفيات الأعيان ٤ : ٣٥٦ والوافي بالوفيات ٥ : ١٩٠ ولسان الميزان ٥ : ٤٢٧ ومصنفاته كثيرة . وكتابه « الأوراق » المذكور في النص هو أشهر كتبه . واسمه كاملاً « الأوراق في أخبار آل العباس وأشعارهم » . وقد طبع منه ثلاث قطع . أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم (لندن . ١٩٣٥ - ١٩٣٦) وأخبار الراضي والمتقي (لندن . ١٩٣٤ - ١٩٣٥) وأخبار الشعراء المحدثين (لندن . ١٩٣٤) .

٥ - ابن عبدوس هو أبو عبدالله محمد بن عبدوس الكوفي المعروف بالجهشياري . أحد كبار المؤرخين القدماء وواحد من البارزين من رجالات الدولة العباسية في عصره . توفي سنة ٣٣١ . أخباره متفرقة في المصادر . وله ترجمة في الفهرست ١٤١ والوافي بالوفيات ٣ : ٢٠٥ والنجوم الزاهرة ٣ : ٢٧٩ . وكتابه المذكور في النص والمسمى « كتاب الوزراء والكتاب » طبع في القاهرة سنة ١٩٣٨ بتحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبدالحفيظ شلبي . وفي سنة ١٩٦٤ قام ميخائيل عواد بطبع النقول عن هذا الكتاب من المصادر المخطوطة والمطبوعة ونشرها تحت عنوان « نصوص ضائعة من كتاب الوزراء والكتاب » (دار الكتاب اللبناني . بيروت . ١٩٦٤) .

٦ - هو أبو جعفر قدامة بن جعفر بن قدامة البغدادي الكاتب البلخي المنطقي المعروف المتوفى ببغداد سنة ٣٣٧ . انظر ترجمته في الفهرست ١٤٤ والمنظوم ٦ : ٣٦٣ ومعجم الأدباء ٦/٣٠٣ والنجوم الزاهرة ٣ : ٢٩٧ . وكتابه « الحيوانات » المذكور في النص لا ذكر له فيما بين أيدينا من المصادر .

استقصاؤه ، وسيعتري في التفصيل كل شيء منه إلى معدنه ، ويتسبب إلى قائله ؛
والغرض من الكتاب مسوق إليك ، والمراد فيه معروض عليك ، فلا عائدة إذن
للإطالة ، إلا بقدر التلطف والاستمالة .

وأنا ضامن لك أنك لا تخلو في دراسة هذه الصحيفة من أمهات الحكم ، وكنوز
الفوائد :

أولها وأجلها : ما يتضمن كتاب الله تعالى الذي حارت العقول الناصعة في
رصفه ، وكلت الألسن البارة عن وصفه ، لأنه المطمئع ظاهره في نفسه ، الممتنع
باطنه بنفسه ، الداني بإفهامه إياك إليك ، العالي بأسراره وغيوبه عليك ، لا يُطار
بحواشيه ، ولا يمل من تلاوته ، ولا يحسن بإخلاق جدته ، كما قال علي بن أبي
طالب كرم الله وجهه : ظاهره أنيق ، وباطنه عميق ، ظاهره حكم ، وباطنه علم .
والثاني : سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فإنها السبيل الواضح ، والنجم
اللائح ، والقائد الناصح ، والعلم المنصوب ، والأتم المقصود ، والغاية في
البيان ، والنهاية في البرهان ، والفزع عند الخصام ، والقُدوة لجميع الأنام .

والثالث : حجة العقل ؛ فإن العقل هو المليك المفزوع إليه ، والحكم المرجوع
إلى ما لديه ، في كل حال عارضة ، وأمر واقع ، عند خيرة الطالب ، ولذد
الشاغب ، وبيس الرقيق ، واعتساف الطريق ، وهو الوصلة بين الله وبين الخلق ، به
يُمَيِّزُ كلام الله عز وجل ، ويُعرف رسول الله ، ويُنصر دين الله ، ويُذب عن توحيد
الله ، ويُلمس ما عند الله ، ويُتَجَبَّ إلى عباد الله ، ويُساس عباد الله ، ويتخلص
عباد الله من عذاب الله ؛ نوره أسطع من نور الشمس ، وهو الحكم بين الجن
والإنس ، التكليف تابعه ، والحمد والذم قرينه ، والثواب والعقاب ميزانه ، به تُربط
النعمة ، وتُستدفع النعمة ، ويُستدام الوارد ، ويُتألف الشارد ، ويُعرف الماضي ،
ويُقاس الآتي ، شريعته الصديق ، وأمره المعروف ، وخاصته الاختيار ، ووزيره
العلم ، وظهيره الحلم ، وكنزه الرفق ، وجنده الخيرات ، وجلته الإيمان ، وزينته
التقوى ، وثمرته اليقين .

والرابع : رأي العين ؛ وهو يجمع لك بحكم الصورة ، واعتراف الجمهور ،
وشهادة الدهور ، فتيحة التجارب ، وفائدة الاختيار ، وعائدة الاختبار ، وإذعان

انحس ، وإقرار النفس ، وطمأنينة البال ، وسكون الاستبداد .
هذا سوى أطراف من سياسة العجم ، وفلسفة اليونانيين ، فإن الحكمة ضالة
المؤمن ، أين ما وجدها أخذها ، وعند من رآها طلبها ، والحكمة حق ، والحق
لا يُنسب إلى شيء ، بل كل شيء يُنسب إليه ، ولا يُحمل على شيء ، بل كل شيء
يُحمل عليه ، وهو متفق من كل وجه ، يطرب به الراضي ، ويقنع به الغضبان ،
مُشرق في نفسه ، موثوق بحكمه ، معمول بشرطه ، معدول إلى قضيته ، به خلق الله
عز وجل السماء والأرض ، وعليه أقام الخلق ، وبه قبض وبسط ، وحكم وأقسط .
فاستدع - أي ذلك الله - نشاطك الشارد ، وراجع بآلك الرخي وجل بفهمك في
رياض عقول القدماء ، وانظر إلى مآثر هؤلاء الحكماء ، واطلع على نوادر فطن
الأدباء ، واجمع بين طيب السلف ، وخبيث الخلف ، فما تخلو عند جولانك فيها من
جد أنت سعيد به ، وهزل أنت مُدارئ فيه ، ورأي أنت فقير إليه ، وأمر لعلك
محمود عليه : [البسيط] .

فالدهرُ آخرةُ شبةٍ بأولِهِ ناسُ كناسٍ وإيَّامُ كأيَّامٍ

وإذا حفظت ما مضى ، حذرت ما بقي .
واجعل نهاية حالك ، وقصارى أمرك ، فيما تستفيد من هذا الكتاب ، وعساه
يجمع ألفي ورقة ، أن تكون سالياً عن هذه الدنيا ، قالياً لأمورها ، واثقاً بالله تعالى ،
مطمئناً إليه ، ممترياً لمزيده ، منتظراً لموعوده ، عالماً بأنه أولى بك ، وأملك لك ،
وأقرب إليك ، فإنه متى خلأك من توفيقه عثرت عثاراً بعد عثار ، وحطَّ ثقل الحرص
عليها عن ظهورنا ، وفتح على ماعنده بصائرنا ، وغمض عما هاهنا أبصارنا ،
ولا ابتلاتنا بنا ، ولا أسلمنا إلينا ، إنه ولي النعمة ومانحها ، ومرسل الرحمة وفاتحها ،
بيده الخير ، وهو على كل شيء قدير ؛ جلّ مذكوراً ، وعز مراداً .

اللهم فاسمع ، وإذا سمعت فأجب ، وإذا أجبت فبلغ ، وإذا بلغت فأدِّمْ ، فإنه
لا يشقى من كنت له ، ولا يسعد من كنت عليه ، وصل على نبيك المبعوث من لدنك
إلى خلقك ، محمد وآله الطاهرين ، ولا تنزع من قلوبنا خلاوة ذكره ، ولا تُضلنا بعد

إِذْ هَدَيْتَنَا ، وَقَرَّبَ عَلَيْنَا طَرِيقَ الْاِقْتِدَاءِ بِأَمْرِهِ ، وَالْاِهْتِدَاءِ بِهَدْيِهِ . فَإِنَّكَ تَصْرِفُ مِنْ تَشَاءُ إِلَى مَا تَشَاءُ ؛ لَا رَادَّ لِقَضَائِكَ ، وَلَا مَعْقَبَ لِحُكْمِكَ ، وَلَا مُحِيطَ بِكُنْهِكَ ، وَلَا مُطَّلِعَ عَلَى سِرِّكَ ، وَلَا وَاصِفَ لِقُدْرِكَ ، وَلَا آمِنَ لِمَكْرِكَ ؛ أَنْتَ الْإِلَهُ الْمَحْمُودُ . وَأَنْتَ نِعَمُ الْمَوْلَى وَنِعَمُ النَّصِيرِ .

قَدْ تَلَطَّفْتُ إِلَى قَلْبِكَ بِحَثِي إِيَّاكَ عَلَى حِظِّكَ فِي فَنُونِ مِنَ الْقَوْلِ ، وَضُرُوبِ مِنَ الْوَصَايَا ، وَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ صَوَابِي عِنْدَكَ فِيهَا مُتَقَبَّلًا ، وَخَطَايِي فِيهَا عِنْدَكَ مُتَأَوَّلًا . لَا لِأَنِّي لَدَيْكَ أَهْلٌ ، وَلَكِنْ لِأَنَّكَ حَقِيقٌ بِهِ ، وَلَهُ خَلِيقٌ ، وَمَعَهَا شَكَاكُتٌ فِيمَا يَرِدُ عَلَيْكَ مَنَى فِي هَذَا الْكِتَابِ ، فَلَاتَشْكُ أَنْيَ قَدْ تَثَرْتُ لَكَ فِيهِ اللَّوْلُوُّ وَالْمَرْجَانُ . وَالْعَقِيقُ وَالْعَقِيَانُ ، وَهَكَذَا يَكُونُ عَمَلٌ مِنْ طَبِّ لِمَنْ حَبَّ .

تَبَّتْ اللَّهُ نِعَمَهُ لَدَيْكَ ، وَخَفَّفَ مَوْثِقَهُ شُكْرُهَا عَلَيْكَ . وَتَابِعْ لَكَ الْمَزِيدَ فِي ، وَأَسِرْتُ إِسَارًا بَعْدَ إِسَارٍ ، وَاسْتَمَرَّرْتُ فِي الْخِزْيِ اسْتِمْرَارًا بَعْدَ اسْتِمْرَارٍ ، وَتِلْكَ حَالُ مَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَأَرْسَلَهُ مِنْ يَدِهِ ، وَوَكَّلَهُ إِلَى حَوْلٍ خَفِيفٍ ، وَمَثْنٍ ضَعِيفٍ ؛ لَا أَذَاقَكَ اللَّهُ كَرَبَ هَذِهِ الْبَلْوَى ، وَلَا أَخْلَاكَ أَبَدًا مِنْ مُتَجَدِّدِ النُّعْمَى .

وَاصْرِفْ مَا اسْتَطَعْتَ هِمَّتَكَ عَنْ هَذَا الظِّلِّ الْقَالِصِ ، وَالزُّخْرِفِ الْغَاظِلِ ، وَالْعِيشِ الزَّائِلِ ، إِلَى مَا وَعَدَكَ اللَّهُ ، فَإِنْ إِلَهَامُهُ إِيَّاكَ مَتَى صَادَفَ طَاعَتَكَ لَهُ ، وَدَعَاكَ لَكَ مَتَى وَافَقَ إِجَابَةَ مِنْكَ ، مَدَّتْ السَّعَادَةُ جَنَاحَهَا عَلَيْكَ ، وَصَافَحَتْ يَدَ الْيُمْنِ كَفَّكَ ، وَنَجَوْتَ مِنْ مَعَاطِبِ عَالَمٍ : السَّاكِنُ فِيهِ وَجَلْ ، وَالصَّاحِي مِنْ أَهْلِهِ تَمَلْ ، وَالْمَقِيمُ عَلَى ذُنُوبِهِ خَجَلْ ، وَالرَّاحِلُ عَنْهُ مَعَ تَمَادِيهِ عَجَلْ ؛ وَإِنَّ دَارًا هَذَا مِنْ آفَاتِهَا وَصُرُوفِهَا ، لِمُحَقَّقَةٍ بِهَجْرَانِهَا وَتَرْكِهَا ، وَالصُّدُوفِ عَنْهَا ، خَاصَّةً وَلَا سَبِيلَ لِسَاكِنِهَا إِلَى دَارِ قَرَارِهِ إِلَّا بِالزَّهْدِ فِيهَا ، وَالرِّضَى بِالطَّفِيفِ مِنْهَا « كَبَلُغَةُ النَّاوِي وَزَادِ الْمُنْتَظِقِ » .

عَرَفْنَا اللَّهَ حَظَّنَا ، وَسَلَّكَ بِنَا فِي طَرُقِ رُشْدِنَا ، وَسَلَّ حُبَّ الدُّنْيَا مِنْ قُلُوبِنَا ، كُلَّ يَوْمٍ جَدِيدٍ ، وَحَرَسَكَ مِنْ نَفْسِكَ ، وَعَصَمَكَ مِنْ بَنِي جَنْسِكَ ، وَعَرَّفَكَ الْخَيْرَ ، وَحَبَّبَ إِلَيْكَ الْإِحْسَانَ ، وَوَقَّفَكَ لِلرُّشَادِ ، وَخَتَمَ أَمْرَكَ بِالطَّهَارَةِ بَعْدَ بَلُوغِ الْأَمَانِي وَذَرَكِ الْمَطَالِبِ ، بِمَنِّهِ وَقُدْرَتِهِ .

نصيحة

إِيَّاكَ أَنْ تَعَاثَ سَمَاعَ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الْمَضْرُوبَةِ بِالْهَزْلِ ، الْجَارِيَةِ عَلَى السُّخْفِ ، فَإِنَّكَ لَوْ اضْرَبْتَ عَنْهَا جُمْلَةً لِنَقْصِ فَهْمِكَ ، وَتَبَلَّدَ طَبْعُكَ وَلَا يَفْتَقُ الْعَقْلُ شَيْءً كَتَصَفُّحِ أُمُورِ الدُّنْيَا ، وَمَعْرِفَةِ خَيْرِهَا وَشَرِّهَا ، وَعِلَانِيَتِهَا وَسِرِّهَا ؛ وَإِنَّمَا نَثَرْتُ هَذِهِ الْقَوَاتِحَ عَلَى مَا اتَّفَقَ ، وَقَدْ كَانَ الرَّأْيُ نَظَمَ كُلِّ شَيْءٍ إِلَى شَكْلِهِ ، وَرَدَّهُ إِلَى بَابِهِ ، وَلَكِنْ مَنَعَ مِنْهُ مَا أَنَا مَدْفُوعٌ إِلَيْهِ مِنْ انْفِتَاتٍ حَالِي ، وَانْبِتَاتٍ مُتَنِّي ، وَالتَّوَاءِ مَقْصِدِي ، وَفَقَدِ مَا بِهِ يُمَسِّكُ الرَّقْمُ ، وَيُصَانُ الْوَجْهُ ، لَا عَوْجَاجَ الدَّهْرِ ، وَاضْطِرَابِ الْجَبَلِ ، وَإِدْبَارِ الدُّنْيَا بِأَهْلِهَا ، وَقُرْبِ السَّاعَةِ إِلَيْنَا ؛ فَاجْعَلِ الْإِسْتِرْسَالَ بِهَا ذَرِيعَةً إِلَى جَمَامِكَ ، وَالْإِنْسِاطِ فِيهَا سُلْماً إِلَى جِدِّكَ ، فَإِنَّكَ مَتَى لَمْ تُذِقْ نَفْسَكَ فَرَحَ الْهَزْلِ ، كَرَبَهَا غَمُّ الْجِدِّ ، وَقَدْ طُبِعَتْ فِي أَصْلِ التَّرَكِيبِ عَلَى التَّرْجِيحِ بَيْنَ الْأُمُورِ الْمُتَفَاوِتَةِ ، فَلَا تَحْمِلْ فِي شَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ عَلَيْهَا ، فَتَكُونَ فِي ذَلِكَ مُسَيِّئاً إِلَيْهَا ، وَلَأْمِراً مَا حُمِدَ الرَّقْءُ فِي الْأُمُورِ وَالتَّاتِي لَهَا ، وَمَا أَحْسَنَ مَا أَشَارَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى فِي قَوْلِهِ^(١) : « إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ ، فَأَوْغِلْ فِيهِ بَرْقُ ، فَإِنَّ الْمُتَنَبِّتَ لَا أَرْضاً قَطَعَ ، وَلَا ظَهراً أَبْقَى » .

قعود وقيام

قال الإسكافي وأبو عيسى الوراق^(٢) : يجوزُ أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ قَاعِداً قَائِماً ، وَمُتَحَرِّكاً سَاكِناً ؛ هَكَذَا حَكَى الْكَعْبِيُّ وَهُوَ ثِقَةٌ . وَهَذَا مِنْ شَنِيعِ الْقَوْلِ وَقَاحِشِ الْإِعْتِقَادِ .

١ - الحديث في مسند أحمد بن حنبل ٣ : ١٩٩ والمقاصد الحسنة : ٣٩١ . قال : رواه البزار والحاكم في علومه والبيهقي في سننه . وقوله « فَإِنَّ الْمُتَنَبِّتَ لَا أَرْضاً قَطَعَ وَلَا ظَهراً أَبْقَى » ، يجري مجرى المثل : قال ابن سلام : يقول إن هذا الذي كُتِبَ نفسه فوق طاقته من العبادة بقي حسيراً كالذي أفرط في إغذاء السير حتى عطبت راحلته ولم يقصر سفره (فصل المقل : ١٣) . وانتظر أيضاً الميداني (١ : ٦) .

(١) الإسكافي أبو جعفر محمد بن عبدالله من أئمة المعتزلة . وإليه تنسب الفرقة الإسكافية . توفي سنة ٢٤٠ أو ٢٤١ له أخبار في العنية والامل : ٤٤ والانتصار : ٢٠٢ و٢٢٨ والفرق بين الفرق : ١٦٩ والملل والنحل لمجهول . ١٠٣ وصفحات متفرقة من مقالات الإسلاميين ومادة الإسكافي في الانساب : وأما أبو عيسى الوراق فهو محمد بن هارون . توفي سنة ٢٤٧ . وهو ممن ألف كتباً للشيعة كما فعل ابن الراوندي . ويحط عليه أبو حيان في كتبه ويسمه بالإلحاد (انظر مثلاً الإمتاع : ٣ : ١٩٢ والهوامل والشوامل : ٢١٣) . وفي ترجمة الوراق انظر لسلي الميزان ٥ : ٤١٢ والفهرست : ٢١٦ . وانظر فهرس كتاب الانتصار لأرائه .

وما أدري ما أقول في هذه الطائفة التي تبعت آراء مشوية . وأهواء فاسدة ،
 وخواطر لم تختمر . وفروعاً لم يؤسس لها أصول ، وأصولاً لم تشرع على مَحْصول ،
 لا جَرَمَ اتَّسَعَ الخَرْقُ على الراقع ، واشتبه الأمر على المستبصر ، وخاست بضائع
 العلماء . وعاد الأمر إلى الهزل المقوى بجد ، والباطل المزين بحق ، وذَهَبَ
 الثقي ، وسقط الورع ، وهُجِرَ التورع والتخرج ، وصار الجواب في كل مسألة ذُفَّت
 أو جَلَّتْ ، أو اتبضحت أو أشكلت ، لا أو نعم ، كأنهم لا يعلمون أنهم لا يعلمون كل
 شيء ، ولا يحيطون بكل شيء ، وأن الدين مشروع على التسليم والتعظيم والعمل
 الصالح ، واعتقاد ما عرِيَ من الرأي المنقوض والعقل المنقوص ، وأن رسول الله
 صلى الله عليه وسلم لم يُجب في كل شيء ، ولا أثار ما لم يكن مأموراً بإثارته ، وأنه
 أمر بالكف والسكوت إلا فيما عم نفعه ، وشملت عائدته ، وأمنت عاقبته ، بذلك
 بعث ، وعليه حث وحث . إلى الله عز وجل أشكو عصرنا وعلماءنا ، وطالبي العلم
 منا ، فإنه قد دب فيهم داء الحمية ، واستولى عليهم فساد العصبية ، حتى صار الغي
 متبوعاً ، والرشد مقموعاً ، والهوى معبوداً ، والحق منبوذاً كل يزخرف بالحيلة
 ولا ينصف ، ويموه عليه بالخداع ولا يعرف .

ولقد رأيت شيخاً من أبناء ستين سنة وهو يقول : ما ناظرت قط في إثبات الرؤية من
 ينفيها إلا انقطعت ، ولا أتيت بحجة إلا زوحت ، ولا عولت على أصل
 إلا نوزعت ، وما أمدني في ذلك إلا هواي في أنني أحب إثبات الرؤية ، وأستوحش من
 نفيها ، فانا أتبع ما يقوى في نفسي ، لأن الله عز وجل قاذف تلك المحبة في نفسي ،
 ومتوليها دوني ، ولو كان العمل على بيان الخصم واحتجاج النظر وشواهد المناظر ،
 لقد كنت تحولت في ألف مقالة ، فإني لا أسمع خطبة مقالة ، ولا ألحظ ظاهراً نحلته ،
 إلا وأرى له من البهاء والحلاوة والحسن والشارة ما لا أجد لغيره ، فإن ذهبت إلى
 تكافؤ الأدلة قهرت العقل ، وفارقت المحجة ، وإن ملت إلى تخليص الحجة من
 عوارض الشبهة رمت كزوداً ، ورهقت صعوداً ، لكنني مع ما ألقى في روعي لأنني
 واثق به ، وذلك أنني لم أجلبه ولم أكسبه ، وإنما هو شيء سبق إلي سقياً ، وشوقاً
 إليه شوقاً ، ولأن أكون مع هذه الدواعي أحب إلي من أن أطيل المنازعة وأكثر
 البحث ، فإن آفة المنازعة توران الطباع وهيئ النفس وعصبية الهوى ، وآفة البحث

التردد بين الاستيحاش والتخير على غير يقين يمسك الفؤاد ، ولا عمل يزود إلى المعاد .

هذا كلام هذا الرجل ، ولعل فتنته فيما ذهب إليه ، وعقد إصبعه عليه ، أخف من فتنة غيره ، وإذا كان بعض ما يعتري خائض هذا الغمر ، وراكب هذا البر ، فما نقول بأمور أدق من هذا وأخفى ؟ ! ولهذا قال بNDAR بن الحسين ، وكان شيخ فارس علماً وفضلاً وثبلاً : ما نظرت في الكلام قط إلا رأيت في قلبي منه قسوة ، وعلى لساني منه سقوة ، وفي أخلاقي مع خصومي جفوة .

وكان أبو زيد المرؤزي يقول - وشاهدته بمكة سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة - كنت أقرأ علم الكلام على الأشعري أيام حدثني بالبصرة ، فرأيت في المنام كأنني قد فقدت عيني جميعاً ، فاستعبرت حاذقاً بعلم الرؤيا فقال لي : لعل هذا الرائي قد سلخ دينه ، وفارق حقاً كان عليه ، فإن أوضح دلائل البصر على الدين والعقيدة . قال : فاستوحشت من هذه العبارة ، وانقبضت عن المجلس ، فسأل عني وجد في تعرف خبري وألح على نظرائي ، فلم أرتج ولم أهتر ، فبينا أنا على انقباضي إذ جمعتني وإياه طريق ، فبدأني بالسلام ، وأطال طرّف الحديث ، وشهد تعسري في الإجابة ، واستيحاشي من الطريقة ، فقال لي عند آخر كلامه : إن كنت تنفر من مقالتنا التي شاهدناها ونصرناها ، فاحضر وقرأ أي مقالة أحببت فإنني أدرسها لك . قال أبو زيد : فازددت في نفسي نفوراً ، وكان سبب إلحافه وتشدده أنني كنت حديث السن ، وكان للعين في مجال ، ثم ثبتني الله تعالى على هجران هذا الفن ، وأقبل بي على الحق واليقظة ، وبلغني هذه الحال التي أسأل الله عز وجل تمامها ، وخير عاقبتها . هذا نص ما حفظته عنه ، وإن كنت قدّمت بعض اللفظ وأخرت ، فإنني لم أحرف المعنى ، ولم أزد فيه من عندي شيئاً . ولقد سمع هذا ابن المرزبان الشافعي سنة تسع وخمسين مع أصحابه بعد أن عاد أبو زيد من الحجاز والشام إلى مدينة السلام قاصداً إلى خراسان .



الصداقة والصديق

لكم حن أبو حيان إلى الصداقة العميقة ، وحنينه وتوقه الإنساني إليها تجسد في هذا الكتاب الذي بدأ في وضعه بعد خيبته في إقامة علاقة قوية بابن العميد والعماد ، إضافة إلى صدمته في الآخرين ، ومن الكتاب اخترنا مقدمته التي حوت سطورا عميقة في التعبير عن الغربة . اعتمدنا على الطبعة الصادرة في القاهرة عن مكتبة الآداب . سنة ١٩٧٢ ميلادية ، بتحقيق الأستاذ على متولى صلاح .

بسم الله الرحمن الرحيم

النهم خذ بأيدينا فقد عثرنا^(١) ، واستر علينا فقد أعورنا^(٢) ، وارزقنا الألفة التي بها تصلح القلوب ، وتنقى الجيوب^(٣) ؛ حتى نتعيش^(٤) في هذه الدار مصطلحين^(٥) على خير . مؤثرين للتقوى ، عاملين شرائط الدين ، آخذين بأطراف^(٦) المروءة ، آنفين^(٧) من ملابس^(٨) ما يقدح^(٩) في ذات البين^(١٠) ، متزودين للعاقبة التي لا بد من الشخصوس^(١١) إليها ، ولا محيد^(١٢) عن الاطلاع عليها ؛ إنك تؤتى من تشاء ما تشاء .

سُمع منى في وقت بمدينة السلام^(١٣) كلام في الصداقة والعشرة والمؤاخاة والألفة ما يلحق بها من الرعاية والحفاظ والوفاء والمساعدة والنصيحة والبذل والمواساة والجود والتكرم ، مما قد ارتفع رسمه^(١٤) بين الناس ، وعفى^(١٥) أثره عند العام والخاص ، وسُئِلْتُ إثباته ففعلت ، ووصلت ذلك بجملَةٍ مما قال أهل الفضل

(١) عثرنا زللنا وكبرونا

(٢) أعورنا نقول (أغور الفارسي) إذا بدا فيه موضع خلل للطعن . والمراد أنه قد ظهرت مواطن ضعفنا

(٣) الجيوب جمع جيب . وهو القلب والصدر

(٤) نتعيش نحيا

(٥) مصطلحين متفلقين .

(٦) أطراف المروءة نواحيها .

(٧) آنفين انف من الشيء - استنكف منه . ونفزه عنه .

(٨) ملابس لابنس الامز - زاولته .

(٩) ما يقدح قدح في عرضه - طعن فيه وعابه وتنقصه .

(١٠) ذات البين الوصل . والصداقة . والنسب . والقرباة .

(١١) الشخصوس إليها الذهاب إليها .

(١٢) لا محيد لا ميل ولا عدول .

(١٣) مدينة السلام بغداد .

(١٤) رسمه الرسم ما كان لاحقاً بالأرض من آثار الديار . ويطلق على ما يقابل الحقيقة . قال الشاعر : أرى وديكم رسماً وودى حقيقة .

(١٥) عفى أثره أمحي . واضمحل .

والحكمة وأصحاب الديانة والمروءة ؛ ليكون ذلك كله رسالة تامة يمكن أن يُستفاد منها ، ويُتفع بها في المعاش^(١) والمعاد^(٢) .

وسمعت الخوارزمي أبا بكر محمد بن العباس الشاعر البليغ يقول : « اللهم نَقِّ^(٣) سوق الوفاء فقد كَسَدَتْ ، وأصلح قلوب الناس فقد فسدت ، ولا تُمتنى حتى يبور الجَهِل كما يار العقل ، ويموتِ النقص كما مات العلم » .

وأقول : اللهم اسمع واستجب فقد برح الخفاء ، وغلب الجفاء^(٤) ، وطال الانتظار ، ووقع البأس ، ومرض الأمل ، وأشفى^(٥) الرجاء ، والفرج معدوم . وأظن أن الداء في هذا الباب قديم ، والبلوى فيه مشهورة ، والعجيج^(٦) منه معتاد .

فأول ذلك أني قلت لأبي سليمان محمد بن طاهر السجستاني : إني أرى بينك وبين ابن سيار القاضي مُمازحة نفسية ، وصداقة عقلية ، ومساعدة طبيعية ، ومؤاتاة^(٧)

خلقية ، فمن أين هذا ؟ وكيف هو ؟ فقال : يا بني ، اختلطت ثقتي به بثقته بي ، فاستفدنا طمأنينة وسكوناً لا يَرْتَأَن^(٨) على الدهر ، ولا يُحْوَلَان^(٩) بالقهر^(١٠) ومع ذلك

فبيننا بالطالع^(١١) ومواقع الكواكب مشاكلة عجيبة ، ومظاهرة^(١٢) غريبة ، حتى إنا نلتقي كثيراً في الإرادات والاختبارات والشهوات والطلبات ، وربما تزوارنا فيحدثني

بأشياء جرت له بعد افتراقنا من قبل ، فأجدها شبيهة بأمور حدثت لي في ذلك الأوان حتى كأنها قسائم^(١٣) بيني وبينه ، أو كأنى هوفها ، أو هو أنا ، وربما حدثته برؤيا

فيحدثني بأختها ، فنراها في ذلك الوقت ، أو قبله بقليل ، أو بعده بقليل .

(١) المعاش : الحياة الدنيا .

(٢) المعاد : الحياة الآخرة .

(٣) نَقِّ سوق الوفاء : رَوَّجها ورَّغَّب فيها .

(٤) الجفاء : الهجر ، والإعراض . وفعل ما يسوء .

(٥) اشفى الرجاء : ذهب . وغزب . وبُغِد .

(٦) العجيج : الصَّياح ورفع الصوت .

(٧) مؤاتاة : موافقة .

(٨) لا يَرْتَأَن : لا يَتَلَيَّن .

(٩) لا يُحْوَلَان : لا يَزَالَان .

(١٠) القهر : الغلبة .

(١١) الطالع : هو - في اصطلاح المنجمين أو الفلكيين - ما تنبأ به المنجم من الحوادث

بطلوع كوكب معين .

(١٢) مُظَاهَرَة : مُطَابَقَة .

(١٣) قسائم : انصبه وأشطر مقسومة بينهما .

قال : ورأيت قد ملكه التعجب من هذا وشبهه ، فحدثته بما نتقاسمه من قوى
الْفَلَكَ^(١) ، وأن سهامنا واحدة ، وأنصابنا^(٢) منها متساوية أو قريبة من التساوى .
فعجب ، وازداد بصيرة فى إخلاص الصداقة وتوكيد العلاقة ، فقلت لأبى سليمان :
كيف يصح هذا وأنت مطالبك فى الفلسفة ، وصورك مأخوذة من الحكمة ،
وقتيبتك^(٣) مجموعة من الحقائق وخوضك فى الغوامض والدقائق ، وذاك رجل فى
عداد القضاة^(٤) وجلة الحكام وأصحاب القلائس^(٥) ، ومخاضه^(٦) الظاهر الذى عليه
الجمهور^(٧) ، ومأخذه مما عليه السواد^(٨) الأعظم ؟
فقال : هذا هو الذى انفردنا عنه بعد أن ازدوجنا^(٩) عليه ، والأصل أبداً مخالف
للفرع لا خلاف الضد للضد ، ولكن خلاف الشكل للشكل ، وكان مُشْتَرِيه^(١٠) خالياً
من قوة رُحَل^(١١) ، فبرز فى حلبة القضاة ، وكان المشتري لى مقتبساً من زحل ،
فظهرت بما ترى ، فجمعتنا المشاكلة على العلم ، وفرقنا الاختلاف بالفن .
قلت : هذا والله طريف^(١٢) ، ومما يزيد فى طرافته أنك من سجستان وهو من
الصَّيْمَرَةِ .

-
- (١) الفلك مدار النجوم . وعلم الفلك علم يُبْحَثُ فيه عن الأجرام العلوية .
(٢) أنصابنا حظوظنا وأنصبتنا .
(٣) قتيبتك زحلك . أى وعاءك . وفى القرآن ، جعلوا بضاعتهم فى رحالهم ، أى فى أوعيتهم .
(٤) جلة الحكام جمع جليل وهو العظيم .
(٥) القلائس جمع قلائس . وهى لباس للراس مختلف الأنواع والأشكال .
(٦) مخاضه موضع الخوض فى الماء ، وما جاز فيه الناس مشاة وركبانا .
(٧) الجمهور جُلُ الناس ، وإشرافهم .
(٨) السواد العدد الكثير .
(٩) اَزْدَوْجْنَا اقترنا .
(١٠) المُشْتَرَى كبير الكواكب السيارة ، وهو فى الأساطير كبير الآلهة .
(١١) رُحَل اعظم الكواكب السيارة وابعدها فى النظام الشمسى ، وفى الأساطير الإغريقية :
كبير الآلهة ، وهو مثل فى العلو والبعد ويقال له : شيخ النجوم .
(١٢) الطريف الغريب الفادر .

فقال : الأمكنة فى الفلك أشد تَضَاماً من الخاتم فى إصبعك ، وليس لها هناك هذا البعد الذى تجده بالمسافة الأرضية من بلد إلى بلد بفراسخ^(١) تُقَطَّع ، وجبال تُعَلَى ، وبحار تُخَرَّق^(٢) .

فقلت : هل تجد^(٣) عليه فى شيء ؟ ، أو يجد عليك فى شيء ؟

فقال : وَجَدَى^(٤) به فى الأول قد حجبتنى عن مَوْجِدَتى^(٥) عليه فى الثانى ، على أنه يكتفى منى فيما يخالف هواى باللمحة الضئيلة ، وأكتفى أنا أيضاً منه فى مثل ذلك بالإشارة القليلة ، وربما تعاتبنا على حال تعرض على طريق الكناية^(٦) عن غيرنا كأننا نتحدث عن قوم آخرين ، ويكون لنا فى ذاك مَقْنَع^(٧) ، وإليه مَقْرَع^(٨) . وقل ما نجتمع إلا ويحدثنى عنى بأسرار ما سافرت عن ضميرى إلى شفتى ، ولا نَدَّتْ^(٩) عن صدرى إلى لفظى ؛ وذلك للصفاء الذى نتساهمه^(١٠) ، والوفاء الذى نتقاسمه ، والباطن الذى تنفق عليه ، والظاهر الذى نرجع إليه ، والأصل الذى رسوختنا فيه ، والفرع الذى تَشَبُّهْنَا^(١١) به . والله ما يسرنى بصداقته حُمْر^(١٢) النَّعَم ، ولا أجد بها بحياتى لى ، وإذا كنت أعشق الحياة لأنى بها أحيا ، كذلك أعشق كل ما وصل الحياة بالحياة ، وجنى لى ثمراتها ، وجلب إلى روحها ، وخلط بى طيبها وحلاوتها .

(١) فراسخ : جمع فرسخ . وهو ثلاثة أميال هاشمية . وقيل اثنا عشر ألف ذراع .

(٢) تُخَرَّق : خَرَّقَ المفازة - قطعها حتى بلغ إقصاها .

(٣) تَجَدُّ عليه : تغضب عليه .

(٤) وَجَدَى به : وجد به - أحبه .

(٥) مَوْجِدَتى عليه : غضبى عليه .

(٦) الكناية : كناية عن كذا يكون (واوى) أى ذكره ليدل به على غيره ، وكنى به عن كذا يكنى

(يائى) أى تكلم بما يستدل به عليه ، أو أن يتكلم بشيء وهو يريد غيره .

(٧) مَقْنَع : رضا نقنع به .

(٨) مَقْرَع : مَلَجَا .

(٩) نَدَّتْ : شَرَدَتْ ونَفَرَتْ . ويريد بقوله « ما سافرت عن ضميرى إلى شفتى » ويقول كذا

« ولا نَدَّتْ عن صدرى إلى لفظى » أن هذه الأسرار لم تُجَرَّ على لسانه ، ولم يذكرها لأحد من

الناس ، بل ظلت حبيسة فى ضميره وصدره .

(١٠) نتساهمه : نتقاسمه .

(١١) تَشَبُّهْنَا به . تَعَلَّقْنَا به .

(١٢) حُمْر النَّعَم : الجمال الحُمْر . وهى عندهم اشرف الاموال .

وكان أبو سليمان يحدثني عن ابن سيار بعجائب ، وأما أنا فما عرفته إلا قاضياً جليلاً صاحب جد وتفخيم ، وتوقير وتعظيم ، وكان مع ذلك بسيط اللسان ، شريف اللفظ ، واسع التصرف ، لطيف المعاني^(١) ، بعيد المرامي ، يذهب مذهب أبي حنيفة .

ثم قال أبو سليمان : الصداقة التي تدور بين الرغبة والرغبة شديدة الاستحالة^(٢) ، وصاحبها من صاحبه في غرور^(٣) ، والزَّلَّةُ^(٤) فيها غير مأمونة ، وكسرها غير مجبور^(٥) .

قال : فأما الملوك فقد جَلُّوا^(٦) عن الصداقة ؛ لذلك لا تصح لهم أحكامها ، ولا توفي بعهودها . وإنما أمورهم جارية على القدرة والقهر^(٧) ، والهوى^(٨) والشائق^(٩) والاستحلاء^(١٠) والاستخفاف^(١١) . وأما خدمهم وأولياؤهم^(١٢) فعلى غاية الشبه بهم

(١) لطيف المعاني غامضها وخفيها .

(٢) الاستحالة استحالة الشيء - تحول من حال إلى آخرى .

(٣) غرور ابتطيل ، وتزيين الخطأ بما يوهم أنه صواب .

(٤) الزَّلَّةُ الشَّقَّةُ .

(٥) مجبور جَبَرَ العظم - أصلحه من كثر .

(٦) جَلُّوا عن الصداقة - عظمت أقدارهم عنها .

(٧) القهر الخلبة .

(٨) الهوى إرادة النفس ، والمهوى - محموداً كان أو مذموماً - وغلب على غير المحمود .

يقال - فلان اتبع هواه ، إذا أريد ذمّه .

(٩) الشائق المُحِبُّ إلى النفس .

(١٠) الاستحلاء أن تجد الشيء خلوّاً .

(١١) الاستخفاف الاستهانة .

(١٢) أولياؤهم جمع وَلِيٍّ ، وهو المُحب والصديق والنصير .

ونهاية المشاكلة^(١) لهم ؛ لا تشابههم^(٢) بهم ، وانتسابهم إليهم ، وَوَلُّوع^(٣) طورهم^(٤) بما يصدر عنهم ويرد عليهم . وأما الثنا^(٥) وأصحاب الضياع^(٦) فليسوا من هذا الحديث في غير^(٧) ولا نفي^(٨) . وأما التجار فكسب الدوائق^(٩) سدٌ بينهم وبين كل مروءة ، وحاجز لهم عن كل ما يتعلق بالفتوة^(١٠) وأما أصحاب الدين والورع فعلى قلتهم ربما خلصت لهم الصداقة ؛ لبنائهم إياها على التقوى وتأسيسها على أحكام الحرج^(١١) وطلب سلامة العقبي^(١٢) . وأما الكتاب وأهل العلم فإنهم إذا خلوا من التنافس والتحاسد والتبارى^(١٣) والتماحك^(١٤) فربما صحت لهم الصداقة وظهر منهم الوفاء . وذلك قليل ، وهذا القليل من الأصل القليل . وأما أصحاب المذاب^(١٥) والتطفيـف^(١٦) فإنهم رجرجة^(١٧) بين الناس لا محاسن لهم فتذكر ، ولا مساعي فتتشر^(١٨) ؛ ولذلك قيل لهم :

-
- (١) المشاكلة : المماثلة .
 - (٢) لا تشابههم : انتسب فيه - اعتلق به .
 - (٣) الوَلُّوعُ : شدة التعلق .
 - (٤) طورهم : يقصد المعاصرين لهم في زمانهم .
 - (٥) الثنا : ثنى فلان زيدا ، وأثناه - كان ثنائه ، ومنه (وهذا واحد فثنه) أى كُنْ ثنائه .
 - (٦) الضياع : جمع ضيعة ، وهى الجرفة والصناعة .
 - (٧) العير : الإبل التى تحمل الطعام .
 - (٨) النفيـر : الذهاب إلى القتل والمقصود بقوله « إنهم ليسوا من هذا الحديث فى عير ولا ونفير » أنهم لا شأن لهم ولا ذكر لهم فيه .
 - (٩) الدوائيق : جمع دائق ، وهو سدس الدرهم .
 - (١٠) الفتوة : السخاء والكرم والمروءة .
 - (١١) الخرج : مجانية الأثام .
 - (١٢) العقبي : آخر كل شيء ، والآخر .
 - (١٣) التبارى : الشك .
 - (١٤) التماحك : التلاحى والخصومة .
 - (١٥) المذاب : جمع مذبة (بالكسر) وهى ما يُنْبُ به كالمزوجة .
 - (١٦) التطفيـف : نقص المكيل ، وهو الاتملاء إلى راسه .
 - (١٧) الرجرجة : الاضطراب .
 - (١٨) فتتشر : فتذاع .

هَمَجٌ^(١) وَزَعَاعٌ^(٢) وَأَوْبَاشٌ^(٣) وَأَوْنَشٌ^(٤) وَلَفِيفٌ^(٥) وَرَعَائِفٌ^(٦) وَدَاصَةٌ^(٧) وَسَقَاطٌ^(٨) وَأَنْذَالٌ^(٩) وَغَوْغَاءٌ^(١٠) ؛ لأنهم من دقة الهمم ، وخساسة^(١١) النفوس ، ولؤم الطباع ، على حال لا يجوز أن يكونوا في حَوْمة^(١٢) المذكورين وعصابة المشهورين .

فلهذه الأمور الحائلة عن مقارها^(١٣) ، الزائغة إلى غير جهاتها^(١٤) ، علل وأسباب لو تَنَسَّ الزمان^(١٥) قليلا لكنا نشط لشرحها ، وذكر ما قد أتى النسيان عليه ، وعنى أثره الإهمال ، وشغل عنه طلب القوت . ومن أين يظفر بالغداء من كل عاجزاً عن الحاجة ؟ وبالعشاء من كان قاصراً عن الكفاية ؟ وكيف يحتال في حصول طمَرين^(١٦) للستر لا للتجمل ؟ وكيف يُهَرَّب من الشر المقبل ؟ وكيف يُهْرَوِّلُ^(١٧) وراء الخير المدير ؟ وكيف يستعان بمن لا يعين ، ويُشْتَكى إلى غير رحيم ؟

-
- (١) الهمج الزعاع من الناس . الحمقى .
(٢) الزعاع (بالفتح) سقاط الناس وسفلتهم وغوغؤهم .
(٣) أوباش جمع وبش (بالفتح والتحريك) والأوباش الاخلاط والسفلة .
(٤) أوناش ذوو بطش
(٥) لفيف اخلاط .
(٦) رعائف صخور واحجار .
(٧) داصة لصوص . جمع دانص .
(٨) سقاط يضم السين وفتح القاف وتشديدها - جمع ساقط وهو لثيم الحسب والنفس . المتأخر عن الناس الذي لا يُعَدُّ في خيار الفتيان .
(٩) انذال جمع نذل . وهو الخسيس من الناس . والساقط في دين أو حسب . والمحتقر في جميع أحواله
(١٠) الغوغاء . الكثير المختلط من الناس . والسفلة المتسرعون إلى الشر .
(١١) خساسة النفوس رذالتها
(١٢) الحومة موضع القتال . والمقصود هنا انه لا يجوز أن يكونوا مع المذكورين في ميدان واحد وفي منزلة واحدة .
(١٣) الحائلة عن مقارها . المتحولة عن مواضعها التي استقرت فيها .
(١٤) الزائغة المائلة .
(١٥) لو تَنَسَّ الزمان . لو املهل .
(١٦) طمَرين مثني طمَر . وهو الثوب الخلق . وقبل الكساء البالي من غير الصوف .
(١٧) يهرؤل يسرع في المشي

ولكن حال الجريض^(١) دون القريض^(٢) ، ومن العجب والبديع أنا كتبنا هذه الحروف على ما فى النفس من الحرق والأسف والحسرة والغيط والكمد^(٣) والومد^(٤) ، وكأنى بغيرك إذا قرأها تقبضت^(٥) نفسه عنها ، وأمر^(٦) نقدّه عليها ، وأنكر على التطويل والتهويل بها . وإنما أشرت بهذا إلى غيرك ؛ لأنك تبسط من العذر ما لا وجود به سواك ، وذلك لعلمك بحالى ، وأطّاعك على دخلتى^(٧) واستمرارى على هذا الإنفاض^(٨) والعوز اللذين قد نقضا^(٩) قوتى ، ونكثا^(١٠) مِرتى^(١١) ، وأفسدا حياتى ، وقرناني بالأسى^(١٢) ، وحجبانى عن الأسى^(١٣) ، لأنى فقدت كل مؤنس وصاحب ومرفق ومشفق ، والله لربما صليت فى الجامع فلا أرى إلى جنبى من يصلى معى ، فإن اتفق^(١٤) فبقال أو عصار أو نذاف^(١٥) أو قصاب ، ومن إذا وقف إلى

(١) الجريض : الغصنة . والزيق يُغمض به .

(٢) القريض . الشجر . وه حال الجريض دون القريض ، مثل يضرب لامر نفوق دونه عائق . وورد فى معناه « حال الأجل دون الأمل » .

(٣) الكمد . (بفتح الكاف وفتح الميم وتسكينها) - الحزن الشديد المكتوم .

(٤) الومد . (محركة) - شدة حرّ الليل .

(٥) تقبضت نفسه عنها اشمازت .

(٦) أمر نقدّه : أمر الشئ - صار مُرّاً .

(٧) دخلتى : دخلة الرجل (بالتثنية) - داخلته .

(٨) الإنفاض : انفض القوم - ارمؤا ، وقيل هلكت أموالهم وفنى زادهم أو أفنوه .

(٩) نقضا قوتى : هزّلاها .

(١٠) نكثا : نقضا وهزّلا .

(١١) مِرتى : قوتى وشدتى .

(١٢) قرناني بالأسى : وصلاني بالأسى ، والأسى - الحزن .

(١٣) حجبانى عن الأسى : الأسى - جمع أسوة بكسر الهمزة وبضمها ، وهو ما يأتى به الحزين يتعزى به ، وجمعها أسى بكسر الهمزة وبضمها ، ثم سُمى الصبر أسى .

(١٤) اتفق : تصادف .

(١٥) النذاف : الذى يضرب القطن بالمئذف .

جانبي اسدُرني^(١) بضأنه^(٢) ؛ واسكرني بثنّيه ، فقد أمسيت غريب الحال ، غريب اللفظ ، غريب النحلة^(٣) ، غريب الخلق ، مستأنساً بالوحشة ، قانعاً بالوحدة ، معتاداً للصمت ، ملازماً للحيرة محتملاً للأذى ، يائساً من جميع من ترى ، متوقفاً لما لا بد من حلوله ؛ فشمس العمر على شفا^(٤) وماء الحياة إلى نُضوب^(٥) ، ونجم العيش إلى أقول^(٦) ، وظل التلبث^(٧) إلى قُلوص^(٨) .

وفي تمجيد الصمت مرّ بي كلام لبعض الحكماء القدماء ، أنا أرويه لك ههنا لأجّد عليك بما ليس عندك ، ولكن لأذكرك ؛ فإن الإذكار^(٩) بالخير بعث على الاهتمام به ، والبعث عليه سلوك لطريقه .

قال هذا الحكيم : لو لم يكن للصامت في صمته إلا الكفاية لأن يتكلم ، فيحكي عنه محرّفاً ، فيضطر إلى أن يقول : ليس هكذا قلت ، وإنما قلت كذا وكذا ، فيكون إنكاره إقراراً ، ويكون اعترافه بأصل ما حكي عنه شاهداً لمن وشى به ، وادّعاؤه التحريف غير مقبول منه بلا بيّنة يأتي بها ، لكان ذلك من أكبر فضائل الصمت ، وأدع هذا كله وأقول : كان سبب إنشاء هذا الرسالة في (الصداقة والصديق) أني ذكرت شيئاً منها لزيد بن رفاعة أبي الخير ، فَنَمَاهُ^(١٠) إلى ابن سعدان الوزير أبي عبد الله سنة

(١) اسدُرني : خيّرني .

(٢) بضأنه : الضنن (بضم الضاد) - رائحة الإبط المنفنة .

(٣) النحلة : المذهب والديانة .

(٤) على شفا : أي لم يبق منه إلا قليل . ويقال للرجل عند موته ، وللنفس عند انفصالها ، وللشمس عند غروبها : ما بقي منها إلا شفا . أي قليل .

(٥) نُضوب : يقال : نُضِبَ عنه البحر . أي نَزَحَ ماؤه ونشِب .

(٦) أقول : غيب .

(٧) التلبث : التوقف .

(٨) قُلوص : ذهب .

(٩) الإذكار : التذكير الشيء - جعله يذكّر والمصدر إذكّار .

(١٠) فَنَمَاهُ : فنبّله .

إحدى وثلاثمائة قبل تحمله آعباء الدولة وتديره أمر الوزارة ، حين كانت الأشغال خفيفة ، والأحوال على أدلالها^(١) جارية .

فقال لى ابن سعدان : قد قال لى زيد عنك كذا وكذا .
قلت : قد كان ذاك .

قال : فدوّن هذا الكلام ، وصِلّه بِصِلَاتِهِ^(٢) مما يصح عندك لمن تقدم ، فإن حديث الصديق حلو ، ووصف الصاحب المساعد مطرب . فجمعت ما فى هذه الرسالة وشغل عن رد القول فيها ، وأبطأت أنا عن تحريرها إلى أن كان من أمره ما كان ، فلما مر على ذلك بعض سنين ، عثرت على المسوّد ، وبَيَضْتُهَا على نجيلها^(٣) ، فإن راقتك فذاك الذى عزمت بنيتى وَحَوَّلِي^(٤) واستخارتى^(٥) ، وإن ترحلقت^(٦) عن ذلك فللعذر الذى سحبت ذيله^(٧) ، وأرسلت سيّله^(٨) .

وقبل كل شيء ينبغى أن نتق بأنه لا صديق ولا من يتشبه بالصديق ، ولذلك قال جميل بن مرة فى الزمان الأول حين كان الذين عُرفوا بالإخلاص ، والمروءة تنهادى^(٩) بين الناس ، وقد لزم قعر البيت ، ورفض المجالس ، واعتزل الخاصة والعامة .
وعُوتِبَ فى ذلك فقال : لقد صحبت الناس أربعين سنة ، فما رأيتهم غفروا لى ذنباً ، ولا ستروا لى عيباً ، ولا حفظوا لى غيباً ، ولا أقالوا بى عُثرة ، ولا رحموا لى عُبرة ، ولا قبلوا منى معذرة ، ولا فكّونى من أسرة ، ولا جبروا لى من كسرة ، ولا بذلوا لى نصرة .

(١) أدلالها : الدّل - الحالة التى يكون عليها الإنسان من السكينة والوقار وحسن السيرة . والجمع أدلال ، والمقصود أن الأمور تسير سيرها الطبيعى المألوف .

(٢) صِلّه بِصِلَاتِهِ : أى الجفّه بما ترى أنه يتصل به مما قال الأقدمون .

(٣) نجيلها . أصلها الهزيل السقيم الذى كاد يذهب .

(٤) الحَوَّل : الحيلة ، وهو أيضاً القوة .

(٥) الاستخارة : طلب الخيرة ، يقال « استخّر الله يجر لك » أى اطلب من الله أن يختار لك ما يوافقك فيختار .

(٦) ترحلقت : تَذَخَّرْت .

(٧) سحبت ذيله : الذيل - آخر كل شيء . وذيل الثوب والإزار - ملجئ منه إذا سبّل . والمقصود : فللعذر الذى أبديته عن آخره ولم اكتم منه شيئاً .

(٨) أرسلت سيّله : السبيل - الماء الكثير . وقد شبه به العذر الذى اعتذر به .

(٩) تنهادى : تمشى وحدها مشياً غير قوى متميلاً .

ورأيت الشغل بهم تضييعاً للحياة ، وتباعداً من الله تعالى ، وتجرعاً^(١) للغليظ مع الساعات ، وتسليطاً للهوى في الهنات^(٢) بعد الهنات .
ولذلك قال الثوري لرجل قال له أوصني : أنكر من تعرفه . قال : زدني . قال : لا مزيد .

وكان ابن كعب يقول : لا خير في مخالطة الناس ، ولا فائدة في القرب منهم والثقة بهم والاعتماد عليهم ؛ ولذلك قال الأول :

إخلاء الناس مُمْتَزَجٌ وأكبر فقلهم سَمِجٌ^(٣)
فإن بدّهتك مَقْطَعَةٌ فما لدنيّهم فَرَجٌ^(٤)
فقوّمهم بهجرهم فإن لم يهَجروا اغتوجوا^(٥)
صروف الدهر دانية بَقَطْعٍ بينها المُهَجُ^(٦)
وأشدني أبو إسحق إبراهيم بن هلال الكاتب الصابي في أحوال الزمان :
أيارب : كل الناس أبناء علة أما نعر الدنيا لنا بصديق؟^(٧)

(١) تجرعاً للغليظ كطأ للغليظ . وحسباً له . وإمسكاً على ما في نفسه منه .

(٢) الهنات خصلات الشر . ولا تقال في الخير .

(٣) ممتزج مختلط غير صاف . سمج : قبيح .

ومعنى البيت : إن صداقة الناس ليست صافية ، وإنما يخالطها دائماً الهوى والحقد ، ولو تأملت أعظم أعمالهم لوجدته منكراً قبيحاً .

(٤) بدّهتك : بغتتك وفجنتك .

مقطعة : قطيعة ، وهجر وعقوق . دنيّهم : الدنيء - الخسيس والدون .

فرج : فرج الله الغم - كشفه ، وانفرج الغم والكرب - انكشف ، وانفرج فلان من ضيقه - تخلص .

ومعنى البيت - أنهم إن قاطعوك وهجروك لغیر سبب ، فتلك طبيعتهم التي تلازمهم دائماً ، ولا يستطيعون الفكك منها ، ولن تجد منهم يوماً غير ذلك .

(٥) قوّمهم عدّلهم وأصلحهم . اغتوجوا : ساء خلقهم .

يقول الشاعر أصلحهم بهجرهم وقطيعتهم ، فذلك علاج لسوء فعلهم : فإنك إن لم تهجرهم ، زاد اغتوجهم وسوء خلقهم .

(٦) صروف الدهر : نوائبه وحوادثه .

دانية قريبة . تقطع : تتقطع .

المُهَجُ : القلوب والأنفس . جمع مُهَجَة .

أي إن حوادث الدهر ونوائبه قريبة الوقوع ، وهي حوادث تتقطع منها القلوب .

(٧) علة : بنو العلان ، بفتح العين - بنو رجل واحد من أمهات شتى ، والواجدة علة ، وهي الضرة .

والعنى : أن كل الناس ليسوا أشقاء ، أي ليسوا من أب واحد وأم واحدة ، والمقصود أن

أخوتهم ليست كاملة ، ولن نعتز في هذه الدنيا بصديق كامل الصداقة .

وجوه بها من مُضْمَرِ الْغِلِّ شاهدٌ
إذا اعترضوا دون اللقاء فإنهم
وإن أظهروا بَرْدَ السُّوداد وظله
الا: ليتنى حيث أنتوت أفرخ القطا
أخو وَحْدَةٍ قد أنستى، كأننى
فذلك خير للفتى من ثَوَائِهِ
ذوات أديمٍ فى النفاق صفيق^(١)
قَدَى لعيون، أو شَجَى لِحُلُوقِ^(٢)
أسروا من الشَّحْناء حَرَّ حريق^(٣)
بأقصى محل فى الفلاة سحيق^(٤)
بها نازل فى معشرى وفريقى^(٥)
بمُسْبِعة، من صاحب وفريق^(٦)

(١) مُضْمَر: خفى . الغل: الغش والحقد .

شاهد: دليل . أديم: جلد . صفيق: ضد رقيق .

والمعنى: إن قلوبهم مملئة بالحقد والعداوة . وذلك يبدو على وجوههم . وإن حاولوا إخفاءه تحت جلودهم الصفيقة السمكة .

(٢) اعترضوا دون اللقاء: حالوا دونه .

قَدَى لعيون: القذى - ما يقع فى العين من تَبَنَةٍ أو غيرها . تقول: صار الأمر قَدَى فى عينه . أى اقلقه واجتهد فى إزالته .

= شَجَى لِحُلُوق: الشجى - ما اعترض فى الحلق من عظم ونحوه . ثم استعير للمهم والحزن . لأن الإنسان يغمض بهما .

ومعنى البيت: أنهم إن حالوا دون اللقاء . فما هم عند اللقاء إلا قذى للعين إذ تراهم وما هم إلا شجى للحلق كالعظم الذى يتوقف فيه فيؤذيه ويؤذنه .

(٣) أسروا: اضمروا وأخفوا .

الشَّحْناء: العداوة التى تمتلئ منها النفوس .

والمعنى: أن الناس قد يُظهرون لك المودة . وما هو إلا مظهر كاذب: فإنهم يضمرون لك العداوة الملتهبة كنار الحريق .

(٤) أنتوت: أقامت . تقول: انتوى القوم بموضع كذا . أى أقاموا .

أفرخ القطا: القطا نوع من اليمام يؤثر الحياة فى الصحراء . ويظهر مسافات شاسعة . الفلاة: الصحراء . سحيق: بعيد .

أى ليتنى أقيم بعيداً عن الناس حيث تُقيم أفرخ القطا فى الصحراء البعيدة . فلا أرى منهم أحداً . ولا أكابد من شرورهم ما أكابد .

(٥) أخو وَحْدَةٍ: صاحب وحدة . أنستنى: أى الوحدة .

معشرى: أهلى . فريقى: طائفتى وجماعتى .

يقول الشاعر: إني أنس بالوحدة حتى لكانى - وإنا وحيد منفرد - أعيش بين أهلى وطائفتى . فالوحدة تؤنسنى ولا استشعر فيها وحشة . ولا لحس انفرادا .

(٦) ثَوَائِهِ: إقامته . تقول: ثوى بالمكان . أى أقام فيه .

المسبِعة: الأرض التى تكثر فيها السباع .

الرقيق: المرافق .

= والمعنى: أن الوحدة خير للإنسان من أن يقيم بين الناس الذين هم - فى حقيقتهم - كالسباع . وأرضهم - فى حقيقتها - كالمسبِعة التى تكثر فيها السباع: فإن تلك السباع خير من

الصاحب والرفيق .

وكان المسجدى يقول كثيراً : الصداقة مرفوضة^(١) ، والحفاظ معدوم ، والوفاء اسم لا حقيقة له ، والرعاية موقوفة على البذل ، والكرم فقد مات ، والله يحيى الموتى .

استرسال الكلام فى هذا النمط شفاء للصدر ، وتخفيف من البرحاء^(٢) ، وأنجياب^(٣) للحرقة ، وإطراد للغيط ، ويرد للغليل^(٤) ، وتعليل للنفس^(٥) .

ولا بأس بإيراد كل ملاءمة ودخل فى حوزته^(٦) وإن كان آخره لا يُدرك ، وغايته لا تُملك .
قال صالح بن عبدالقدوس :

بَنَى ، عَلَيْكَ بِتَقْوَى إِلَّا لَ : هـ ؛ فَإِنِ الْعَوَاقِبَ لِلْمَتَقَى^(٧)
وإنك مَاتَتْ مِنْ وَجْهَهَا تَجِدُ بِأَبْهَا غَيْرَ مُسْتَفْلِقٍ^(٨)
عَدْوُكَ ذُو الْعَقْلِ أَبْقَى عَلَيْكَ مِنْ الصَّاحِبِ الْجَاهِلِ الْآخِرِقِ^(٩)
وَذُو الْعَقْلِ يَأْتِي جَمِيلَ الْأُمُورِ وَذِي خَلَّةٍ الْأَرْشَدِ الْأَوْفَقِ^(١٠)

(١) مرفوضة مقرونة ، وَرَفُضَ الشَّيْءُ - تركه وزمناه وجانبته .

(٢) البرحاء : شدة الأذى والعسقة .

(٣) أنجياب الحرقة : انكشافها وانقطاعها ، والحرقة (بضم الحاء وفتحها وتسكين الراء) - الاحتراق ، والحرارة .

(٤) الغليل : حرارة العطش .

(٥) تعليل للنفس : تلبية لها ، كما يُعَلَّلُ الصبيُّ بشيء من الطعام يتجرأ به عن اللبن .

(٦) حوزته : تلحيته .

(٧) عليك بتقوى الإله . أى الزمها ، والتقوى - مخالفة الله .

العواقب : جمع عاقبة - وهىجزاء بالخير .

يأمر الشاعر ابنه بتقوى الله ومخالفته ، وذلك باتباع أوامره واجتناب نواهيه ، مؤكداً له أن الجزاء بالخير والحسن إنما يكون للمتقين وحدهم .

(٨) وجهها : بفتحها . مستفلق : عسير الفتح .

يقول الشاعر : إن أبواب التقوى مفتوحة لمن يشاء ، وليس منها ما يقسّر الدخول منه ، ومن أراد أن يتزعم التقوى فليطرق إليها أى بب وسيجده مفتوحاً وسهلاً ميسراً .

(٩) أبقي عليك : أشد حفظاً لك ، وإبقاء على مودتك .

الآخرق : الاحمق قليل العقل .

يقول الشاعر : إن عدوك ذا العقل أشد إبقاءً على صداقتك ومودتك من صديقك الاحمق قليل العقل .

وتمثل ذلك قولهم : عدو عقل خير من صديق جاهل .

(١٠) يأتى : يفعل . جميل الأمور : طيبها وحسنها .

وذى : أى وهذه . خلة : (بفتح الخاء) - خصلة .

الأرشد : المهتدى الذى يُحسن التقدير فيما يُقَرَّر .

الأوفى : من (التوفيق) - وهو جعل الأسباب مواءمة للمطلوب ، أو تسهيل طريق الخير وسد طريق الشر .

يقول الشاعر : إن العقل لا يفعل إلا جميل الفعل . وذلك خصلة المهتدى الذى يلزمه التوفيق والسداد .

فأما الذي قال في أصدقائه وجلسائه الخير ، وأثنى عليهم الجميل ، ووصف
جَدَّهُ^(١) بهم ، ودلَّ على محبته لهم ، فغريب .
أنتم سرورى وأنتم مَشْتَكِي حَزَنِي وأنتم - فى سواد الليل - سُمَارِي^(٢)
أنتم - وإن بَعُدت عنا منازلكم - نوازلٌ بين إسرارى وتذكارى^(٣)
فإن تكلمت لم أَلْفِظ بغيركم وإن سكَّت فأنتم عقد إضمارى^(٤)
الله جاركُم مما أحاذره فيكم ، وحى لكم من هجركم جارى^(٥)

(١) الجَدُّ : الحظ والنصيب . وزاد بعضهم فقال : الحظ من الفضل والخير .
(٢) سُمَارِي : الذين يسفرون معي ، ويتحدثون إلي ليلاً ، والمفرد - سمر .
يصف الشاعر أصدقائه بأنهم مبعث سروره ، وبأنهم الذين يفرِّج بهم القَمُّ عن نفسه
بالشكوى إليهم مما يلقى من أحزان ومواجع ، وبأنهم الذين يسفرون معه ويتحدثون إليه ليلاً
حين ينصرف الناس إلى مضاجعهم ويخلو هو إلى همومه .
وقد قيل فى مثل ذلك .

ولابد من شكوى إلى ذى سرورة يُواسيك ، أو يُسليك ، أو يَقْوِّجُ

(٣) إسرارى : أسر السِّر - كَتَمَهُ .
تَذَكَرَى : التذكّر ، وهو أن تذكر الشيء بلسانك ، وتقول فيه شيئاً .
يقول الشاعر : إنكم وإن نأت دياركم وبَعُدت منازلكم ، خالون فى قلبي ، مذكُورُونَ من
لسانى ، وفى ذلك قال أحد الشعراء :

فإن القسْرُ بالروح وليس القسْرُ بالجسم
وقال شاعر آخر :

خيالك فى عيني ، وذكرك فى فمي ومَشَاوَك فى قلبي ، غاين تغيب ؟
(٤) لم أَلْفِظ : لم انطق لفظاً واحداً . عقد : عَقْدَ العَهْد - أحكَمَهُ .

إضمارى : اضم الشيء - اخشاه فى ضميره ولم يُصْرَح به .
والمعنى : إنكم أنتم الذين لا ينطق لسانى إلا بذكركم إذا نطقت ، ولا ينطوى ضميرى على
غيركم إذا سكَّت .

(٥) الله جاركُم : مُجِيركم .

أحاذرُهُ : أخشاه ، وأخاف حدوثه .

يقول الشاعر : الله مجيركم وحاميكُم مما أخشاه من بعد وفجر ، وحى لكم هو مُجِيرى ،
والشافع لى من أن تهجرونى .

وقال آخر :

أَخْ لُمْتُهُ ، أَوْلا مِنِّي ، ثُمَّ نَزَعُوهُ إِلَى تَائِبٍ مِنْ حِلْمِنَا غَيْرِ مُخَدِّجٍ^(١)
أَمْوَرُ إِذَا عَزَّ الْجَلِيلُ وَرَبِمَا أَزْمَتُ بِرَأْسِ الْحَيَةِ الْمُتَمَعِّجِ^(٢)
أَخْبَرْنَا أَبُو سَعْدٍ السِّيرَافِيُّ قَالَ : أَخْبَرَنَا ابْنُ دَرِيدٍ قَالَ ، قَالَ أَبُو حَاتِمٍ السَّجِسْتَانِيُّ :
إِذَا مَاتَ لِي صَدِيقٌ سَقَطَ مِنِّي عَضْوٌ .

كَتَبَ عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ الرَّيْحَانِيِّ الْبَصْرِيُّ إِلَى صَدِيقٍ لَهُ : كَانَ خَوْفِي مِنْ أَنْ لَا أَلْقَاكَ
مُتَمَكِّناً ، وَرَجَائِي خَاطِراً^(٣) ، فَإِذَا تَمَكَّنَ الْخَوْفُ طَنَيْتُ^(٤) ، وَإِذَا خَطَرَ الرَّجَاءُ
حَيَيْتُ .

(١) نَزَعُوهُ - تَكَفَّ وَنَزَجَ . مُخَدِّجٌ : نَاقِصٌ .

يَقُولُ الشَّاعِرُ إِنَّ لِي لَخْذًا أَتَجِدُ عَلَيْهِ بِالْثَلَاثَةِ . وَيَفْعَلُ بِي هُوَ مِثْلُ ذَلِكَ : لِأَعْمَالٍ تَصْدُرُ مِنْ
أَحَدِنَا تَسْتَوْجِبُ هَذَا اللَّوْمَ . ثُمَّ تَكْفُ عَنْهَا وَتَرْجِعُ وَتَنْتَوِبُ إِلَى حِلْمِنَا وَتَنْتَوِبُ تَوْبَةً كَامِلَةً لَا خَلَّلَ
فِيهَا وَلَا تَقْصُصَ .

(٢) أَمْوَرُ - الْبَيْنُ وَاشْتِهَالُ .

الْجَلِيلُ - الْفُتَمَاءُ ، وَهُوَ نَبِيٌّ ضَعِيفٌ يُضْرَبُ بِهِ الْمَثَلُ لِمَا هُوَ هَيِّنٌ الْمُنْتَوَلُ
أَزْمَتُ - أَرَزَمَ بِصِلَحِهِ وَبِالْمَكْنِ - لَزِمَهُ .
الْمُتَمَعِّجُ - الْمُتَلَوِّى الْمُتَنَلِّسُ .

يَقُولُ الشَّاعِرُ إِنَّهُ سَهْلٌ لَيِّنٌ مَعَ إِخْوَانِهِ ، فَلَا يُصَغَّرُ لَهُمْ حَذَهُ ، وَلَا يَقِفُ مِنْهُمْ مَوَاقِفَ الْعُنَادِ
وَالْمَكْبَرَةِ . بَلْ إِنَّهُ لَيَسْهَلُ وَيَنْضَاعِلُ ، عَلَى حِينٍ يَشْتَدُّ وَيَقْوَى وَيَعَزُّ الْفُتَمَاءُ ، وَهُوَ ذَلِكَ النَّبِيُّ
الَّذِي يُضْرَبُ بِهِ الْمَثَلُ فِي الضَّعْفِ وَالضَّالَةِ .

وَيَزِيدُ الشَّاعِرُ فِي وَصْفِ سَهَوْلَتِهِ وَلَيِّنِهِ ، فَيَقَرُّ أَنَّهُ رُبِمَا لَازِمٌ شَيْئًا ضَعِيلًا كَرَأْسِ الْحَيَةِ ،
وَأَقَامَ إِلَى جَانِبِهِ ، وَهُوَ أَحَقُّ وَأَضَلُّ وَأَقَلُّ شَيْءًا .

(٣) الْخَاطِرُ مَا يَخْطُرُ بِالْقَلْبِ مِنْ تَدْبِيرٍ أَوْ أَمْرٍ ، وَالْهَاجِسُ .

(٤) طَنَيْتُ - مَرَضْتُ .

وقال جعفر بن محمد رضى الله عنهما : صُحبة عشرين يوماً قرابة .
 وقال رجل لضيغم العابد : أشتهى أن أشتري داراً فى جوارك حتى ألقاك كل
 وقت . قال ضيغم : المودة التى يفسدها تراخى^(١) اللقاء مَدْخولة^(٢) .
 وكتب آخر إلى صديق له : مثلى هفا ، ومثلك عفا . فأجابه : مثلك اعتذر ،
 ومثلى اغتفر .

وقال أعرابى : الغريب ، من لم يكن له حبيب .
 وقيل لأعرابى : مَنْ أكرم الناس عشرة ؟ قال : مَنْ إِنْ قُرِبَ مَنَحَ ، وَإِنْ بَعُدَ مَدَحَ ،
 وَإِنْ ظَلَمَ صَفَحَ ، وَإِنْ ضَوِّقَ سَمَحَ ، فَمَنْ ظَفِرَ بِهِ فَقَدْ أَفْلَحَ وَنَجَحَ .
 وقال الفضل بن يحيى : الصبر على أخ تعتب عليه ، خير من آخر تستأنف^(٣)
 مودته .

وقال عبدالله بن مسعود : ما الدُّخَانُ على النار بَادِلُ من الصاحب على الصاحب .
 كتب رجل إلى صديق له : أما بعد ، فإن كان إخوان الثقة كثيراً فانت أولهم ، وإن
 كانوا قليلاً فانت أوثقهم^(٤) ، وإن كانوا واحداً فانت هو .
 وقال سيف الدولة بن حمدان :

تَرَكْتُ لَكَ الْقُصُوى لَتُدْرِكَ فَضْلُهَا وَقُلْتُ: تَرَى بَيْنِي وَبَيْنَ أَخِي قَرَقُ؟^(٥)
 وَلَمْ يَكْ بِي عَنْهَا نُكُولٌ ، وَإِنَّمَا تَوَنَّيْتُ عَنْ حَقِّي فَتَمَّ لَكَ الْحَقُّ^(٦)

(١) تراخى اللقائ : تباعده .

(٢) مَدْخولة : مَعْبِيبة .

(٣) تستأنف مودته : تَأْخُذُ فِيهَا وَتَبْتَدِءُ .

(٤) أوثقهم : اعظم من يُؤْتَقَنُ وَيُوثَقُ بِهِ مِنْهُمْ .

(٥) القصوى : المنزل البعيدة الرفيعة .

تَرَى : أَيْ يَا تَرَى ، وَيَا قُلَّ تَرَى . وَمَعْنَاهَا يَا رَجُلَ . هَلْ تَرَى ؟

يقول الشاعر لصاحبه : إِنِّي قَدْ تَرَكْتُ لَكَ الْمَنْزِلَةَ السَّامِيَةَ : لَتَسْتَغْنَى بِهَا دُونِي : إِذْ لَا أَفْزُقُ

عَنْدِي بَيْنَ أَنْ تَنْالَهَا أَنْتَ ، أَوْ أَنْ أَنْالَهَا أَنَا .

(٦) نُكُولٌ : مُكُوضٌ . وَإِحْجَافٌ . وَجُبْنٌ .

تَوَنَّيْتُ عَنْ حَقِّي : قَتَرْتُ . وَلَمْ أَجِدْ فِي طَلْبِهِ .

تَمَّ لَكَ الْحَقُّ : وَافَقَ تَاماً قَدْ تَكَمَّلَتْ أَجْزَاؤُهُ .

يتحدث الشاعر عن قدرته على بلوغ تلك المنزل القصوى ، وإنه لم يكن به ضعف عن

بلوغها ، أَوْ عَجَزَ عَنِ الْوَصُولِ إِلَيْهَا . وَلَكِنَّهُ تَرَخَى - عَمداً - عَنْ طَلْبِهَا . وَتَوَانَى - عَنْ قَصْدِ -

فِي السَّعْيِ لِنَوَالِهَا : لِيُنَالَهَا صَاحِبُهُ دُونَهُ ، وَيُظْهَرَ بِهَا كَامِلَةُ تَامَةٍ

مثالب الوزيرين

ويعرف أيضا بأخلاق الوزيرين ،
كتبه بعد أن ارتحل إلى بلاط
الصاحب ابن عباد ، وخابت آماله
فيه ، وخاب أمله أيضا في ابن العميد
الأب وابنه أيضا المعروف بأبي
الفتح ، وبعد الكتاب من أعنف
نصوص الهجاء التي كتبت بالعربية ،
اعتمدنا على الطبعة الصادرة عن
المجمع العلمي العربي بدمشق ،
بتحقيق العلامة محمد بن تاووت
الطنيجي ، وقد أعادت إصدارها
بالتصوير دار صادر للنشر - بيروت .

أركان الحياة

ونقد رأيَ الجرجاني^(١) - وكان في عداد الوزراء ورجلة الرؤساء ، وإنما قتله ابن بنية^(٢) لأنه نعيم له بالوزارة - يقول للحاتمي أبي علي^(٣) ، وهو من أذهياء الناس :
 إنما تُحرِّمُ لأنك تُشتمُ .
 فقال الحاتمي إنما أشتُم لأنني أُحرم .
 فأعاد الجرجاني قوله .
 فأعاد الحاتمي جوابه .
 فقال ثم ماذا ؟

فقال الحاتمي : دَعِ الدَّسْتَ^(٤) قائمةً ، وإن شئت عملناها على الواضحة .
 قال : قُل !

قال الحاتمي : يقطع هذا أن لا يسمِعوا مدائحهم ، ولا يكثرثوا بمراتيهم ؛ وأن يعترفوا لنا بمزية الأدب وفضل العلم وشرف الحكمة ، كما خلدنا لهم بعظمة الولاية ، وفضل العمل ، وبسط اليد ، وعرض الجاه ، والاستبداد بالتنعم والطاق

(١) الجرجاني محمد بن أحمد البغدادي الكاتب ، مات سنة ٣٦٣ هـ . وترجمته واحداً مع الوزير ابن بنية - في تجارب الأمم ٣١٠/٢ - ٣٢٣ . وفي المقابسات لأبي حيان ٨١ حديث لأبي سليمان المنطقي مع الجرجاني حول الوزارة . ثم حديث عنه بعد مقتله من أجلها . وانظر الامتاع ٣١٧/٣ .

(٢) ابن بنية أبو طاهر محمد بن محمد بن علي الملقب نصير الدولة . وزير لعز الدولة بختيار في سنة ٣٦٢ هـ . وبقي في الوزارة أربع سنين . وكان قبل الوزارة يتولى أمر المطبخ لعز الدولة . فلما ولي الوزارة قال الناس : من الغضارة إلى الوزارة ، يشيرون إلى وضاعة أصله . ولكن كرمه غطى على عيبه . وفي سنة ٣٦٧ قتلته عضد الدولة وصلبه . وبقي مصلوباً إلى أيام صمصام الدولة حيث انزل ودفن . ترجمته في عيون التواريخ لابن شلكر سنة ٣٦٢ ، ٣٦٧ (جـ ١١ ورقة ١٤٦ ب - ٧٥ ب نسخة بشير آغا) ، تاريخ أبي الفداء ١١٩/٢ ، ١٣٢٥ . وانظر بعض أخباره في الامتاع ٤٣/٤٢/١ . وفي بتيمة الدهر ٣٤٤/٢ (طبع مصر) قصيدة لابن الأنباري في ثلثه تعتبر من عيون الشعر العربي .

(٣) أبو علي الحاتمي . محمد بن الحسن بن المنظر البغدادي المتوفى سنة ٣٨٨ هـ . لغوى كاتب ناقد شهير . وله مؤلفات وقد وصفه أبو حيان (الامتاع ١٢٦/٣ - ١٢٧) بثقل الروح والغرور والخيلاء . ترجمته في تاريخ الإسلام للذهبي ١١٩٨/١٢ (نسخة آيا صوفيا) رقم (٣٠٠٨) ، عيون التواريخ سنة ٣٨٨ .

(٤) الدست . يستعمل ويراد به الديوان ، وكان الوزارة . كما يستعمل بمعنى الرئاسة والوزارة نفسها استعارة من المعنى السابق انظر تاج العروس (دست) شفاء الخليل للخفاجي ٩٧ . والمعنى : إما أن تدع هذه المسألة تسير على هذا النحو . وإما أن نتكلم في إيضاحها بصورة صريحة واضحة .

والرَّوَّاق ، والأمر والنهي ، والحجاب والبراب ؛ وأن يكتبوا على أبواب دورهم وقصورهم :

يَا بَنِي الرَّجَاء ! ابعُدوا عَنَّا ، يَا أَصْحَابَ الْأَمَل ! اقْطَعُوا أَطْمَاعَكُمْ عَنْ خَيْرِنَا وَمَبِيرِنَا^(١) ، وَأَحْمِرْنَا وَأَصْفَرْنَا ، وَوَفِّرُوا عَلَيْنَا أَمْوَالَنَا .

قال أَبُو الْعَتَاهِيَةِ : فَإِنَّ الْعَبْدَ يَقُولُ : لَوْ وَقَفْتَنِي لِأَطْعَمْتُكَ ، أَيْكُونُ مَا يَحْتَاجُ الْعَبْدُ إِلَيْهِ نَسِيئَةً ، وَمَا يُطَالِبُهُ اللَّهُ بِهِ نَقْدًا ؟

قال المأمون : فما يَقْطَعُ هذا ؟

قال : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، اضْرِبْ عَنْهُ ، فَإِنَّ الدُّشْتَ قَائِمَةٌ^(٢) .

وَأَرْجِعْ فَأَقُولُ :

وما خَلَا النَّاسُ مِنْذُ قَامَتِ الدُّنْيَا مِنْ تَقْصِيرٍ وَاجْتِهَادٍ ، وَيُلَوِّغِ الْغَايَةَ ، وَقُصُورٍ عَنْ النَّهْيَةِ ، وَتَشَارِكٍ فِي الْمَحَامِدِ وَالْمَذَامِ ، وَالْمَسَاوِي وَالْمَحَاسِنِ ، وَالْمَنَاقِبِ وَالْمَثَالِبِ ، وَالْفَضَائِلِ وَالرَّذَائِلِ ، وَالْمَكَارِمِ وَالْمَلَائِمِ ، وَالْمَنَافِعِ وَالْمَضَارِ ، وَالْمَكَارِهِ وَالْمَسَارِ ؛ وَمِنْ بَعْضِ مَا يَكُونُ لِلْقَائِلِ فِيهِ مَذْذُوحَةٌ ، وَلِلْمُشَاغِبِ بِهِ اسْتِرَاحَةٌ ، وَلِلْمُنَظَرِ فِيهِ مُتَسَعٌ ، وَلِلْمُسَامَعِ فِيهِ مُسْتَمْتَعٌ ؛ وَأَحْسَنُهُمْ حَالًا ، وَأَسْعَدُهُمْ جَدًّا ، وَأَبْلَغُهُمْ يُمْنًا ، وَأَرْبَحُهُمْ بَضَاعَةً ، مَنْ كَانَتْ مَحَاسِنُهُ غَامِرَةً لِمَسَاوِيهِ ، وَمَنَاقِبُهُ ظَاهِرَةً عَلَى مَثَالِبِهِ ، وَمَادِحُهُ أَكْثَرُ مِنْ هَاجِيهِ ، وَعَاذِرُهُ أَنْطَقُ مِنْ عَاذِلِهِ ، وَالْمَحْتَجُّ عَنْهُ أَنْبَهُ مِنَ الْمَحْتَجِّ عَلَيْهِ ، وَالنَّافِعُ عَنْهُ أَصْدَقُ مِنَ النَّافِعِ فِيهِ^(٣) ؛ وَلَيْسَ الْعَمَلُ عَلَى عَدَدِ هَذِهِ وَهَذِهِ ، وَلَكِنْ عَلَى أَنْ لَا يَكُونَ مَعَ صَاحِبِ الْمَحَاسِنِ مِنَ الْخِصَالِ اللَّئِيمَةِ مَا يَحْبِطُهَا وَيَجْنَحُهَا ، وَيَحْتَلِعُهَا ، وَيَأْتِي عَلَيْهَا وَإِنْ صَغُرَ جَرَمُ تِلْكَ الْخَلَّةِ ، وَحُمِلَ اسْمُ تِلْكَ الْخِصْلَةِ : وَأَنْ يَكُونَ مَعَ صَاحِبِ الْمَسَاوِي مِنَ الْخِلَالِ الْكَرِيمَةِ مَا يُغَطِّيْهَا ، وَيُسَبِّلُ السِّرَّ عَلَيْهَا ، وَيُعِينُ الدَّائِدَ عَنْهَا ، وَيُبَيِّضُ وَجْهَ النَّاصِرِ لَهَا ، وَيُمَدُّ بَاعَ الْمَتَطَاوِلِ إِلَيْهَا ؛ وَكَمَا وَجَدْنَا السَّيِّئَاتِ يَحْبِطُنَ الْحَسَنَاتِ ، كَذَلِكَ قَدْ وَجَدْنَا الْحَسَنَاتِ يُذْهِبُنَ السَّيِّئَاتِ .

(١) الدست قائمة : المشكلة مستمرة ، والقول فيها تتصل (واخذه باوائله .

(٢) انفجح . الضرب والرمي . واشد العذاب . يعنى ان يكون المدافع عنه اصدق من الطاعن فيه .

والعمود الذى عليه المعمول ، والغاية التى إليها الموصول ، فى خصال ثلاث هن دعائم العالم ، وأركان الحياة ، وأمّهات الفضائل ، وأصول مصالح الخلق فى المعاش والمعاد ؛ وهن : الدين ، والخلق ، والعلم ، بهن يعتدل الحال ، وينتهى إلى الكمال ، وبهن تملك الأزمنة ، وينال أعز ما تسمو إليه الهمة ؛ وبهن تؤمن الغوائل ، وتحمد العواقب ؛ لأن الدين جماع المرائد والمصالح ، والخلق نظام الخيرات والمنافع ، والعلم رباط الجميع ؛ ولأن الدين بالعلم يصح ، والخلق بالعلم يظهر ، والعلم بالعمل يكمل ؛ فمن سليم دينه من الشك واللحاح ، وسوء الظن والبراء ، وثبت على قاعدة التصديق بمواد اليقين الذى أقر به البرهان ، وطهر خلقه من دنس الملل ، ولجاج الطمع ، وهجنة البخل ، وكان له من البشر نصيب ، ومن الطلاقة جظ ، ومن المساهلة موضع ؛ وحظى بالعلم الذى هو حياة الميت ، وحلى الحى ، وكمال الإنسان فقد برز بكل فضل ؛ وبان بكل شرف ، وخلا عن كل غباوة ، وبرىء من كل معابة ، وبلغ التجرد الأشرف ، وصار إلى الغاية القسوى .

ولم أذكر لك العقل فى هذا التفصيل ، وهو أولهن ، وبه يتم آخرهن ، وعليه مجرى جميع ما افتتن القول به ؛ لأنه موهبة الله العظمى ، ومنتحة الكبرى ، وباب السعادة فى الآخرة والأولى ، وكان ما عداه فرعاً عليه ، ومضموماً إليه ؛ لأنه متى غدبه الإنسان الحى الناطق فقد سقط عنه التكليف ، وبطل عليه الاختيار ، وصار كبعض البهائم العاملة ، وكبعض الشخوص المائلة ؛ وبه يعرف الدين ، ويقوم الخلق ، ويقتبس العلم ، ويُلتمس العمل الذى هو الزبدة ؛ وقد يعدم العمل والعقل موجود ، وقد يفقد الخلق والدين ثابت ؛ فليس الأصل كالفرع ، ولا الأول كالثانى ، ولا العلة كمجلوب العلة ، ولا ما هو قائم^(١) كالجوهر ، كما هو دائر كالعرض ؛ فلهذا أضربت عن ذكره ، وغنيت عن الاستظهار به ؛ وإذا تمت فائدة الكلام فما زاد عليه لغو ، وإذا استقر فيه المعنى فما أُلِم به فساد .

فقر

وصاحب الفقر إن مدح قرط ، وإن ذم أسقط ، وإن عمل صالحاً أحبط ، وإن ركب شيئاً خلط وخبط ؛ ولم أر شيئاً أكشف لغطاء الأديب ، ولا أنشف لماء وجهه ،

ولاً أذعر^(١) لسرب حياته منه ، وإن الحرّ الأيف ، والكريم المتعيف^(٢) من مقاساته والتجلّد عليه ، لقي شغل شاغل وموت مائت .

ولابدّ لمن ظلم من أن يتظلم ، وكيف يكون المظلوم إذا انتصر ظالماً^(٣) ، والله يقول : « وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ »^(٤) ، ولو كان المظلوم إذا تظلم ظالماً ، لكان الظالم إذا ظلم معذوراً ، وكما هيجن الله لوم المحسين ، فكذلك حسن توبيخ المسيء ، وكما أثاب على تركية من كان طامراً ، كذلك آجر على جرح من كان مدخولاً ؛ ألا ترى أن التقرب إلى الله بعداوة أبي جهل^(٥) ، وذمه ولغنه وذكر لؤمه وخساسته ، كالتقرب إلى الله بولاية أبي بكر^(٦) ومدحه والترحم عليه وذكر فضله وبلاته ونصرتة ؛ وهذا مستمير في غير أبي جهل ممن عادى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، كما أنه مستمير في غير أبي بكر ممن أطاع الله ورسوله ؛ وإنما الأمور بعواقبها ، والمذائب بشواهداها ، والنتائج بمقدماتها ، كما أن الفروع بأصولها ، والأواخر بأوائلها ، والسقوف بأساسها .

حقيقة

ولست أدعى على ابن عبّاد ما لا شاهد لي فيه ، ولا ناصر لي عليه ، ولا أذكر ابن العميم بما لا بيّنة لي معه ، ولا برهان لدعوائى عنده ، وكما أتوخى الحق عن غيرهما إن اعترض حديثه في فضل أو نقص ، كذلك أعاملهما به فيما عرفنا بين أهل العصر باستعماله ، وشهرا فيهم بالتحلى به ، لأن غايته أن أقول ما أحطت به خبراً ، وحفظته سماعاً .

(١) أذعر : اسم تفضيل من أذعر بمعنى نفر .

(٢) كذا بالأصل ، والمتعيف : الكاره ، والخشى أن تكون : « المتغيب » ، من تغيب عن الأمر . بمعنى نكل عنه .

(٣) في الكشف ٧١/٣ : « وقالوا : العفو مندوب إليه ، ثم الأمر قد يتعكس في بعض الأحوال فيرجع ترك العفو مندوباً إليه . وذلك إذا احتيج إلى كف زيادة البغى وقطع ملة الأذى . وعن النبي صلى الله عليه وسلم ما يدل عليه . وهو أن زينب اسمعت عائشة بحضرتة ، وكان ينهاها فلا تنتهي ، فقل لعائشة : دوتك فلتنصري . »

(٤) الآية ٤١ من سورة الشورى ، وفي الكشف ٣٩٣/١ - ٣٩٤ : « ... وقيل : ضاف رجل قوماً فلم يطعموه فاصبح شاكياً ، فعوتب على الشكوى فنزلت الآية : « ولئن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل » ، وقيل :

هو أن يبداً بالشكوى فيردّ على الشاتم . »

(٥) هو عمرو بن هشام المخزومي ، كان يكنى في الجاهلية أبا الحكم فكانه النبي صلى الله عليه وسلم أبا جهل فلزمته . وثاني ترجمته بعد .

(٦) أبو بكر بن أبي قحافة : عبدالله بن عثمان بن عامر التيمي للخليفة الأول المذوق سنة ١٢ هـ . عين ٦٣

سنة . المعارف ٨٣ - ٨٦ .

وسهل على أن أقول : لم يكن في الأولين والآخرين مثلهما ، ولا يكون إلى يوم
القيامة من يغيرهما اصطناعاً للناس ، وجلباً عن الجهال ، وقياماً بالثواب والعقاب ،
وبذلاً لفتنة المال ، ولكل دُخْرٍ من الجواهر والعقد ، وأنهما بلغا في المجد الذروة
السماء ، وأحرزا في كل فضل وعلم قصب السبق ، وأن أهل الأرض ذاتوا لهما ،
وأن النقص لم يشينهما بوجه من الوجوه ، وأن العجز لم يقرهما في حال من بسبب
ثوب لعله أخذه ، أو درهم تتي عليه كفه ، أو حاجة خبيسة قضيت له ؛ تبلى به قلة
الدين وسوء النظر فيما يتعقب بالتفحيط والتحسين أنه يمدح واحداً مقروفاً بالزندقة
والكفر ، ويقرظ آخر معروف بالالحاد والشكف ، ويصف بالجوهر من كان أبخل من
كلب على عقى صبي ويدعى العقل لمن كان أحمق من دُغَة^(١) ؛ ومن أظلم ممن
يصف السفى بالحصافة ، واللثيم بالكرم ، والمتعرج بالإنابة ، والعاجز بالكفاية ،
والنقص بالزيادة ، والمتأخر بالسبق ، والغيث بالرفق ، والبخل بالسخاء ، والوضيع
بالغلاء ، والوقاح بالحياء ، والجبان بالغناء ؟

فلا يكون حيثل لقولى قابل ، ولا لحكمي ملتزم ، ولا لنصبي مرجوع ،
ولا لسعبي نجح ، ولا لصواي مختار ، ولا لحداثي مستمع ؛ وفي الجملة لا يكون
لدعواي مُصدق .

ولعمري لو انقلبت عن ابن عباد - بعد قصدي له من مدينة السلام وإنأختي بفنائها
مع شدة العدم والإنفاض^(٢) ، والحاجة المزعجة عن الوطن ، وصفر الكف عما
يُصان به الوجه ؛ وبعد ترددي إلى بابي في غمار^(٣) الغادين والرائحين ، والطامعين
الراجين ، وصبري على ما كلفني نسخته حتى نشبت به تسعة أشهر خدمة وتقربا ،
وطلباً للجدوى منه ، والجاه عنده ، مع الضرع والتملق - ببعض ما فارقت من أجله
الأعزة ، وهجرت بسببه الإخوان ، وطويت له المهابة والبلاد ، وعلى جزء مما كان
الطمع يُدندن حوله ، والنفس تحلم به ، والأمل يطمئن إليه ، والناس يعذرونه
ويحققونه^(٤) ، لكنت لأحسانه من الشاكرين ولإساءته من الساترين ، وعند ذكره بالخير

(١) دُغَة : اسم رجل كان أحمق ، ولقب معاوية بنت مغنح (أو معنح) العجبية وكانت تحمق أيضاً ، فكان
يقال : أحمق من دُغَة . . والمثل قصة تجدها في امثال الضبي ١٠٢ والمعارف ٣٠٤ والاقتضاب ١٥٠ . وأخبار
الحمقى والمغفلين ٤١ ، ومجمع الامثال ١٩٣/١ ، ١٤٧ وناج العروس ١٢٨/١٠ ، واللسان (دغا) .

(٢) الإنفاض : ذهب المال وفناء الزاد .

(٣) غمار : يفتح الغين ويضم جماعة الناس - يقال : دخلت في غمار الناس أي في جمعهم المتكاثف .

(٤) يحققونه : يصدقونه .

من المساعدين المصدقين ، وعند قرفه بالسوء من الذابين الممتنعين . والشاعر يقول :

« من يعطِ أثمانَ المحامد يُحمد » .

والآخر يقول :

« والحمدُ لا يُشترى إلا بأثمان » .

سرعة التحول

وكان ابن عبّاد شديد السّفه عجيب المناقضة ، سريع التحوّل من هيئة إلى هيئة ، مُستقبلاً للأحرار بكل فرية وفاجشة ؛ كان يقول للإنسان الذى قد قديم عليه من أهل العلم : تقدّم يا أخى ! وتكلّم ، واستأنس ، واقترح ، وانبسط ، ولا تُرع ، واحسبني فى جوف مرقعة ، ولا يهولك هذا الحشم والخدم ، وهذه العاشية والحاشية ، وهذه المرتبة والمستطبة وهذا الطاق والرّواق ، وهذه المجالس والطنافس ؛ فإن سلطان العلم فوق سلطان الولاية ، وشرف العلم أعلى من شرف المال ، فليفرخ روعك وليتعمّ بالثّك ، وقُل ما شئت ، وانصُر ما أردت ، فليست تجدُ عندنا إلا الإنصاف والإسعاف والإنحاف والإطراف ، والمقاربة والمواهة ، والموانسة والمقابلة ، وعلى هذا التنزيل ، ومن كان يحفظ ما يهذى به فى هذا وغيره ؟

حتى إذا استقى ما عند ذلك الإنسان بهذه الرّخايف والجيل ، وسأل الرجل معه فى حُدوره على مذهب الثّقة ، وركب فى مناظرتة ، وردعه وحاجّه ، وراجّه وضاجّه وشاكعه^(١) ووضع يده على النّكتة الفاصلة ، والأمر القاطع تنمرّ له ، وتنغر^(٢) عليه ، واستحصد غضباً وتلظى لهبا ، وقال بعد وثبتين أو ثلاث : يا غلام ! خذ بيد هذا الكلب إلى الحبس ، وضعه فيه بعد أن تصبّ على كاهله وظهره وجنيته خمسمئة عصا ؛ فإنه معايد ضيد ، يحتاج إلى أن يُشدّ بالقد^(٣) ، ساقط هابط ، كلب نباح ، متعجرف وقاح ؛ أعجبه صبرى ، وغرّه جلمى ، ولقد أخلف ظنى ، وعدت على

(١) شاكعه : غاضبه . وفى الاصل : « سلكه » : ضلّله .

(٢) تنغر عليه : غلا عليه من الغضب .

(٣) القد : السير الذى يقدّ من الجلد .

نفسى من أجله بالتوبيخ ، وما خلق الله العصا باطلا ، ولا ترك خَلْقَةً هاملا .
 فيقام ذلك البائس على هذه الحال التى تسمع ، على أن مسموعك دون مُشاهدتك
 لو شاهدت ، ومن لم يحضر ذلك المجلس لم ير منظراً ربيعاً ورجلاً ربيعاً ، قد عامل
 بما وصفت الحريرى غلام ابن طرارة^(١) والجامدى^(٢) الشاهر الوارد عليه من البصرة ،
 وأبازيد الكلابى وغيرهم .

وكان أبو الفضل أعنى ابن العميد إذا رآه يقول : أحسب^(٣) أن عينيه رُكبتا من زئبق
 وعنقه عمل بلولب .

وصدق ، لأنه كان طريف التنى والتلوى شديد التفكك والتفتل كثير التعوج
 والتموج ، فى شكل المرأة المومسة والفاجرة الماجنة ، والمخنث الأسمط .
 وسمعت أبا الفضل الهروى^(٤) يقول له يوماً : لو وُضِعَ فى خزانة الكتب للوقوف
 شئ من الطب لكان ذلك باباً من المنافع الحاضرة والفوائد المجلة والخير العام .
احتقار !

وطلع على يوماً فى داره وأنا قاعد فى كسر^(٥) رواق أكتب له شيئاً قد كادنى به ،
 فلما أبصرته قمت قائماً ، فصاح بحلق مشقوق : أقعد ! فالوراقون أحسن من أن
 يقوموا لنا ، فهيمت بكلام ، فقال لى الزعفرانى الشاعر : احتمل فإن الرجل رقيق ،
 فقلب على الضحك ، واستحال الغيظ تعجباً من خفته وسخفه ، لأنه قال هذا وقد
 لوى شدة أنفه وأمال عنقه واعترض فى انتصابه وانتصب فى اعتراضه ، وخرج

(١) هو المعالى بن زكريا بن يحيى النهراونى الجريرى المعروف بلبن طرارة . علامة شهير وله مؤلفات ، ولد
 سنة ٣٠٥ أو ٣٠٣ وتوفى سنة ٣٩٠ . ترجمته فى الإرشاد ١٦٢/٧ - ١٦٤ والفهرست ٣٢٨ - ٣٢٩ والبدایة
 ٣٢٨/١١ .

(٢) أبو عبدالله محمد بن حامد الجامدى (نسبة إلى جامعة من أعمال واسط) ذكره الثعالبى فى اليتيمة (الباب
 ٦ القسم ٢ الورقة ٧٣ نسخة احمد الثالث) وهو من شعراء العراق . وكان من جلاس الصاحب وعنه نقل
 الثعالبى (١٧٢/٣ ، ١٧٣ مصر) فقرأ وصف فيها مجلس الصاحب وخُضُوزَه . وقد ذكره ابن سكر فى عيون
 التواريخ وقال لم فتتحقق وفاته ، وكان فى حدود الأربعمئة . وانظر : جامعة ، فى معجم البلدان .

(٣) فى الأصل : « احسبوا » ، تصحيف . والضمير فى « راء » لابن عبد .
 (٤) كان أبو الفضل الهروى راصداً بحضور أبى جعفر الخازن فى المرصد الذى بناه أبو الفضل ابن العميد
 ببارى . وكان رصدهما سنة ٣٤٨ هـ . ذكره البيهونى فى « تحديد نهايات الأماكن » ، ١٤٥ .
 - وله تصنيف زادت على ١٥٠ مصنف . انظر شرح الاحياء ٥/٢ . واصول الدين للبغداد ٣١٠ . إشارات المرام
 ٢٤ .

(٥) الكسر : جانب البيت .

فِي مَسْكَ^(١) مجنون قد أفلت من دبر خنُون^(٢) . والوصف لا يأتي على كنه هذه الحال لأن حقائقها لا تدرك إلا باللحظ ، ولا يؤتى عليها باللفظ .
أف هذا كله من شمائل الرؤساء وكلام الكبراء وسيرة أهل العقل والرزانة ؟ لا ، والله ! وترباً^(٣) لمن يقول غير هذا .
لقضاء

فأما حديثي معه ، فإني حين وصلت إليه قال لي : أبو من ؟
قلت : أبو حيان .
قال : بلغني أنك تتأدب .
قلت : تأدب أهل الزمان .
قال : فقل لي ، أبو حيان ينصرف أولاً ؟
قلت : إن قبله مولانا لا ينصرف . فلما سمع هذا تنمر وكأنه لم يعجبه ، وأقبل على واحد إلى جانبه فقال له بالفارسية سَفْهًا ، على ما فُسر لي .
ثم قال لي : الزم دارنا ، وانسخ لنا هذا الكتاب .
فقلت : أنا سامعٌ مطيع .
ثم قلت في الدار لبعض الناس مُستربلاً : إنما توجهت من العراق إلى هذا الباب ، وزاحمتُ متجعي هذا الربع ، لأتخلص من خَرَزَةِ الشُّوم ؛ فإن الوراقة لم تكن ببغداد كاسدة .
فنبى إليه هذا أو بعضه ، أو على غير وجهه ، فزاده تنكراً ؛ وكان الرجل خفيف الدماغ ، لا يعرف الجلم إلا بالاسم ؛ والسؤدد لا يكون ولا يكمل ولا يتم إلا بعد أن ينسى جميع ما يسمع ، ويتأول ما يكره ، ويؤخذ بالأسد فالأسد .
وقال أبو سعيد السيرافي : الجلم مشارك لمعنى الحُلم ؛ فصاحب الحلم هو الذي يعرض عما يرى ويسمع كالحالم ، واللفظ إذا واخى اللفظ كان معناه قريباً من معناه ، وهذا الخلق والخلق ، والعذل والعذل ، وسست الرجل ، وسست المرأة .

(١) المسك . بالفتح : الجلد .

(٢) لم يجد له ذكراً في المظان .

(٣) كلمة ثقيل في الدعاء ، أي لا أصاب من يقول هذا خيراً .

وقال لى يوماً آخر ، أعتى ابن عباد ؛ يا أبا حيان ! من كنتك أبا حيان ؟
قلت : أجل الناس فى زمانه ، وأكبرهم فى وقته .

قال : من هو وملك ؟

قلت : أنت .

قال : ومتى كان ذلك ؟

قلت : حين قلت لى : يا أبا حيان .

فأضرب عن هذا الحديث وأخذ فى غيره على كراهية ظهرت عليه .
وقال لى يوماً آخر ، وهو قائم فى صحن داره ، والجماعة قيام ؛ منهم الزعفرانى ،
وكان شيخاً كثير الفضل ، جيد الشعر ، مُمتع الحديث ؛ والنمى المعروف بسطل
وكان من مصر ؛ والأقطع ، وصالح الوراق ، وابن ثابت ، وغيرهم من الكتاب
والندماء : يا أبا حيان ! هل تعرف فىمن تقدّم من يُكنى بهذه الكنية ؟
قلت : نعم ، من أقرب ذلك أبو حيان الدارمى .

حدثنا أبو بكر القاضى محمد بن محمد الدقاق ، قال : حدثنا ابن الأنبارى ،
قال : حدثنا ابن ناصح ، قال : دخل أبو الهذيل العلاف^(١) على الواثق^(٢) ، فقال
له الواثق : لمن تعرف هذا الشعر :

سباك من هاشم سليل	ليس إلى وصله سبيل
من يتعاطى الصفات فيه	فالقول فى وصفه فضول
للحسن فى وجهه هلال	لأعين الخلق ما يزول
وطرة لا يزال فيها	لنور بدر الدجى مقيّل
ما اختال فى صحن قصر أوس	إلا تسجى له قنيل
فإن يفت فالعيون نصب	وإن تولّى فهنّ حول

(١) محمد بن الهذيل بن عبدالله بن مكحول البصرى المتكلم المعتزلى المتوفى سنة ٢٢٦ أو ٢٢٧ هـ .
تاريخ بغداد ٣/٣٣٦ . الوفيات ١/٦٠٧ - ٦٠٨ .

(٢) أبو جعفر هارون بن المعتصم المتوفى سنة ٢٣٢ هـ . العقد الفريد ٥/١٢١ - ١٢٢ . تاريخ الخلفاء
للسيوطى ١٢٥ . حياة الحيوان ١/٧٢ - ٧٣ .

فقال أبو الهذيل : يا أمير المؤمنين ! هذا الرجل من أهل البصرة يُعرف بأبي حيان الدرامي ، وكان يقول بإمامة المفضّل^(١) . وله من كلمة يقول فيها :
أفضله والله قدّمه على صحابته بعد النبي المكرم
بلا بغضة - والله - مني لغيسره ولكنه أولاهم بالتسقيّم
وجماعة من أصحابنا قالوا : أنشدنا أبو قلابة عبد الملك بن محمد الرقاشي^(٢)
لأبي حيان البصري :

يا صاحبي دغا الملامة واقصرا ترك الهوى يا صاحبي خساره
كم لمت قلبي كي يفيق فقال لي : لجت يمين ماله كفساره
أنا لا أفيق ولا أفتر لحظة إن أنت لم تعشق فانت حمجاره
الحب أول ما يكون بنظرة وكذا الحريق بداؤه بشراره
يا من أحب ولا أسمى باسمها إياك أعنى واسمعي يا جاره^(٣)
فلما رويت الإسناد ، وأنشدت الشعر ، وريقى بليل ، ولساني طلق ، ووجهي
متهلل ، وقد تكلفت ذلك وأنا في بقيّة من غرر الشباب وبعض ريعانه ، فملأت الدار
صياحاً بالراوية والقافية ، فحين انتهيت أنكرت طرفه ، وعلمت سوء موقع ما رويت
عنده .

قال : ومن تعرف أيضاً ؟

قلت : روى الصولي - فيما حدثنا عنه المرزبانى : أن معاوية^(٤) لما حضر أنشد
يزيد عند رأسه متمثلاً :

لو أن حياً نجاً لفات أبو حيان لا عاجز ولا وكل
الحول القلب الأريب وهل تدفع صرف المنية الجيل

(١) يعنى انه يجيز خلافة ابي بكر . مع اعتقاده ان على بن ابي طالب افضل من ابي بكر

(٢) توفي سنة ٢٧٦ هـ . وترجمته في تاريخ بغداد ٤٢٥/١٠ - ٤٢٧

(٣) نصب الصفدي في الواق (احمد الثالث ٢٩٦٠ جـ ٢٢ الورقة ١٤ ب ١١٥) هذه الابيات لأبي حيان التوحيدى . وهو خطأ ضلل بعض المحدثين .

(٤) توفي سنة ٦٠ هـ عن ٨٠ أو ٨٦ سنة . ومدة خلافته ١٩ سنة . انظر الواق ١٧١/٢٣ - ٧٤ ب (شهيد على ١٩٧١) ، والحوليات (سنة ٦٠) .

قال الصولي : هذا من المعمرين المعقلين .
وانتهى الحديث من غير بشاشة منه عليه ، ولا هزة ولا أريحية ، بل على اكفهرار
النوجه ، وتبو الطرف ، وقلة التقبل . وجرت أشياء آخر ، وكان عقبها أنني فارقت بابه
سنة سبعين وثلاثمائة راجعاً إلى مدينة السلام ، بغير زاد ولا راحلة ، ولم يعطني في
مدة ثلاث سنين درهماً واحداً ، ولا ما قيمته درهم واحد . فاحمل هذا علي
ما أردت .

ولما نالني منه هذا الجرمان الذي قصدني به ، وأحفظني عليه ، وجعلني من بين
جميع غاشية ورده فرداً ، أخذت أتلافى ذلك بصدق القول عنه ، في سوء الثناء
عليه ، والبادي الظلم ، وللأمور أسباب ، وللأسباب أسرار ، والغيب لا يُطلع عليه ،
ولا قارخ ليابه .

وسألت العماري عنه فقال : الرجل ذو خلة^(١) ، ولقد سأله ليلة شيخ من خراسان
في الموبسم عن قوله عز وجل : « وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا ، وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ
الصَّالِحِينَ »^(٢) ما مرتبة الصلاح المذكور في الثاني من النبوة الثابتة في الدنيا ؛
فأضرب عن المسألة ودافع بضدّها ، ولم يُجِر كلمة فيها .

خصال العمد

فقال : بأنه لله عدو ، وللأحرار مهين ، ولأهل الفضل حاسد ، وللعمامة مُحِب ،
ولللخاصة مُبغض .

فأما عداوته لله فلقلة دينه .
وأما إهانته للأحرار فهي شهيرة كهذا النهار .
وأما حسده لأهل الفضل فجرب ذلك بكلمة تُبديها .
وأما حبه للعمامة فيمناظرته لهم وإقباله عليهم .
وأما بغضه للخاصة فلاذلاله لهم وإقصائه إياهم .

* * *

(١) الخلة . بالفتح الخلل والنقص في الرأي .

(٢) سورة البقرة ١٣٠ .

ابن العميد

فأما ابن العميد أبو الفضل ، فإنه كان باباً آخر ، وطائفة أخرى ، وكان فضله من جنس ليس لابن عباد فيه نصيب ، ونقصه من ضرب لم يكن له فيه ضرب ، كان يظهر حليماً تحت سفه ، ويدعى علماً هو به جاهل ، ويرى أنه شجاع وهو أجن من المنزوف ضرطاً ، وكان يدعى المنطق وهو لا يفى بشيء منه ، ولم يقرأ حرفاً على أحد ، ويتشبع بالهندسة وهو منها بعيد ، ولم يكن معه من صناعة الكتابة الأصل وهو الحساب ، وكان أجهل الناس بالدخل والخرج ، ولقد بقي ما بقي في أيامه فما قعد يوماً في الديوان ناظراً في عمل ، أو فاصلاً لحكم .

شاعر يتملق

ولقد شاهدت في مجلسه شاعراً من الكرخ يعرف بمموه ، وكان جيد اللسان ، يقول له :

أيها الرئيس ! قد لزمْتُ فناءك لزوم الظل ، وذللت لك ذل النعل ، وخدمت أُملى
فيك خدمة ناصح لنفسى فيما التمت من الصلة والجائزة ، ولك فيما أوفدت عليك
من الثناء والمدحة ، وما بى - والله - أَلَمَ الحرمان ، ولكن شماتة قوم صدقوني
فاتهمتهم ، ونصحوني فاغتشتهم ؛ بأى وجه ألقاهم ، وبأية حجة أداغهم ؟ وهل
حصلت من مديح بعد مديح ، ومن نظم بعد نشر ، ومن رواح بعد بكور ، ومن
غسل أطمار وإخلاق سربال ، ومن تأقّب لازم ، وضجر دائم إلا على ندم مؤلم
ويأس مُسقم ؟ فإن كان للنجاح علامة فما هى ، وأين هى ؟ قد - والله - طالت غيبتى
عن أهلى ، وعن السائلين عن حالى ، فى هذه المعاملة التى عاقبتها الحية
بعد المظل ، والجرمان بعد الإطماع ، والتخسر بعد الوعد ؛ وقد بسط الله كفك ،
وجعل الخير والجود والكرم جارية فى أسرارها ونابغة من جوانبها . ففرض أيها الرئيس
فإنما أنت بحر ، واسكب فإنما أنت سحاب ، واطلع فإنما أنت شمس ، واتقّد فإنما
أنت نجم ، ومُر فإنما أنت مطاع ، وهب فإنما أنت واجد ، واهتز فإنما أنت ماجد ،
وصل فإنك جواد .

والله ما يقعد بك خور في الطباع . ولا تغل^(١) في العرق ، ولا قدح في الأصل .
 انمغ^(٢) قصيد^(٣) ، والحبل حصيد^(٤) ، والزند وار ، والفروة خضراء^(٥) ، والعود مورق ،
 والمان جم ، والأمر أجم ، والسلك دقيق ، والنسيج صفيق ، والطراز أنيق ؛ وما هو
 إلا أن تقول حتى تسمع ، وما هو إلا أن تأمر حتى يمثل ، لأن أمرك على الفور ،
 وحكمك ماضٍ بالعدل والجور ؛ فما الذي ينثى عزمك عن الكرم ؟ وفل حذك في
 الجود ؟ ويقتصر باغك عن المجد ؟ ويسد أذنك عن أحاديث غد ؟ إن الذين تكره لهم
 ما هجوا به كانوا مثلك ، وإن الذين تحسدهم على ما مدحوا به كانوا من طيبتك ؛
 فراجم بميكك أضخمهم سناماً وزد على من كان أكبرهم كاهلاً ، وأعلامهم
 يفاعاً^(٥) ، وأسطعهم شعاعاً ، وأزهرهم ناراً ، وأكثرهم زواراً !
 فلما بهره هذا الكلام الشهي في ذلك المجلس البهي شديه وعله^(٦) ولم يذر
 ما يقول ، وأطرق هنيهة ، ثم قال :

هذا وقت يضيق عن الإطالة منك في الاستزادة^(٧) ، وعن الإطالة مني في
 المعذرة ؛ فإذا تواهنا في الحال ما قد دفعنا إليه ، استأنفنا في الثاني ما نتحامد
 عليه .

فقال الشاعر : أيها الرئيس ! هذه نفاثة صدر قد جرى منذ سنة ، وفصلة لسان قد
 قدم منذ زمان ؛ وقد تقدم العمل ، والجزاء موقوف ، والرجاء عليل ، والأمل غادر ،
 والحال بعرض سوء ، والشايت قد شمر للتأيب ، ولا صبر لمقل على مدل إلا على
 وجه يحتمل ؛ فإن رأيت قدمت المتأخر ، وقربت الشاسع ، وجعلت إجزال العطية
 في تعجيلها ، وإكرام طالبها في تسهيلها ، فلا مانع إن لم يكن ذلك من سدة جد ، أو
 تقاعس جد .

(١) النغل - الفساد في النسب .

(٢) منج قصيد : سمين ، وهم يستعيرون السمن للجودة .

(٣) الحصيد - المحكم القوى .

(٤) الفروة الجلدة ، واخضرار الفروة كناية عن الخصب وسعة العيش .

(٥) البفاع - المرتفع .

(٦) شده بهش وعلة . تيلد وتحير .

(٧) الاستزادة العتب .

فقال : يا هذا قد كررت العتب ، واجتررت الملام ، وما أستوجب هذا من أحد من خلق الله ؛ ولقد نافرت العميد بدون هذا حتى ثار من ذلك عجاج قاتم ، وانتهينا منه إلى قرى عاتم ؛ ولست ولي نعمتي فأحتملك ، ولا صنيعتي فاغضبى عليك ؛ وإن بعض ما قررت في أذنى لَمَّا يَنْقُضُ مِرَّةً^(١) الجلم ، ويبيد شمل الصبر ؛ ولست ممن يطيش لأذنى سائح ، ويتطير لأول بارح ؛ والله ما دعوتك إلى ، ولا أغريتك بي ، ولا سألتك تقريظي ، ولا أتعبتك في قصدي ؛ وإن الظلم منك ، وكذلك العتب منك ؛ وأنا على كل حال مالى ؟ فلا تجمع بين الظلم والتظلم والجنابة والتجنى ، وخذ نفسك بالنزاهة والعفاف فإنهما لا يقفانك هذا الموقف ، ولا يعرضانك على هذا المجلس ، ورزق الله متتاب وعاد ، واطلب الغنى منك فإنه عندك أكثر منه عند من تظلمه وهو لم يظلم ، وتعاقيه وهو لم يُجْرِم .

فقال الرجل : ما كررت العتب حتى أكلت النوى المحرق في انتظار صلتك ، ولا اجتررت الملام حتى خائنى صبرى فى توقع جائزتك ؛ والغنى إذا مظل ظلم ، والواجد إذا لوى أثم ، والجواد إذا منع ليم .

ولعمري ما دعوتنى إليك ، ولا أغريتنى بك بكتاب خصصتنى ورببتنى فيه ، ولا سألتنى تقريظك ، ولا أبغيتنى فى قصدك برسول أرسلته إلى ؛ ولكن لما جلست فى صدر هذا الإيوان بأبهتك وعظمتك وكبرياتك وجبروتك ؛ وقلت : لا يخاطبني أحد إلا بالرياسة .

لا فضل فى

وقد زجرت ووعظت ، وقلت وراسلت ، وكأنت وشافهت ، وعاتبته وخاطبت ، وشددت وهولت ، ورغبت وأوجعت ؛ وضربت الأمثال ، وذكر السير ، وخوفت وحذرت ، فما انتفعت ؛ وجرائمه تكثر ، وجرائره تغلظ ؛ ولا فضل فى ، ولا احتمال معى ، ولا بقية للإغضاء عندي .

وغرضى فى هذه المخاطبة ، ومغزاي من هذه الشكوى والمباينة ، أن يشهد القاضى أنى برىء منه ، قاطع له ، عادله عنه ، غير راض بقوله ولا فعله ، نازع

(١) المرة بالكسر : شدة القتل ، ومرة الحبل طلقته ، ونقضه : فسخه : والكلام على التجوز .

ما أَلْبَسْتُهُ مِنْ بُنُوتٍ ، مُطْرَحٍ لَهُ دِينٌ وَدُنْيَا ؛ لَيْسَ مِنِّي وَلَا إِلَيَّ ، قَدْ تَبَرَّأْتُ مِنْهُ وَصَرَمْتُهُ ،
وَوَكَّلْتُهُ إِلَى اخْتِيَارِهِ ، وَرَفَعْتُ عَنْهُ يَدَيَّ ، وَأَسَلَمْتُهُ إِلَى اللَّهِ لِيَأْخُذَهُ بِحَقِّي ، وَيَقْبَلَ بِهِ
دُعَائِي ، وَلَا يَحْفَظْ عَلَيْهِ مَا لَمْ يَحْفَظْهُ عَلَيَّ .

اللَّهُمَّ اسْمِعْ وَاشْهَدْ ، وَكُنْ حَسِيبَ الظَّالِمِ ، وَاحْكُمْ بَيْنِي وَبَيْنَهُ ، يَا خَيْرَ حَاكِمٍ .
وهذه شهادة لى عند القاضي يحفظها كما يحفظ إليه من حقوق عمله ، فأنى مطالبه
بها «يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ» وكفى بالله العليُّ شهيداً .

وهذه - أبقاك الله - رسالة تدلّ على قُرحة دامية ، وَعَيْنُ بَاكِية هامية ، ونفس قد
وَلَهَتْ عَمَّا خَلَّ بِهَا ؛ وَإِنْ غُلَاماً يُحَوِّجُ أَبَاهُ إِلَى مِثْلِ هَذِهِ الْبَرَاءَةِ وَالشُّكْوَى مِنْهُ
وَالْتَأَلُّمِ ، لَغُلَامٌ سَوْءٌ ، وَاللَّهُ أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يَجْبِرَهُ فِي الدُّنْيَا ، وَأَنْ يُسَعِّدَهُ فِي الْآخِرَةِ .

العالم والجاهل

لِلطَّالِبِ الْمُنْجِحِ لَذَّةُ الْإِدْرَاكِ ، وَلِلطَّالِبِ الْمَحْرُومِ لَذَّةُ الْيَأْسِ .
وَمَنْ صَجِبَ السُّلْطَانُ فَلْيَضْبِرْ عَلَى قَسْوَتِهِ كَصَبْرِ الْغَوَاصِ عَلَى مَلُوحَةِ مَاءِ الْبَحْرِ .
وَالْعَالِمُ يَعْرِفُ الْجَاهِلَ لِأَنَّهُ كَانَ مَرَّةً جَاهِلاً ، وَالْجَاهِلُ لَا يَعْرِفُ الْعَالِمَ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ
مَرَّةً عَالِماً .

وَمَنْ جَعَلَ الْحَمْدَ خَاتِماً لِلنِّعْمَةِ جَعَلَهُ اللَّهُ مِفْتَاحاً لِلْمَزِيدِ .
لَوْ تَمَيَّزَتِ الْأَشْيَاءُ لَكَانَ الْكَذِبُ مَعَ الْجُبْنِ ، وَالصُّدُقُ مَعَ الشَّجَاعَةِ ، وَالرَّاحَةُ مَعَ
الْيَأْسِ ، وَالتَّعَبُ مَعَ الطَّمَعِ ، وَالْحَرَمَانُ مَعَ الْحَرَصِ ، وَالذُّلُّ مَعَ الدِّينِ .
وَمَالُ الْعَمِيَّتِ يُغْرَى وَرِثَتُهُ عَنْهُ .

كَيْفَ تُرِيدُ مِنْ صَدِيقِكَ خُلُقاً وَاحِداً وَهُوَ ذُو أَرْبَعِ طِبَائِعٍ .
تُرْقِعُ خَرَقَ الدُّنْيَا وَيَتَسَّعُ ، وَتَشْعِبُهَا وَتَنْصَدِّعُ ، وَتَجْمَعُ مِنْهَا مَا لَا يَجْتَمِعُ .
وَكَانَ مَلِياً بِهَذَا النَّمَطِ وَيُفْرِغُ فِي قَالِبِهِ ، وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْهُ إِلَّا لَقْعَةً^(١) اللِّسَانِ ،
وَصَدَى الصَّوْتِ ، وَتَقْطِيعَ اللَّفْظِ . فَأَمَّا التَّحْلِي وَالْعَمَلُ فَكَانَ مِنْهُمَا عَلَى بُعْدٍ ؛
وَالْعَقْلُ مَتَى لَمْ يُثْمَرَ كَرَمًا فَهُوَ وَبَالٌ ، وَالْحِكْمَةُ مَتَى لَمْ تُورِثْ عَمَلاً فَهِيَ خَبَالٌ ؛
وَالْكَرَمُ مَا قَالَهُ الْأَعْرَابِيُّ حِينَ سُئِلَ عَنْهُ فَإِنَّهُ قَالَ :

(١) لَقْعٌ : رَمَى ؛ وَيُقَالُ لِلرَّجُلِ الَّذِي يَرْمِي بِالْكَلَامِ وَلَا شَيْءَ عَنْدهُ وَراءَ الْكَلَامِ . لَقْعَةٌ . وَفِي الْأَصْلِ « لَعَقَةٌ » .

أما الكرم في اللقاء فالبشاشة ، وأما في العشرة فالحشاشة ، وأما في الأخلاق فالتسامحة ، وأما في الأفعال فالنصاحة ، وأما في الغنى فالمشاركة ، وأما في الفقر فالمواساة .

قلت لأبي السلم نجبة بن علي :
أأبني عباد أحب إليك أم ابن العميد ؟

قال : ما فيهما حبيب ، علي أني برقاعة هذا أشد انتفاعاً مني بعقل ذاك ؛ هذا يغضب إذا ترفعت عن عطائه ، وقبضت يدك عن قبول برّه ، ومشيت ناكباً عن بابه وقصده ؛ وذلك كان يحقد إذا رجوته وتعرضت له ، ويغضب إذا أثنت عليه وطمعت فيه ؛ وهذا يكذب متماجناً ، وذلك يصدق مع الدمائه ويغيط ؛ وهذا يفعل الخير وإن قاله وأفشأ وبجج به وسحب ذيله عليه .

الأهوج

وحديث ابن عباد أثن من الصنان ، وأثقل من الصدام^(١) ، وأبغض من القضض في الطعام^(٢) ، وأوحش من أضغاث الأحلام . يتشاحى^(٣) كأنه صبي مترعرع ، يظن أن الأرض لم تفل غيره ، وأن السماء لم تظل سواه ، أما سمعته يشتم في هذه الأيام إنساناً فقال :

لعن الله هذا الأهوج الأعوج الأفج الحفلج^(٤) ، الذي إذا قفام لجلج^(٥) وإذا مشى تفجج^(٦) ، وإن تكلم تلجلج ، وإن تنعم تمجمج^(٧) ، وإن مشى تدحرج ، وإن عدا تفجفج^(٨) .

(١) الصدام : ثقل ياخذ الإنسان في رأسه .

(٢) القضض : الحصى والقراب يقع في الطعام . ثم بين اضرار الأكل .

(٣) يتشاحى : يفتح فاه .

(٤) الأفجج : المعوج الرجلين ، والحفلج كذلك : وفي الأصل : الحفلج ، بالخاء المعجمة .

(٥) لجلج : تردد .

(٦) تفجج : تفرقت رجلاه وساقاه عند المشي .

(٧) تمجمج : استرخى وترهل .

(٨) تفجفج : باعد بين رجليه عند المشي .

قال : فهل سمعت بكلام أنبي عن القلب وأسمج من هذا ؟ نعوذ بالله من العُجمة المخلوطة بالتعريب ، ومن العربية المخلوطة بالتعجيم .
ولو أن هذا النقص لم يَدُلْ إِلَّا على اللَّفْظ الذي معدنه اللسان لكان العُذر أقرب ، لكنه كاشفٌ لِعَوْرَةِ العقل ، هاتك لستَ المعرفة ، ومن استدرجه الله إلى هذه الحال فقد خذله وإن ظن أنه منصور ، وأفقره وإن حبيب أنه مُشِر .
وسمعت يقول لِكاتبٍ بين يديه ، وقد كتب : « من إسماعيل بن عباد » ، وكانت العين من إسماعيل قد تطلست ، ولم يكن لها بياض المشقين تتعجرف للكتاب والقلم .

فقال : يا هذا : عيني هكذا ينبغي أن تُكتب بالله ؟ أنت أعمى ؟ أما ترى عيني ؟
انظر إليها حسناً ! أهي محلوسة ، أهي مملوسة ، أهي مطلوسة ، أهي ممروسة ؟
أهي ممسوحة ، أهي متزوحة ، أهي مسطوحة ؟ وما كاد يَسْكُت .
وهل هذا إلا رقاعةٌ وجهلٌ وكلام رُعاء المعلمين والمختئين ؟
وقال يوماً :

ها هنا أشياء لا حقيقة لها .

منها : إمام الرافضة ، والاستطاعة مع الفعل ، وفيما كفى فيه كذا وكذا ، وفيما تكلف من تقديم أهل العلم واختصاص أرباب الأدب كذا وكذا ، ووصل أبا سعيد الشيرازي بكذا وكذا ، وهب لأبي سليمان المنطقي كذا وكذا ، فيزوي وجهه ويتكره حديثه ، وينجذب إلى شيء آخر ليس مما شرع فيه ، ولا مما حُرِّك له . ثم يقول : أعلم أنك إنما انتجعت من العراق ، فاقراً على رسالتك التي توسلت إليه بها ، وأسهبتم مرقظاً له فيها ، فأتمانع فيأمر ويشدد ، فأقرؤها فيتقيد ويذهل .
وأنا أكتبها لك ها هنا لتكون زيادةً في الفائدة .

بسم الله الرحمن الرحيم . اللهم هنيء لى من أمرى رشداً ، ووفقنى لمرضاتك أبداً ، ولا تجعل الحرمان على رصداً .

أقول وخيرُ القول ما انعقد بالصواب ، وخيرُ الصواب ما تضمن الصدق ، وخيرُ الصدق ما جلب النفع ، وخيرُ النفع ما تعلق بالمزيد ، وخيرُ المزيد ما بدأ عن شكر ، وخيرُ الشكر ما بدأ عن إخلاص ، وخيرُ الإخلاص ما نشأ عن إيقان ، وخيرُ الإيقان ما صدر عن توفيق .

لما رأيت شبابي هَرَمًا بالفقر ، وفَقْرَى غِنًى بالقناعة ، وقناعتي عجزاً عند
التحصيل ، عدلتُ إلى الزَّمان أطلب إليه مكاني فيه ، وموضعي منه ، يريبي طرفه
عني نابياً ، وعنائه عن رضاي مثنياً ، وجانيه في مرادي خشيئاً ، وإنفاقي في أسبابه
سئلاً ، والشامت بي على الحدثان متمادياً ؛ طمعت في السكوت تجلداً ، وانتحلت
القناعة رياضة ، وتألّفت شاردة حرصى متوقفاً ، وطويت منشورَ أمرى متترها ،
وجمعتُ شتيت رجائي مالياً ، وأدرعت الصبر مُستمرّاً ، وليست العفاف محموداً ،
واتخذت الانقباضَ صناعةً ، وقمت بالعلاء مجتهداً .

هذا بعد أن تصفحت الناس فوجدتهم أحد رجلين : رجلاً إن نطق نطق عن غيظ
ودمئة ، وإن سكت سكت على ضغن وإحقة . ورجلاً إن بذل كثر بامتثاله بذله ،
وإن منع حصّن باحتياله بخله ؛ فلم يطلَ دهرى في أثائه متبرماً بطول الغربة وشطّف
العيش ، وكَلَبَ الزمان وعَجَف^(١) المال ، وجفاء الأهل وسوء الحال ، وعادية العدو
وكسوف البال ؛ متحرّفاً^(٢) من الحق على لئيم لا أجد مُنصرفاً عنه ، متقطعاً من
الشوق إلى كريم لا أجد سبيلاً إليه - حتى لاحت لي غرة الأستاذ فقلت : حل بي
الويل ، وسال بي السَّيل !

(١) العجف : الهزال وذهاب السمن .

(٢) متحرّفاً : ملتجئاً من الحق -

الامتناع والمؤانسة

أربعون ليلة زمن هذا الكتاب ،
في كل ليلة تطرح مسائل فلسفية ،
وأدبية ، وعلمية ، وفنية ، ولغوية ،
الوزير ابن سعدان يسأل والتوحيدى
يجيب ، اخترنا المقدمة ، وما عبر
عن ذات التوحيدى ، خاصة
الرسالتين اللتين ختم بهما الكتاب ،
الأولى للوزير ، والثانية لأبى الوفاء
المهندس ، وفى كلتيهما يشكو
معاناته الرهيبة ، ويطلب العون ..
اعتمدنا على الطبعة الصادرة فى
القاهرة عن لجنة التأليف والترجمة
والنشر بتحقيق المرحوم أحمد أمين
والمرحوم أحمد الزين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال أبو حَيَّان التَّوْحِيدِيُّ : نَجَا مِنْ آفَاتِ الدُّنْيَا مَنْ كَانَ مِنَ الْعَارِفِينَ وَوَصَلَ إِلَى خَيْرَاتِ الْآخِرَةِ مَنْ كَانَ مِنَ الزَّاهِدِينَ ، وَظَفِرَ بِالْفُوزِ وَالنَّعِيمِ مَنْ قَطَعَ طَمَعَهُ مِنَ الْخَلْقِ أَجْمَعِينَ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى نَبِيِّهِ وَعَلَى آلِهِ الطَّاهِرِينَ .

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنِّي أَقُولُ مِنْبَهًا لِنَفْسِي ، وَلِمَنْ كَانَ مِنْ أَبْنَاءِ جَنْسِي : مَنْ لَمْ يُطِغْ نَاصِحَهُ بِقَبُولِ مَا يَسْمَعُ مِنْهُ ، وَلَمْ يُمَلِّكْ صَدِيقَهُ كُلَّهُ (١) فِيمَا يَمَثُلُهُ لَهُ ، وَلَمْ يَنْقُدْ لِيَبَانِهِ فِيمَا يُرِيغُهُ إِلَيْهِ وَيُطْلِعُهُ عَلَيْهِ ؛ وَلَمْ يَرَ أَنَّ عَقْلَ الْعَالِمِ الرَّشِيدِ ، فَوْقَ عَقْلِ الْمُتَعَلِّمِ الْبَلِيدِ ؛ وَأَنَّ رَأْيَ الْمَجْرَّبِ الْبَصِيرِ ، مُقَدَّمٌ عَلَى رَأْيِ الْغَمْرِ (٢) الْغَرِيرِ فَقَدْ خَسِرَ حَظَّهُ فِي الْعَاجِلِ ، وَلَعَلَّهُ أَيْضًا يَخْسِرُ حَظَّهُ فِي الْآجِلِ ؛ فَإِنَّ مَصَالِحَ الدُّنْيَا مَعْقُودَةٌ بِمَرَاشِدِ الْآخِرَةِ ، وَكَلَيَاتِ الْجِسِّ فِي هَذَا الْعَالَمِ ، فِي مُقَابَلَةِ مَوْجُودَاتِ الْعَقْلِ فِي ذَلِكَ الْعَالَمِ ؛ وَظَاهِرُهُ مَا يُرَى بِالْعِيَانِ مُقْفَضٌ إِلَى بَاطِنٍ مَا يَصْلُقُ عَنْهُ الْخَبَرُ ؛ وَبِالْجُمْلَةِ ، الدَّارَانِ مُتَفَتَتَانِ فِي الْخَيْرِ الْمَغْتَبَطِ بِهِ ، وَالشَّرِّ الْمُنْدُومِ عَلَيْهِ ؛ وَإِنَّمَا يَخْتَلِفَانِ بِالْعَمَلِ الْمُتَقَدِّمِ فِي إِحْدَاهُمَا ، وَالْجُزْءِ الْمَتَأَخِّرِ فِي الْآخَرَى ؛ وَأَنَا أَعُوذُ بِاللَّهِ الْمَلِكِ الْحَقِّ الْجَبَّارِ الْعَزِيزِ الْكَرِيمِ الْمَاجِدِ أَنْ أَجْهَلَ حَظِّي ، وَأَعْمَى عَنْ رُشْدِي ، وَأَلْفَيَ بِيَدِي إِلَى التَّهْلُكَةِ ، وَأَتَجَانَفَ (٣) إِلَى مَا يَسُوءُنِي أَوَّلًا وَلَا يَسْرُنِي آخِرًا ؛ هَذَا وَأَنَا فِي ذَيْلِ الْكُهُولَةِ وَبَادِئَةِ الشَّيْخُوخَةِ ، وَفِي حَالٍ مَنْ إِنَّ لَمْ تَهْدِهِ التَّجَارِبُ فِيمَا سَلَفَ مِنْ أَيَّامِهِ ، فِي حَالِي سَفَرِهِ وَمُقَامِهِ ؛ وَفَقْرِهِ وَغِنَايِهِ ، وَشِدَّتِهِ وَرَخَايَتِهِ ، وَسَرَائِهِ وَضُرَائِهِ ، وَخِيفَتِهِ وَرَجَائِهِ ؛ فَقَدْ انْقَطَعَ الطَّمَعُ مِنْ فَلَاحِهِ وَوَقَعَ الْيَأْسُ مِنْ تَذَارُكِهِ وَاسْتَصْلَاحِهِ ؛ فَإِلَى اللَّهِ أَفْرَغُ مِنْ كُلِّ رَيْثٍ وَعَجَلٌ وَعَلَيْهِ أَتَوَكَّلُ فِي كُلِّ سَوْءٍ وَأُمَلِّ ، وَإِيَّاهُ أَسْتَعِينُ فِي كُلِّ قَوْلٍ وَعَمَلٍ .

قَدْ فَهَمْتُ أَيُّهَا الشَّيْخُ (٤) - حَفِظَ اللَّهُ رُوحَكَ ، وَوَكَّلَ السَّلَامَةَ بِكَ ، وَأَفْرَغَ الْكَرَامَةَ عَلَيْكَ ، وَعَصَبَ كُلَّ خَيْرٍ بِحَالِكَ ، وَحَشَّدَ كُلَّ نِعْمَةٍ فِي رَجَائِكَ وَرَجِمَ هَذِهِ الْجَمَاعَةَ

(١) كله : مفعول له يملك . يريد بهذه العبارة تمام الطاعة لصديقه حتى كان صديقه مالك له كله يتصرف فيه كيف يشاء .

(٢) الغمر بفتح والضم : من لم يجرب الأمور : والجاهل الأبله .

(٣) واتجانف ، وهو تحريف . والتجانف إلى الشيء : الميل إليه .

(٤) يريد بالشيخ أبا الوفاء المهندس ، وهو الذي وصل أبا حيان بالوزير أبي عبد الله العارض كما يفهم مما يأتي .

الهائلة - من أبناء الرجاء والأمل - بعنايتك ، ولا قطعك من عادة الإحسان إليهم ، ولائني طرقتك عن الرقة لهم ، ولا زهدك في اصطناع حالهم وعاطلهم ، ولا رغب بك عن قبول حقهم لبعض باطلهم ، ولا ثقل عليك إدناء قريبهم وبعيدهم ، وإتالة مستحقهم وغير مستحقهم أكثر مما في نفوسهم وأقصى ما تقدر عليه من مواساتهم ، من بشر تبديه ، وجاه تبدله ، ووعده تقدمه ، وضمان تؤكده ، وهشاشة تمزجها بيشاشة ، وتبسم تخلطه بفكاهة فإن هذه كلها زكاة المروءة ، ورباط النعمة ، وشهادة بالمحبة^(١) الزكي والعرق الطيب والمنشأ المحمود ، والعادة المرضية ؛ وهي مؤذنة بأن المنحة راهنة^(٢) ، والموهبة قاطنة ، والشكر مكسوب ، والأجر مذخور ، ورضوان الله واقع ؛ وأسأل الله بعد هذا كله ألا يسهم^(٣) وجهي عندك ، ولا يزل قدمي في خدمتك ، ولا يزيغني^(٤) إلى ما يقطع مادة إحسانك وعائدة رأيك ونافع^(٥) نيتك وجميل معتقدك ، بمنته ولطفه .

فهمت جميع ما قلته لي بالأمس فهما بليغا ، ووعيته وعيا تاما ؛ وبان لي الرشد في جمليته وتفصيله ، والصالح في طرفيه ووسطه ، والغنيمة في ظاهره وباطنه ، والشفقة من أوله إلى آخره . وأنا أعيده ههنا بالقلم ، وأرسمه بالخط وأقيده باللفظ ، حتى يكون اعترافي به أرسى وأثبت ، وشهادتي على نفسي أقوى وأؤكد ، ونكولي عنه أبعد وأصعب ، وحكمك به لي وعلى أمضى وأنفذ .

قلت لي - أدام الله تعالى توفيقك في كل قول وفعل ، وفي كل رأي ونظر - : إنك تعلم يا أبا حيان أنك أنكفأت من الرأي^(٦) إلى بغداد في آخر سنة سبعين^(٧) بعد

(١) بالمجد .

(٢) راهنة : دائمة .

(٣) السهم : تغير الوجه وعبوسه من الهم ؛ وكنى به عن تغير الحال .

(٤) يزيغني : يميلني .

(٥) ونافع .

(٦) الرأي : مدينة فارسية قديمة كانت القبة بلاد الجبال ، وكان اسمها الفارسي راغة ومنه أخذ اسمها العربي ، وهي الآن اطلال على مسافة خمسة كيلومترات من طهران .

(٧) أي وثلاثمائة .

فوت مأمورك من ذي الكفایتین^(١) - نصر الله وجهه - عابسا على ابن عباد^(٢) مغيظا منه ، مقروح الكبد ، لما نالك به من الجرمان المر ، والصد^(٣) القبيح ، واللقاء الكريه ، والجفاء الفاحش ، والقذع^(٤) المؤلم والمعاملة السيئة ، والتغافل عن الثواب على الخدمة ، وحس الأجرة على النسخ والوراقة ، والتجهم المتوالى عند كل لحظة ولقطة .

وذكرت في الجملة شقاء اتصال بك في سترك ذلك ، وعناء نال منك في عرض^(٥) أحوالك ؛ ولعمري إن السفر فعول لهذا كله ولاكثر منه ؛ فأرعيتك بصرى ، وأعرتك سمعى ، وساهمتك في جميع ما وقرته في أذنى بالجزع والتوجع والاستقطاع^(٦) والتفجع ؛ (٨) جئت لك تلافى ذلك كله بحاق^(٧) الشفقة وخالص الضمير ، ووعدتك صلاح الحال عن ثبات النية ، وصحة العقيدة ، وقلت : أنا أرى حقك القديم حين التقينا (بأرجان^(٨)) ، وأنا على باب (ابن شاهويه^(٩)) الفقيه ، وعهدك الحديث حين اجتمعنا بمدينة السلام سنة ثمان وخمسين ؛ وأوصلك إلى الأستاذ أبى عبدالله العارض^(١٠) - أدام الله تأييده - وأخطب لك قبولاً منه ، وتخفيف الإذن عليك ، وامتناء

(١) ذو الكفایتین : لقب لأبى الفتح على بن أبى الفضل محمد المعروف بابن العميد . ويعنون بالكفایتین كفاية السيف وكفاية القلم ، وقد قام مقام أبيه ابن العميد ، واستوزر لركن الدولة البويهى ، ثم لما تولى عضد الدولة نكبه وقتله سنة ٣٦٦هـ .

(٢) ابن عباد ، هو صاحب لبو القاسم إسماعيل بن أبى الحسن عباد ، ولد سنة ست وعشرين وثلاثمائة ، وتولى سنة خمس وثمانين وثلاثمائة بالرى . وكان وزيراً لمؤيد الدولة أبى منصور بويه النيملى . ثم وزر لأخيه فخر الدولة أبى الحسن على . وهو أول من لقب بالصاحب من الوزراء ، لأنه صاحب مؤيد الدولة بن بويه منذ الصبا .

(٣) ، والقصد ، .

(٤) القذع بالمهمله : المنع والجزع . وبالألف المعجمة : الشتم . والمعنى يستقيم على كلا الوجهين .

(٥) « فى عرض أحوالك » أى فى أكثرها . وعرض الشيء أكثره ومعظمه .

(٦) « والاستقطاع » .

(٧) حلق الشفقة : أى صلاحها وكاملها .

(٨) أرجلن : مدينة بين فارس وخوزستان ، وهى من كور الأهواز . وتعرف الآن باسم « بايهان » .

(٩) ابن شاهويه هو أبو بكر محمد بن أحمد بن على بن شاهويه الفارسى الفقيه الشافعى تولى القضاء ببلاذ فارس ، وتوفى سنة ثنتين وستين وثلاثمائة ببغداد .

(١٠) أبو عبدالله العارض - هو - فى رأينا - أبو عبدالله الحسين بن أحمد بن سعدان كان وزيراً لصمصام الدولة بن عضد الدولة من سنة ٣٧٢ إلى سنة ٣٧٥ والعارض لقب له وهو كما فى الانساب للسمعانى « من يعرف العسكر ويحفظ أرباقهم ويوصلها إليهم ، ويعرض العسكر على الملك إذا احتجج إلى ذلك ، والظاهر أنه لقب بهذا إما لأنه تولى هذا العمل قبل أن يتولى الوزارة ، أو كان هذا لقباً لأسرته .

الطَّرْف بك ، وَنَبَلَ المحظورة بخدمتك وملازمتك ؛ وفعلت ذلك كله حتى استكتبك (كتاب الحيوان) لأبي عثمان الجاحظ ، لعنايتك به ، وتوفُّرك على تصحيحه ، ثم حَضَنْتُ^(١) لك هذه الحال إلى يومنا هذا ؛ وهو الوزير العظيم الذي افتقرت الدولة إلى نظره وأمره ونهيه ، وإلى أن يكون هو المُبْرَمَ والنَّاقِض ، والرافِعَ والواضع ، والكافِىَ والوافِىَ والمَقْرَبَ لخدمتها ونصائحها ، والمزحزَحَ لحسدتها وأعدائها ؛ والراعىَ لرعيِّتها ودَهْمائِها ، والناهضَ بأثقالِها وأعبائها ، أعانه الله على ما تولاه ، وكفاه المهمَّ فى دنياه وأخراه ، بمنه وقدرته .

نعم ورَبَّيتَ ذلك كله ، وَلَمْ أَقْطَعْ عَنْكَ عَادَتِي مَعَكَ فى الأَسْرَسَالِ والأنبساط ، والبرِّ والمواساة ، والمساعدة والمواتاة^(٢) ، والتعصَّبَ والمحاماة .

أفكان من حَقِّى عليك فى هذه الأسباب التى ذكرتها ، وفى أخواتها التى تركتها كراهة الإطالة بها أَنَّكَ تَخْلُو بالوزير - أدام الله أيامه - ليالىَ متتابعةً ومختلفة ، فتحدِّثُهُ بما تحبُّ وتريد ، وتُلْقِى إليه ما تشاء وتختار ، وتكتبُ إليه الرُّقعةَ بعد الرُّقعة ؛ ولعلَّكَ فى عُرْضِ ذلك تعدو طَوْرَكَ بالتشَلُّقِ^(٣) وتجوْرُ حَذَّكَ بالاستحقار ، وتتطاوَلُ إلى ما ليس لك ، وتغلطُ فى نفسك ، وتَنسَى زَلَّةَ العالم ، وسَقَطَةَ المتحرِّى ، وخَجَلَةَ الوائِقِ ؛ هذا وأنتِ غَرٌّ لا هيئةَ لك فى لقاء الكُبراء ، ومحاورة الوزراء ؛ وهذه حالٌ تحتاج فيها إلى عادةٍ غيرِ عادتك ، وإلى مِرَانٍ سوى مِرَانِكَ ، وَلَيْسَ لا تشبه لَيْسَتَكَ ؛ وَقَلَّ مَنْ قُرَّبَ مِنْ وَزِيرٍ خَدَمَ فَأَجَادَ ، وتكلَّمُ فأفادَ ، وبُيِّطَ فزادَ ؛ إِلَّا سَكِرَ ، وَقَلَّ مَنْ سَكِرَ إِلَّا عَثَرَ وَقَلَّ مَنْ عَثَرَ فَاتَّعَشَ ، وما زَهِدَ فى هذه الحال كثيرٌ من الحكماء الأولين والعُباد الربانيين ؛ إِلَّا لَغَلْظَها وصعوبتها ، ومكروها عاقبتها ، وشدة الصبر على فوارضها وروائبها^(٤) ، وتَفْسُخِ^(٥) المتن بين حوادثها ونوائبها .

والعَجَبُ أَنَّكَ مع هذه الخِلَّةِ^(٦) تظنُّ أَنَّها مطوَّيَّةٌ عَنِّى وخافيةٌ دونى ، وَأَنَّكَ قد

(١) حَضَنْتَ لك هذه الحال ، أى كَلَّمْتَهَا لك وحفظتها عليك .

(٢) المواتاة : الموافقة .

(٣) التشَلُّقُ ، هو التوسع فى الكلام من غير احتياط واحترار . وهو أيضا استهزاء الرجل بقلنس يلوى شدته بهم وعليهم .

(٤) «روائبها» .

(٥) التفسخ : الضعف والعجز عن النهوض ، والمتن : الظهور .

(٦) «الخِلَّة» ، والخِلَّةُ بالكسر : الثلثة . يريد ما فيه من العيوب والنقائص .

بلغت الغاية وادع القلب ، وملكك المكانة ثانی العنان ؛ وقد انقطعت حاجتك عنى
وعمن هودونى ، ووقع الغنى عن جاهى وكلامى ولطفى وتوصيلى ؛ وجهلت أن من
قدّر على وُصولك ، يقدر على فصولك^(١) ، وأن عن صعيد بك حين أراد ، ينزل بك
إذا شاء ، وأن من يُحسّن فلا يُشكر ، يجتهد فى الاقتصاد حتى يُعذر .

وبعد ، فما أطيل ، ولعلّ لهب المَوْجدة يزداد ، ولسان الغيظ يغلو ، وطباع
الإنسان تحتد ، والندم على ما أسلفت من الجميل يتضاعف ؛ ولست أنت أول من
يُرفَعُ ، ولا أنا أول من جُفِيَ فنق^(٢) . وهذا فراق بينى وبينك وآخر كلامى معك ،
وفاتحة يأسى منك ؛ قد غسلت يدى من عهدك بالأشنان^(٣) البارقي ، وسلوت عن
قربك بقلب معرض وعزم حى ؛ إلا أن تُطبعنى طلع^(٤) جميع ما تحاورتما وتجادبتما
هُدب الحديث عليه ، وتصرفتما فى هزله وجده ، وخيره وشره ، وطيبه وخبيثه ،
وباديه ومكتوبه ؛ حتى كأنى كنتُ شاهدا معكما ورقبيا عليكما ، أو متوسطا بينكما ،
ومنى لم تفعل هذا ، فانتظر عُقبى استيحاشى منك ، وتوقع قلّة غفولى عنك ، وكأنى
بك وقد أصبحت حَرّان حيران يا أياحيان ، تأكل أصبعك أسفا ، وتزدرد ريقك لهفا ،
على ما فاتك من الحوطة لنفسك ، والنظر فى يومك لغدك ، والأخذ بالوثيقة فى
أمرك ، أنظن بغرارتك^(٥) وعمارتك^(٦) ، وذهابك فى فُسولتك^(٧) التى اكتسبتها
بمخالطة الصوفية والغرباء والمجتدين الأدنياء الأردياء ؛ أنك تقدر على مثل هذه
الحال ، وأنام مفك على حسن الظن بك ، والثقة بصدرك ووردك ، وأطمئن إلى
حكك وجردك وأتعامى عن حرّك وبردك ؛ هيهات ؛ رقدت فحلّمت ، فخيرأ رأيت
وخيرا يكون .

على هذا الحدّ كان مقطع كلامك فى موجدتك ، وإلى ههنا بلغ قيض عتبك

(١) فصولك . أى خروجك من عند الوزير . يقال : فصل القوم من البلد فصولا . إذا خرجوا منها .

(٢) نق . من النقيق ، وهو فى الأصل صياح الضفدع ؛ والمراد هنا التحدث بما اسداه من النعم وما يلقاه من
الكفران

(٣) الأشنان . غسول كانت تغسل به الشياى والأيدي ؛ وهو نبات لا ورق له ، وله أغصان دقاق فيها ما يشبه
العقد . وهى رخصة كثيرة المياه .

(٤) يقال . اطلعت طلع امرئ . بكسر الطاء . أى اثلثه سرى .

(٥) الغرارة : الغفلة .

(٦) الغفلة : الجهل والبلاهة .

(٧) الفسولة . الضعف والخسة وقلة المروءة .

ولا ثمتك ؛ وفي دون ذلك تنبيه للنائم ، وإيقاظٌ للساهي ، وتقويمٌ لمن يقبل التقويم ؛ وقد قال الأول :

ألا إنما^(١) يكفى الفتى عند زَيْغِهِ من الأود^(٢) البادى بثقاف المقوم
فقلت لك : أنا سامع مطيع ، وخادمٌ شكور ، لا أشتري سخطك بكل صفراء^(٣)
وبيضاء فى الدنيا ؛ ولا أنفر من التزام^(٤) الذنب والاعتراف بالتقصير ؛ ومثلى يهفو
ويَجْمَح ، ومثلك يعفو ويصفح ؛ وأنت مولى وأنا عبد ، وأنت أمر وأنا مؤتمر ، وأنت
ممثّل وأنا ممثّل ، وأنت مصطنع وأنا صنيعٌ ، وأنت منشئ وأنا مُنشأ ، وأنت أول
وأنا آخر ، وأنت مأمول وأنا آمِل ، ومتى لم تغفر لى الذنب البكر ، والجناية
العذراء ، والباردة النادرة ؛ فقد أَعْنَتْنى على ما كان منى ، وَذَلَّلْتَ على مَالِكَ لى ؛
وأنت كنت مترصداً لهذه الهفوة ومعتقداً فى مقابلتها هذه الجفوة ؛ وكرمك يابى عليك
هذا ، ومثولى بين يديك خدمة لك يحظره عليك .

هذا وأنا أفعل ما طالبتنى به من سرِّ جميع ذلك ، إلا أن الخوض فيه على البديهة
فى هذه الساعة يُشَقُّ ويصعب بعقب ما جرى من التفاوض ، فإن أذنت جمعته كله فى
رسالة تشتمل على الدقيق والجليل ، والحلو والمر ، والطرى والعاسى^(٥) ،
والمحجوب والمكروه ؛ فكان من جوابك لى : افعل . ونعم ما قلت وهو أحبُّ إلى
وأقربُ إلى إرادتى ، وأحضرُ لما أريغ^(٦) منه ، وأدخل فى الحجة عليك ولك ؛
وأغسل للوسخ الذى بينى وبينك ، وأزهر للسراج الذى طفىء عنى وعنك ، ويجذب
لعنان الحجة إن كانت لك ، وأنطق عن العذر إن أتضح بقولك ؛ وإذا عزممت فتوكل
على الله ؛ وليكن الحديث على تباعد أطرافه ، واختلاف فنونه مشروحا ، والإسناد
عالياً متصلاً ، والمتن تاماً بينا ، واللفظ خفيفاً لطيفاً ، والتصريح غالباً^(٧)

(١) « إيما ، بالياء .

(٢) الأود : العوج . والثقاف : ما تسوى به الرماح .

(٣) يريد بالصفراء الذهب ، وبالبيضاء الفضة .

(٤) « اكرام .

(٥) العاسى : الياص .

(٦) أريغ : اطلب وأريد .

(٧) « عالياً .

متصدراً^(١) ، والتعريض قليلا يسيرا وتَوَخَّ الحقُّ في تضاعيفه وأثناؤه ، والصدق في إيضاحه وإثباته ؛ وأتق الحذف المُخِلَّ بالمعنى ، والإلحاق المُنْتَصِلُ بالهذر ، وأحذر تزيينه بما يشينه ، وتكثيره بما يقلله ، وتقليله عما لا يُستغنى عنه ؛ وأعمد إلى الحُسن فزد في حُسنه ، وإلى القبيح فأنقص من قبحه ؛ وأقصِد إمتاعى بِجُمعة^(٢) نظمه ونثره ، وإفادتى من أوله إلى آخره ؛ فَعَلْ هذه المِثاقفة^(٣) تَبَقَى وتُرَوَّى ، ويكون في ذلك حُسْنُ الذكري ؛ ولا تُؤمىء إلى ما يكون الإفصاحُ عنه أحلى في السمع ، وأعذب في النفس ، وأعلق بالأدب ؛ ولا تُفصِح عما تكون الكناية عنه أستر للعيب ، وأنقى للريب ؛ فإن الكلام صُلِفَ ثِياء لا يستجيب لكلِّ إنسان ، ولا يصحب كلَّ لسان ؛ وخطئه كثير ، ومتعاطيه مغرور ، وله أَرْنُ^(٤) كَارِنُ المُهِرِ وإياءُ كِلباءِ الحُرُون ، وزهو كزهو المَلِك ، ونَحْفَقُ كَنَحْفَقِ البرق ؛ وهو يَتَسَهَّلُ مرةً ويتعسر مرارا ، ويَذِلُّ طورا ويعزُّ أطوارا ؛ ومادته من العقل [والعقلُ] سَرِيعُ الحَوُولِ^(٥) خَفِىُّ الخداع ؛ وطريقه على الوهم ، والوهم شديد السَّيْلان ومجرأ على اللسان ، واللسان كثير الطغيان ؛ وهو مركب من اللفظ اللغوى والصَّوْغُ^(٦) الطَّبَاعِى ، والتأليف الصَّنَاعِى ، والاستعمال الاصطلاحى ، ومُستَمْلأ من الحجا ، وقَرْيَةُ^(٧) بالتمييز ؛ ونَسْجُهُ بالرقّة ، والحجا في غاية النشاط^(٨) وبهذا البؤن يقع التباين ويتسع التأويل ، ويجول الذهن ، وتَمَطَّى^(٩) الدعوى ، ويُفَزَعُ إلى البرهان ، ويُرَأَى من الشبهة ، ويُعَثَرُ بما أشبه الحجة وليس بحجة ؛ فأحذر هذا النعت وروادقه ، واتق هذا الحُكْمَ وقَوَائِفُه^(١٠) ؛ ولا تعشق اللفظ دون المعنى ولا تهو المعنى دون اللفظ ؛ وكن من أصحاب البلاغة والإنشاء في جانب ، فإن صناعتهم يُفْتَقَرُ فيها أشياء يؤاخذ بها غيرهم ، ولست منهم ، فلا تتشبه

(١) « متصدرا » .

(٢) « الجمعة المجموعة » .

(٣) يريد بالمثلثة المطابقة في العلم والأدب ومذاكرتهما .

(٤) « الأرن بالتحريك : النشاط » .

(٥) « الحؤول : التحول » .

(٦) « والصرع » .

(٧) « دريه ، أى دريانه وعلمه » .

(٨) « الظاهر أن هذا كلاما سقط من النسخ » .

(٩) « تمطى : تتطاول » .

(١٠) « قوائفه » . أى توابعه . يقال . قال اثره إذا تبعه .

بهم ، ولا تجر على مثالهم ، ولا تنسج على منوالهم ، ولا تدخل في غمارهم .
ولا تكثر بياضك سوادهم ، ولا تقابل بفكاهتك براعتهم ، ولا تجذب بيدك
رشاءهم ، ولا تحاول بياحك مطاوتهم^(١) ، وأعرف قدرك تسلم ، وألزم حدك تأمن ؛
فليس الكؤودن^(٢) من العتيق في شيء ، ولا الفقير من الغنى على شيء ؛ أما سمعت
قول الناس : ليس الشامى للعراقي^(٣) بصاحب ، ولا الكردي من الجندی بساخر ،
فإن طال^(٤) فلا تُبل ، وإن تشعب فلا تكثرث ، فإن الإشباع في الرواية أشقى
للغليل ، والشرح^(٥) للحال أبلغ إلى الغاية ، وأظفر بالمراد ، وأجرى على العادة .
فكتبت : (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) ، أقول أيها الشيخ - عطف الله قلبك على ،
وألهمك الإحسان إلى - في جواب جميع ما قلته واجداً على وعاباً ، وفابضاً ،
وباسطاً ، ومرشداً ، وناصحاً ؛ ما يُعرف الحق فيه ، ويستبين الصواب منه ، غير
خائن لك ، ولا جانح إلى مخالفتك ، ولا مُريغ^(٦) للباطل معك ، ولا جاحد
لأياديك القديمة والحديثة ، ولا منكِر لنعمتك الكافية الشافية ، ولا غاط^(٧) على
فواضلك المجتمعة والمتفرقة ، ولا تارك لشيء هو على من أجل شيء هو لى ،
ولا معرض عن شيء هو لى بسبب شيء هو على ؛ بل أجهز دقه وجله إليك حتى تراه
بسده^(٨) وغباره ، وأجلوه عليك حتى تلحظه بردائه وإزاره . كأنى لم أسمع قول
الأول :

« والكفر^(٩) مخبئة لنفس المنيع » « والشكر مبعثه لنفس المفضل »
أنا أدعك واجداً على ، وأرقد وأنت ما قيت لى ، وأجد جساً نعمة أنت وهبتها
إلى ، وألذ عيشاً أنت أدقنتى حلاوته . أأنسى أياديك وهى طوق رقبتي ، وتُجاه

(١) . مطاوتهم . .

(٢) التكوند : الفرس الهجين والبرنون . والعتيق من الأفراس . الكريم الرائع منها .

(٣) يشير بهذه الجملة إلى ما وقع بين الشام والعراق من العداوة أيام على ومعلوية وما تبع ذلك .

(٤) طال ، أى الكلام .

(٥) والشرح . .

(٦) المريغ : المريد .

(٧) غطى على الشيء يتخفيف الطاء : كغطى عليه بتشديدها .

(٨) السد : الصحيح من الكلام وكفى بالغبار عما يثور حول الكلام من اعتراض ونحوه ، ومنه قولهم . . كلام لا غبار عليه . .

(٩) هذا الشطر عجز بيت لعنطرة العيسى وصدره :

نبئت عمراً غير شاكر نعمتى

عيني ، وحشؤ نفسي ، وراحةٌ جِلْمِي ، وزادُ حياتي ، ومادةٌ رَوْحِي ؟ هيهات ، هذا بعيد من القياس ، وغيرُ معهود بين أحرار الناس ؛ الذين لهم اهتمام بصون أغراضهم ، وحرثٌ على إكرام أنفسهم ؛ قد عَبَقُوا^(١) بفوائح الفتوة ، وَعَلِقُوا بحبائل المروءة ، وشَدُّوا^(٢) من الحكمة أشرف الأبواب ؛ واعتَزَّوا من الأدب إلى أعز حَرَمٍ^(٣) ؛ وحازوا شرفاً بعد شرف ، وانحازوا عن نَظْفٍ بعد نَظْفٍ^(٤) ونظروا إلى الدنيا بعين بصيرة ، وعَزَّفُوا^(٥) أنفسهم عن زهراتها بتجربة صادقة .

فأول ما أبدؤك به أننى ظننتُ ظناً لا كيقين أن شيئاً مما كنتُ فيه مع الوزير - أدام الله أيامه ، وقَصَمَ أعداءه - ليس مما يهملك ، ولا هو مما يَقْرَعُ سمعَكَ سماعَكَ له ؛ وحسبتُ أيضاً أننى إن بدأتُ بشيءٍ منه رَدَلْتَنِي عليه وتنقصتنى به ، وَزَرَيْتَ على فيه ؛ وأنتَ ربما قلت : لم بدأتُ بما لم أسئلك عنه ولم أرخص لك فيه ، هَلَّا كظمتُ على جَرَّتِكَ^(٦) ، وطويتُ ما بين جنبيك وما على مما يدور بين الصاحب وخادمه والرؤساء ، والناظرين فى أمور الدهماء^(٧) والمتصفحين لأحوال العامة والخاصة ، ولهم أسرار وغيوبٌ لا يقف عليها أقرب الناس إليهم ، وأعزُّ الناس عليهم ، وأنتَ أيضاً فلم تسألنى عنه ، فكان فى تقديرى أنك قد عرفتَ وصولى فى وقت دون وقت ، وأنتَ قد حَمَلْتَ أمرى على الخدمة التى ليس للعلم بها فائدة ، ولا فى الإعراض عنها فائتة .

وإذ جرى الأمر على غير ما كان فى حسابى وتَلَبَّسَ^(٨) بظنى ، فإننى أهدي ذلك كله بَغْثَاتِهِ وَسَمَانَتِهِ ، وحلاوته ومرارته ، ورقته وخثارته فى هذا المكان ؛ ثم أنت أبصرٌ بعد ذلك فى كتمانهِ وإفشائهِ ، وحفظهِ وإضاعته وستره^(٩) وإشاعته ؛ ووالله ما أرى هذا أمراً صعباً إذا وصل إلى مرادك ولا كُلفَةً شاقَّةً إذا أكسبني مَرْضَاتَكَ ؛ وإن كان ذلك

(١) « عتقوا بفوائح . »

(٢) « شدوا - أجدوا . يقال : شدا من العلم شيئاً إذا أخذ منه ساقه أو جمعه . وفى الأصل « شدوا ، بالمعجمة . »

(٣) « حدم . »

(٤) « النظف بالتحريك : العيب والفساد . »

(٥) « عرَّفوا ، وعزف عن الشيء : اعرض عنه وزهد فيه . »

(٦) « جريك . » وجرة البعير معروفة ، شبه بها الحديث المختزن بقشيه صاحبه .

(٧) « الدهماء ، والدهماء : جماعة الناس . »

(٨) « وتلبس . »

(٩) « ونشره واشكر عنه . »

يمر بأشياء كثيرة ومختلفة ، متعصية غريبة ، منها ما يَشِيْطُ^(١) به الدم المحقون ، ويُتَزَع من أجله الرُّوح العزيز ، ويُستَصغَر معه الصُّلْب ، ولا يُقْنَع فيه بالعذاب الأدنى دون العذاب الأكبر ؛ وإن كان فيها أيضا غير ذلك مما يُضْحِك السِّن ، ويُفَكِّه النفس ، ويدعو إلى الرشاد ، ويدل على النصيح ، ويؤكد الحرمة ، ويعقد الذمام ، وينشر الحكمة ، ويشرف الهمة ، ويلقح العقل ، ويزيد فى الفهم والأدب ويفتح باب اليُمن والبركة ، وينفق بضاعة أهل العلم فى السوق الكاسدة ، ويوقظ العيون الناعسة ، ويبلل الشَّن^(٢) المتغصّف ، ويندئ الطّين المترشّف ؛ ويكون سبباً قويا على حُسن الحال وطلب العيش ، فإن هذه العاجلة محبوبة ، والرّفاة مطلوقة ، والمكانة عند الوزراء بكل حول وقوة مخطوبة ، والدنيا حلوة خضرة وعذبة نضرة ، ومن شَفَّ^(٣) أمله شَقَّ عمله ؛ ومن اشتدَّ إلحاحه ، توالى غدؤه ورواحه ، ومن أسرّه رجاؤه ، طال عناؤه ، وعَظُم بلاؤه ؛ ومن ألتهب طمعه وحرصه ، ظهر عجزه ونقصه .

وفى الجملة :

من لم يكن لله متّهماً لم يُقسر محتاجاً إلى أحد ولا بد من قتي يعين على الدهر ، ويُغنى عن كرام الناس فضلا عن لثامهم ، ويدل قعود الصبر ، ويُجَم راحلة الأمل ، ويُحلى مرّ اليأس ؛ والعزلة محمودة إلا أنها محتاجة إلى الكفاية ، والقناعة مَرَّة^(٤) فكهة ولكنها فقيرة إلى البلغة وصيانة النفس حسنة إلا أنها كُلفَة مخرجة إن لم تكن لها أداة تُجِدُّها^(٥) وفاشية^(٦) تملّدها ، وترك خدمة السلطان غير الممكن ولا استطاع إلا بدين متين ، ورغبة فى الآخرة شديدة ، وفِطامٍ عن دار الدنيا صعب ، ولسانٍ بالحلو والحامض يَلْغ .

(١) يشيط : يذهب هدرا .

(٢) الشَّن بالسّين المهملة ، والشّن بالمعجمة : القرية الخلق . والمتغصّف ، أى المتكسر المتغصن من اليبوسة .

(٣) شَفَّ أمله : زاد . ويجوز أن يفسر بمعنى أسقمه الأمل واضناه لعلوه وبعد مثله .

(٤) مرة ، والمرّة : الخمرة اللذيذة الطعم .

(٥) تجدها ، أى تجددها .

(٦) الفاشية : ما انتشر من المال . وفى الأصل « غاشية » .

قال ابن السمّك^(١) : لولا ثلاث لم يقع خيف ، ولم يُسل سيف ، لقمة أسوغ من لقمة ، ووجه أصبح من وجه ، وبيلك^(٢) « أنعم من بيلك » ، وليس كل أحد له هذه القوة ، ولا فيه هذه المنة^(٣) والإنسان بشر ، وبنيته متهافئة وطيبته متثرة ، وله عادة طالبة ، وحاجة هاتكة ، ونفس جموح ، وعين طموح ؛ وعقل طفيف^(٤) ، ورأى ضعيف ، يهفو لأول ريح ، ويستخيل^(٥) لأول بارق ؛ هذا إذا تخلص من قرناء السوء ، وسلم من سوارق^(٦) العقل ، وكان له سلطان على نفسه ، وقهر^(٧) لشهوته . وقمّع لهوائجه^(٨) وقبول من ناصحه ، وتهيؤ في سعيه ، وتبؤ في معان^(٩) حظه ، وأتّمام بسعاده ، وأستبصار في طلب ما عند ربّه ، وأستنصاف من هواه المضلل لعقله المرشيد ، هذا قليل وصعب ولو قلت : معدوم أو مُحال في هذا الزمن العسير والذهر الفاسد ، لما خفت عائقاً يعوقني ، ولا حسوداً يرد قولي . قال ابن السمّك : الله المستعان على السنّ تصيف وقلوب تعترف ، وأعمال تختلف . وقال معاوية لأبي بكر بن عبدالرحمن بن الحارث - ورآه لائلي له عملاً ، ولم يقبل منه نائلاً - : يا ابن أخي ، هي الدنيا ، فإذا أن ترّضع معنا ؛ وأما أن ترّدد عتاً . وربما قال بعض المتكلفين قد قال بعض السلف : ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة ، ولا من ترك الآخرة للدنيا ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه . وهذا كلام مقبول الظاهر سوقوف الباطن . وربما قال آخر من المتقدمين : (أعمل لأخرتك كأنك تموت غداً ، وأعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً) . وهذا أيضاً كلام منمّق ، لا يرجع

(١) « ابن السمّك » . وهو تحريف وابن السمّك هو أبو العباس محمد بن صالح الكوفي الزاهد الواعظ المشهور لقى جماعة من الصدر الأول وأخذ عنهم وقدم من بغداد زمن هرون الرشيد وتوفي سنة ثلاث وثمانين ومائة بالكوفة .

(٢) السلك : الخيط . وكنى به عن الثوب لأنه من الخيوط .

(٣) « المنة » . والمنة بضم الميم : القوة .

(٤) « الطفيف » الناقص والقليل .

(٥) في الأصل : « ويستحيل » بالحاء - وهو تصحيف . ويستحيل لأول بارق : أي يخال المطر عند أول بارق .

(٦) يريد بسوارق العقل : الشهوات التي تذهب به وتجعله في حكم غير الموجود كأنها تسرقه . والذي في الأصل : « سراق » : وهو تصحيف .

(٧) « وفهم » .

(٨) لهوائجه . أي لما يهيج به من النزعات والمطامع .

(٩) المعان : المباءة والمنزل .

إلى معنى محقق ؛ أين هو من قول المسيح - عليه السلام - حين قال : الدنيا والآخرة كالشرق والمغرب متى بُعد أحدكم من أحدهما قُرب من الآخر ؛ ومتى قُرب من أحدهما بُعد من الآخر . وأين هو من قول الآخر : الدنيا والآخرة ضربتان ، متى أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى ، ومتى أسخطت إحداهما أرضيت الأخرى . وهذا لأن الإنسان صغير الحجم ، ضعيف الحول ، لا يستطيع أن يجمع بين شهواته وأخذ حظوظ بدنه وإدراك إرادته ، وبين السعى في طلب المنزلة عند ربه بأداء فرائضه ، والقيام بوظائفه ، والثبات على حدود أمره ونهيه ، فإن صَفَقَ وجهه وقال : نعمل تارة لهذه الدار وتارة لتلك الدار ، فهذا المذبذب الذي لا هو من هذه ولا من هذه ؛ ومن تَخَنَّتْ^(١) وتَلَيَّتْ لم يكن رجلاً ولا امرأة ، ولا هو يكون أباً ولا أما ؛ وهذا كما نرى .

ونرجع فنقول : ونعوذ بالله من الفقر خاصة إذا لم يكن لصاحبه عيادٌ من التقوى ، ولا عمادٌ من الصبر ، ولا دعامة^(٢) من الأنفة ولا أصطبارٌ على المرارة . وقد بُلينا بهذا الدهر الخالي من الديّانين الذين يُصْلِحُونَ^(٣) أنفسهم ويُصْلِحُونَ غيرهم بفضل صلاحهم ، الخاوي من الكرام الذين كانوا يتسعون في أحوالهم ، ويوسعون على غيرهم من سَعَتِهِمْ ، وكانوا يهتمون بذخائر الشكر المعجل في الدنيا ، يَحْرِصُونَ^(٤) على ودائع الأجر المؤجل في الآخرة ؛ ويتلذذون بالثناء ، ويهتزون للدعاء ؛ وتملكهم الأريحية عند مسألة المحتاج ، وتعتر بهم الهزة معها والابتهاج ؛ وذلك لعشقهم الثناء الباقي ؛ والصنيع الواقى ؛ وبيرون الغنمة في الغرامة ، والرَّيْبُ في البذل ، والحظُّ في الإيثار ، والزيادة في النقص ؛ أعنى بالزيادة . الخَلْفُ المتظر من الله ؛ وبالنقص : العطاء ؛ ورأيتُ الناس يعيرون ابن العميد حين قال : أنا أعجب من جهل الشاعر الذي قال :

أنت للمال إذا أمسكته فإذا أنفقته فالمال لك

قال : ولو كان هذا صحيحاً كان لا ينبغي أن يُكْتَسَبَ المال ، لأنه ليس في ترك

(١) في الأصل : تَحَنَّتْ . وهو تصحيف . ويريد بالتخنت والتلث : اللين والتشدد تشبهاً بالمختلن والليوث .

(٢) دعامته . والدعامة : العماد .

(٣) لا يصلحون . وقوله ، لا ، زيادة من النسخ .

(٤) يحوضون .

كسبه أكثر من إخراجِه بالإِنفاق . هذا لقولهم^(١) بحكمته وعقله وتحصيله وصواب
الجاهل لا يُستحسن كما يُستحب خطأ العاقل ؛ نعم ، وكانوا إذا وَلَوْ عَدَلُوا ، وإذا
مَلَكُوا أَفْضَلُوا^(٢) ، وإذا أعطوا أَجْزَلُوا ، وإذا سُلُوا أَجَابُوا وإذا جادوا أَطَابُوا ، وإذا
عَالُوا^(٣) صَبَرُوا ، وإذا نَالُوا^(٤) شَكَرُوا ؛ وإذا أَنْفَقُوا وَاسَوْا ، وإذا امْتَحِنُوا تَأَسَّوْا ؛
وكانوا يرجعون إلى نقائب ميمونة ، وإلى ضرائب^(٥) مأمونة ؛ وإلى ديانات قوية ،
وأمانات ثخينة^(٦) ؛ وكان لهم مع الله أسرار طاهرة ، وعلاية مقبولة ؛ ومع عباد الله
معاملة جميلة ، ورحمة واسعة ومعدلة فاشية ؛ وكانت تجارتهم في العلم والحكمة ،
وعادتهم جارية على الضيافة والتكرمة ؛ وكانت شيمتهم الصفح والمغفرة وربحهم^(٧)
من هذه الأحوال النجاة والكرامة في الأولى والعاقبة ؛ وكانوا إذا تلاقوا تواصوا
بالخير ، وتناهوا عن الشر ؛ وتنافسوا في اتخاذ الصنائع ، وأدخار البضائع (أعنى
صنائع الشكر ، وبضائع الأجر) فذهب هذا كله ، وتاه^(٨) أهله ؛ وأصبح الدين وقد
أُخْلِقَ لَبُوسُهُ ، وأُوجِشَ مَانُوسُهُ ، وأَقْتُلِعَ مَغْرُوسُهُ ؛ وصار المنكر معروفاً ، والمعروف
منكراً ، وعاد كلُّ شيء إلى كديره وخائره ، وفاسده وضائره ؛ وحصل الأمر على أن
يقال : فلانٌ خفيف الروح ، وفلان حسن الوجه ، وفلان ظريف الجملة ، حلو
الشماثل ، ظاهر الكيس ، قوي الدست^(٩) في الشطرنج ، حسن اللعب في النرد ،
جيد في الاستخراج ، مدبر^(١٠) للأموال ، بذول للجهد ، معروف بالاستقصاء
لا يُغْفَى عن دائق ، ولا يتغافل عن قيراط ؛ إلى غير ذلك مما يأنف العالم من
تكثيره ، والكاتب من تسطيره .

وهذه كلها كنايات عن الظلم والتجديف^(١١) ، والخساسة والجهل وقلة الدين وحب

(١) هذا لقولهم . أي عيب النفس لابن العميد في كلامه السابق ، لما يصفونه به من الحكمة والعقل الخ .

(٢) أفضلوا : لنعموا .

(٣) في الأصل ، اعتزلوا . . وعقلوا ، افتقروا ، من العيلة بفتح أوله .

(٤) قالوا . .

(٥) الضرائب : الطبايع والسجيا ، الواحدة ضريبة .

(٦) ثخينة : قوية كما يقال في عكس ذلك : هو رقيق الدين ، أي ضعيفه .

(٧) وربحهم . .

(٨) تاه أهله : هلكوا . وفي الأصل « وباه » .

(٩) الدست : الحيلة ، وهو أيضاً ما يكون فيه الخلب في الشطرنج : نقول : « الدست لي والدست على » .

(١٠) مدبر . .

(١١) التجديف : الكفر بنعمة الله . وفي الأصل : والتخويف .

الفساد ، وليس فيها شيء مما قدمنا وصفه عن القوم الذين اجتهدوا أن يكونوا خلفاء الله على عباد الله بالرأفة والرقة والرحمة والاصطناع والعدل والمعروف .
وأرجع عن هذه الشكوى الطويلة اللاذعة والبلية العامة الشاملة ؛ إلى عيني ما رسمت لي ذكره ، وكلفتني إعادته ؛ عائذا بالله في صرف الأذى عني وسوق الخير إلي ؛ ولائذا بكرمك الذي رشتني^(١) به إلى الساعة ، وكفيتني به مؤونة الخدمة لغيرك من هذه الجماعة ؛ والأعمال بخواتيمها ، والصُدور بأعجازها ؛ وأنت أولى الناس بالصَّفح والتجاوز عني إذا عرفت براءتي في كل ما يتعلق بي من ذمامك ؛ ويجب علي من الحق في مودتك ، والاعتصام بحبلك والانتجاع^(٢) من عُشيك ، والارتغاء^(٣) من لينك .

الليلة الأولى

وصلتُ أيها الشيخ - أطال الله حياتك - أول ليلة إلى مجلس الوزير - أعزَّ الله نصره ، وشدَّ بالعصمة والتوفيق أزره - فأمرني بالجلوس ، وبسط لي وجهه الذي ما أعتراه منذ خُلِق العُبوس ؛ ولطفت كلامه الذي ما تبدل منذ كان لا في الهزل ولا في الجِد ، ولا في الرضا .

ثم قال بلسانه الذليق^(٤) ، ، ولفظه الأنيق : قد سألتُ عنك مرَّاتٍ شيخنا أبا الوفاء ، فذكر أنك مراعى لأمر اليمارستان من جهته ، وأنا أربأ بك عن ذلك ، ولعلِّي أعرضك لشيء أنبأ من هذا وأجدي ، ولذلك فقد تآقت نفسي إلى حضورك للمحادثة والتأنيس ، ولأتعرَّف^(٥) منك أشياء كثيرة مختلفة تردَّد في نفسي على مرَّ الزمان ، لا أحصيها لك في هذا الوقت ، لكنني أنثرها في المجلس بعد المجلس على قدر ما يسنح ويعرض ، فأجبنى عن ذلك كله باسترسال وسكونٍ بال ؛ بملء فيك ، وجَمَّ خاطرك ، وحاضرَ علمك ؛ ودَّع عنك تفتنَّ البغداديين^(٦) (٧) مع

(١) راسه يرشه : جعل له ريشا . شبه ما بذله له من المعروف بالريش للطلثر .

(٢) الانتجاع : طلب المعروف .

(٣) في الأصل : الارتغاء ، بالقاف : وهو تصحيف . والارتغاء : اخذ رغوۃ اللبن واحتسأها .

(٤) اللسان الذليق : الحاد البليغ .

(٥) « ولا تفريق » .

(٦) يريد بتفتنَّ البغداديين : استطرادهم في الكلام وخروجهم فيه من فن إلى فن .

(٧) هنا كلمة مطبوسة بالأصل لا تمكن قراءتها .

عفو لفظك ، وزائد رأيك ، وربح^(١) ذهنيك ؛ ولا تجبن جبن الضعفاء ، ولا تتأطر^(٢) تأطر الأغبياء ؛ وأجزم إذا قلت ، وبالع إذا وصفت ؛ وأصدق إذا أسندت ، وأفصل إذا حكمت .

الليلة الرابعة

قال لي بعد ذلك في ليلة أخرى : كيف رضاك عن أبي الوفاء^(٣) ؟ قلت : أرضى رضا بآتم شكر وأحمد ثناء ؛ أخذ بيدي ، ونظر في معاشي ، ونشطني وبشرني ، ورعى عهدي ، ثم ختم هذا كله بالنعمة الكبرى ، وقلدني بها القلادة الحسنى ، وشملي بهذه الخدمة ، وأذاقني حلاوة هذه المزية ، وأوجهني عند نظرائي . قال : هات شيئاً من الغزل . فأنشدته :

كلانا سواء في الهوى غير أنها تجلّد أحياناً وما يى تجلّد
تخاف وعيد الكاشحين وإنما جنوني عليها حين أنهى وأبعد
ثم قال : غالب ظني أن نصراً غلاماً خواشاه^(٤) ما هرب من فيائي إلا برأيك
وتجسرك ؛ فإن ذلك عبد ، ولا جرأة له على مثل هذا التدود والشذوذ ، فقد قال لي
القاتل : إنك من خلصائه .

فقلت : والله الذي لا إله إلا هو ما كان بيني وبينه ما يقتضي هذا الأنس وهذا
الاسترسال ، إنما كنا نلتقي على زنبرية^(٥) باب الجسر بالعشايا وعند البيمارستان
وعلى باب أبي الوفاء ؛ وإنما ركنت إليه لمرقعته^(٦) وتاسومته عندما كنت رأيته عند

(١) ربح ذهنيك ، أي فضلتك .

(٢) التأطر : التحبس والتثني ، شبه به وقوف الغبي وتريده في جواب ما يسأل عنه .

(٣) يريد أبا الوفاء المهندس ، وهو محمود بن محمد بن يحيى بن إسماعيل بن العباس ، مولده ببوزجان من بلاد نيسابور سنة ٣٢٨ ، وانتقل إلى العراق سنة ٣٤٨ ، وكان إماماً في الحساب والهندسة والجبر والفلك ، توفي سنة ٣٨٧ كما في ابن الأثير أو سنة ٣٨٨ كما في تاريخ الحكماء . وهو الذي ألف أبو حيان له هذا الكتاب .

(٤) خواشاه هو أبو نصر خواشاه كان قنصياً من كبار رجال شرف الدولة البويهى وكان سقيراً في الاتفاق وعقد الصلح بين شرف الدولة وصمصام الدولة .

(٥) انظر تفسير هذا اللفظ في الحاشية رقم ٢ صفحة ٤١ .

(٦) المرقعة : من لبس الصوفية ، لما فيها من الرقع . والتاسومة : كلمة شائعة الاستعمال عند العامة في نوع من النعل البالية يلبسه الفقراء ؛ ولم نجد لها فيما راجعناه من كتب اللغة ، كما أنها لم ترد فيما بين أيدينا من الكتب المؤلفة في الألفاظ العامية والدخيلة .

صاحبه بالرؤى سنة تسع وستين وهو متوجه إلى قابوس وجرجان ، فى المدة الدائمة والحال المربوطة^(١) ؛ ولو نُس لي بحرف من هذا^(٢) ، أو كنت أشعر بأقل شيء منه ، لكنت أقوله لأبى الوفاء قضاءً لحقه ، ووفاءً بما له فى عنقى من منه وخوفاً من هذا الظن بى ، وقصوراً عن اللائمة لى .

قال : أفما تعرف أحداً تسأله عنه ممن كان يخالطه ويباسطه ؟ قلت : ما رأيته إلا وحده ؛ وكم كان زمان التلاقى ؟ كان أقل من شهر ، أفى هذا القدر يتوكد الأنس وترتفع الحشمة وتستحكم الثقة ويقع الاسترسال والتشاور ؟ هذا بعيد . قال : هذا المتخلف^(٣) كنت قد قرَّبته وربَّته ، ووعدته ومنَّته ؛ وتقدمت إلى أبى الوفاء بالإقبال عليه ، والإحسان إليه ، وإذكاري بأمره فى الوقت بعد الوقت ، حتى أزيده نباهة وتقدماً ، فترك هذا كله وطوى الأرض كأنه هارب من حبس ، أو خائف من عذاب . ويقال فى الأثر : إن بعض الصفيحيين^(٤) قال : لله قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل ، ما أكثر من يفر من هذه الكرامة ، ويقوى - على ترف جَم - على الهوان ، ويصير على البلاء ، ويُقلق فى العافية ! إن السجاية لمختلفة ، وإن الطباع لمتعادية ؛ فلما يرى شخصان يتشاكلان فى الظاهر إلا يتباينان فى الباطن .

قلت : كذلك هو .

قال : حدَّثنى لِمَ أمتنعت من النفوذ مع آبن موسى إلى الجبل فيما رُسِّمنا له أن يتوجَّه فيه ؟ ولقد أطلتُ التعجب من هذا وكرَّرتُ على أبى الوفاء .

فقلت : معنى من ذلك ثلاثة أشياء : أحدها أن آبن موسى لم يكن من شكلى « ولا أشدَّ للصدِّ »^(٥) هونا^(٦) من مضاحجة الصدِّ^(٧) ، لأنه سوداوى وجعَد . والآخر أنه قيل : ينبغى أن تكون عيناً عليه ، وأنا لو قررت لك الحديث لما رأيته [لائقاً^(٨)]

(١) لعله يريد بالمربوطة فى هذا الموضع ، الواقعة عند حد من الفاقة لا تنتقل عنه .

(٢) من هذا . أى من أمر هربه .

(٣) يريد بالمتخلف : هذا الغلام الأبق ، لتخلفه عن متابعة مولاة .

(٤) الصفيحيون : نسبه إلى الصفيح ، وهو من أسماء السماء . يريد المتعبدون المتعلقة قلوبهم بالعلم العلوى .

(٥) وردت هذه العبارة التى بين هاتين العلامتين فى الأصل محرقة لا معنى لها وما أثبتناه هو أقرب الحروف إلى الرسم الوارد فى الأصل ، كما أن سياق الكلام يقتضيه .

(٦) الهوان : الذل والهوان .

(٧) الصد : الضيق .

(٨) هذه الكلمة أو ما يفيد معناها سابقة من الأصل ، ولعله يريد أنه لو اكتفى بنقل حقيقة الحديث لما كان ذلك لائقاً بحاله لما فى هذا العمل من وصفه بالشعالية والوشلية .

بحالى ، فكيف إذا قُرئتُ برجلٍ باطلٍ^(١) لو مرَّ بوجهه أمرى لدهذهني^(٢) من أعلى جبلٍ فى الطريق . والآخر أنى كنت أفدٍ مع هذا كله على ابن عباد - وهو رجل أساء إلى وأوحشنى ، وحاول على لسان صاحبه ابن شاهويه أن أنقلب إليه ثانيا ؛ وكنت أكره ذلك ، وما كنتُ^(٣) آمنُ ما يكون منه ومنى ، والمجنون^(٤) المطاع ، مهروب منه بالطباع .

وبعد ، فليس لى [حَاجَةٌ]^(٥) فى مثل هذه الخدمة ، لأن صدر العمر خلا منى عاريا من هذه الأحوال ، وكان وسطه أضعفَ حملا ، وأبعد من القيام به والقيام عليه .

فقال : ما كان عندى هذا كله .

قال : إنى أريد أن أسألك عن ابن عباد فقد أنتجته وخبرته وحضرت مجلسه ، وعن أخلاقه ومذهبه وعادته ، وعن علمه وبلاغته ، وغالب ما هو عليه ، ومغلوب ما لديه ؛ فما أظن أنى أجد مثلك فى الخبر عنه ، والوصف له ، على أنى قد شاهدته يهْمَذانَ لَمَّا وافى ، ولكنى لم أعْجُمه ، لأن اللَّبث كان قليلا ، والشغل كان عظيما ، والعائق كان واقعا .

فقلت : إنى رجل مظلوم من^(٦) جهته ، وعاتبٌ عليه فى معاملتى ، وشديد الغيظ لحرمانى ، وإن وصفته أُرِييتُ^(٧) متصيفا^(٨) ، وانتصفتُ منه مسرفا^(٩) ، فلو كنتُ معتدل الحال بين الرضا والغضب ، أو عاريا منهما جملة ، كان الوصف أصدق ، والصدق به أخلق ؛ على أنى عملت رسالة فى أخلاقه وأخلاق ابن العميد أودعتها نفسى الخزير ، ولفظى الطويل والقصير ، وهى فى المسودة ولا جسارة لى على

(١) يريد بالباطل أنه يأخذ بالشبهات والظنون الباطلة .

(٢) دذهه - دحرجة .

(٣) وما أكتب . .

(٤) والمجكوت . .

(٥) موضع هذا اللفظ فى الأصل حروف مطموسة تتعذر قراءتها ، وسيلق الكلام يقتضى ما أثبتنا أو ما يقيد معتناه .

(٦) امر . .

(٧) أرييت - ردت .

(٨) ورد فى الأصل بعد هذه الكلمة لام وميم ؛ ولعلهما من زيادات النساخ ، لاستقامة الكلام بدونهما .

(٩) « مشتقاً » ، وقد ورد بعد هذه الكلمة فى الأصل حاء وياء ؛ ولعلهما من زيادات النساخ .

تحريرها ، فإن جانبه مهيب ، ولمكره ديب ، وقد قال الشاعر :
إلى أن يغيب^(١) المرء يُرجى ويُتقى ولا يعلم الإنسان ما فى المغيب
قال : دع هذا كله ، وأنسخ لى الرسالة من المسودة ، ولا يمنعك ذاك فإن العين
لا ترمقها والأذن لا تسمعها واليد لا تنسخها .

وبعد ، فما سألتك إلا وصفه بما جُبل عليه ، أو بما كسب^(٢) هو بيديه من خير
وشر : وهذا غير منكر ولا مكروه ، لأمر الله تعالى ، فإنه مع علمه الواسع ، وكرمه
السابق ، يصف المحسن والمسيء ، ويثنى على هذا ويثو^(٣) على ذاك ؛ فأذكر لى
من أمره ما خف اللفظ به وسبق الخاطر إليه وحضر السبب له .

قلت : إن الرجل كثير المحفوظ حاضر الجواب فصيح اللسان ؛ قد تَف من كل
أدب خفيف أشياء ، وأخذ من كل فن أطرافا ؛ والغالب عليه كلام المتكلمين
المعتزلة ، وكتابته مهجنة بطرائقهم ، ومناظرته مشوبة^(٤) بعبارة الكتاب ؛ وهو شديد
التعصب على أهل الحكمة والناظرين فى أجزائها كالهندسة والطب والتنجيم
والموسيقى والمنطق والعدد ؛ وليس [عنده]^(٥) بالجزء الإلهي خبر ، ولا له فيه
عين^(٦) ولا أثر ؛ وهو حسن القيام بالعروض والقوافي ؛ ويقول الشعر ، وليس بذاك ؛
وفى بديهته غزارة . وأماروته^(٧) فخورة ؛ وطالعه الجوزاء ، والشعرى قرية منه ؛
ويتشيع لمذهب أبى حنيفة ومقالة الزيدية ، ولا يرجع إلى الرقة والرأفة والرحمة ،
والناس كلهم محجمون عنه ، لجراته وسلطته واقتداره وبسطه ؛ شديد العقاب
طفيئ الثواب ، طويل العتاب ؛ بذى اللسان ؛ يعطى كثيرا قليلا (أعنى يعطى
الكثير القليل) ، مغلوب بحرارة الرأس ، سريع الغضب ، بعيد الفية^(٨) قريب
الطيرة ، حسود حقود حديد ، وحسده وقف على أهل الفضل ، وجقده سار إلى أهل

(١) يغيب ، أى يموت . وفى الأصل « يعيش » : وهو تحريف لا يستقيم به المعنى .

(٢) « كتب » بالقاء .

(٣) « ينثو على ذلك » ، أى يخبر عنه بذنوبه . يقال : « ثنا على فلان ذنوبه » ، إذا أخبر بها عنه وأشاعها .

(٤) كذا فى معجم الأدباء . والذي فى الأصل « مسترقة » .

(٥) لم ترد هذه الكلمة التى بين مربعين فى الأصل : ومكانها كلمة مطموسة فتعذر قراءتها .

(٦) « جين ولا إير » .

(٧) كذا فى معجم الأدباء ج ٢ ص ٢٧٦ الطبعة الأولى . والذي فى الأصل : « بديهته » ، ولا يستقيم مع العبارة السابقة .

(٨) « النية » . والتصحيح عن معجم ياقوت . والنية : الرجعة .

الكفاية ؛ أما الكتاب والمتصرفون فيخافون سطوته ، وأما المستجيعون^(١) فيخافون جفوته ؛ وقد قتل خلقا ، وأهلك ناسا ، ونفى أمة ، نخوة وتعتا وتجبرا وزهوا ؛ وهو مع هذا يخدعه الصبي ، ويخلبه الغبي ؛ لأن المدخل عليه واسع ، والمأوى إليه سهل ؛ وذلك بأن يقال : مولانا يتقدم بأن أعار شيئا من كلامه ، ورسائل متوره ومنظومه ؛ فما جُبْتُ الأرض إليه^(٢) من فرغانة ومصر وتفليس إلا لاستفيد كلامه وأفصح به ، وأتعلم البلاغة منه ؛ لكأنما رسائل مولانا سُورِ قرآن ، وفقره فيها آيات فرقان ؛ واحتجاجة من آبدائها إلى آتئائها برهان فوق برهان ؛ فسبحان من جمع العالم في واحد ، وأبرز جميع قدرته في شخص .

رسالتان كتب بهما المؤلف الى الوزير

أما الرسالة الأولى :

بسم الله الرحمن الرحيم : اللهم خلّني بالتوفيق ، وأيّدني بالنصرة ، وأقرن منطقي بالسداد ، واجعل لي من الوزير وزير الممالك عقيب فارجة^(٣) من الغم ، وخاتمة موصولة بالنجاح ، فإنك على ذلك قدير ، وبالإجابة جدير .
كنت وصلت إلى مجلس الوزير ، وفزت بالشرف منه ، وخدمت دولته ، وعلاه من صدرى بخبيته ، ومن فؤادى بمحيضته ، وتصرفت من الحديث بإذنه في شجونه وفنونه ، كل ذلك آملا في جدوى أخذها ، وحظوة أحظى بها ، وزلّقى أُميس معها ، ومثالة أحسد عليها ؛ فتقبل ذلك كله ، ووعد عليه خيرا ولم يزل أهله ، وانقلبت إلى أهلى مسرورا بوجه مسير ، ومحيّا طلق ، وطرف عازم^(٤) ، وأمل قد سد ما بين أفي العراق إلى صنعاء اليمن ، حتى إذا قلت للنفس : هذا معان الوزير ومعمره ، وجنابه ومحضره ، [فانشرحى مستفتح ، وتيمنى مقترحة ، وأطمئنى راضية مرضية ،

(١) « المتكجفون » .

(٢) « إلا من فرغانة ، وقوله » ، إلا ، زيادة من النسخ .

(٣) في (١) : « نازحة » ، وهو تحريف .

(٤) كذا وردت هذه الكلمة في الأصول ولعلها تحريف إذ لم ننبين معنى وصف الطرف بهذا الوصف .

لا كدرة الشرب ، ولا مذعورة السرب [، حصلت من ذلك الوعد والضمان ، على بعض فَعَلات الزمان ؛ ولا عَجَب في ذلك من الزمان فهو بمثله ملئ ، وله فَعُول . وبقيت محمولاً بيني وبين إذكاره - قرَن الله ساعاته بساعاته ، ووَصَلَ عِزًّا (١) يومه بسعادة غده ؛ وغَدَه بامتداد يده - حيران لا أريش ولا أبرى ، ثم رفعت ناظري ، وسدّدت خاطري ، وفصلت الحساب لي وعلى ؛ فوضّح العذر المبين ، المانع من استزادة المستزدين ، وذلك أني رأيت أعباء الوزارة تؤود (٢) سيره ، وتتعب (٣) باله ، والمملكة تفرّغ ولهي عليه ، وتلقى بجرانها (٤) له بين يديه ، والدولة تستمّده التدبير الثاقب ، والرأي الصائب ، سوى أمور في خلاف ذلك لا يحرها رسم راسم ، ولا يقررها قسم قاسم ، ولا يخوبها وهم واهم ، ولا يقوّر بها سهم مساهم ، وهو يخطر في حواشي هذه الأحوال ، متأبطاً بواظ الأتقال ، مفتيحاً عويص الأقفال (٥) ، فسيح الصدر ، بساماً على العِلّات ، غير مكترث بهالك وهاب ، يتلقى ما أعيا من ذلك باللي (٦) ، وما أشكل بالإيضاح ، وما عسر بالتدبير ، وما فسّد بالإصلاح ، وما أرق بالعتق ، وما خرق بالرّق ، وما خفي بالتكشيف ، وما بدأ بالتصريف ، وما أود بالتثقيف ، وما لبس التعريف ، حتى أجمع على هَوَاهُ قاصيها ودانيها ، وجرى على مراده خافيتها وباديتها ، واستجاب لأمره أبيها ومُنقادها ، وأتلف بلفظه نادرها ومُعْتادها ؛ فلما تيقّنت (٧) ذلك كله وقتلته خُبْرًا ، أمسكت عن إذكاره - نفس الله مدته - سالف عهده ، ومتقدّم وعده ، عالماً بأن أسرهما (٨) مرعى عنده في صدر الكرم ، ومكتوب لديه في صحيفة المجد ، وثابت قبلة في ديوان الحسنى . ولكن كان ذلك الامتنان (٩) على رَغَم مني (١٠) ، لأنني قتلت في أثنائه بين جنبي قلباً

(١) في (ب) التي ورد فيها وحدها هذا الكلام : « عن . مكن . عز » : وهو تحريف

(٢) في (ب) التي ورد فيها وحدها هذا الكلام : « تؤد » : وهو تحريف .

(٣) في (ب) التي ورد فيها وحدها هذا الكلام : « وتتعب » : مكن ، وهو تحريف

(٤) في (ب) التي ورد فيها وحدها هذا الكلام : « بجرانها » : وهو تصحيف

(٥) في الأصول : « الأفعال » : وهو تصحيف .

(٦) في كلتا النسختين : « بالكي » ، بالكاف : وهو تحريف لا معنى له هنا . ولعل صوابه ما أثبتنا

(٧) في الأصل : « نفقت » : وهو تحريف .

(٨) في كلتا النسختين : « أسرهما » : والياء زيادة من النسخ .

(٩) كذا وردت هذه الكلمة في الأصول : ولا معنى للامتنان هنا ، ولعل صوابه الكتمان أو . الإمساك . أو ما يفيد ذلك اخذاً من قوله قبل : فامسكت عن إذكاره .

(١٠) في (١) على زعم من أبي قلبث إلى اثنيابه . مكن قوله على رغم مني لأنني قتلت في أثنائه .

مَقْرُورَ الرَّجَاءِ ، وَمَتَزَوَّرَ الْعَزَاءِ ، عَلَى عَوَارِضَ لَمْ تَسْنَحْ فِي خَلْدِي ، وَلَمْ أُعْقِدْ عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا يَدِي .

فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ مَعَاذِي إِلَى الْوَزِيرِ الْكَرِيمِ ، الْبَرِّ الرَّحِيمِ ، وَالْمِنَّةُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَنِي مِنْ عَفَاةِ جُودِهِ ، وَنَاشِئَةِ عُرْفِهِ ، وَوَارِدِ عِدَّةِ ، وَقَادِحِي زُنْدِهِ ، وَمُقْتَبِسِي نُورِهِ ، وَمُضْطَلِّي نَارِهِ ، وَحَامِلِي نِعْمَتِهِ ، وَطَالِبِي خِدْمَتِهِ ، وَجَعَلَ خَاصَّتِي وَخَالِصَتِي مِنْ بَيْنِهِمْ رَوَايَةَ مَنَاقِبِهِ بِاللِّسَانِ الْإِثْنِ ، وَنَشَرَ فُضَائِلِهِ بِالنَّشَاءِ الْأَحْسَنِ ، وَذَكَرَ آيَاتِهِ بِاللَّفْظِ الْأَفْصَحِ ، وَالِاحْتِجَاجَ لِسَدَادِ آرَائِهِ بِالْمَعْنَى الْأَوْضَحِ ؛ فَلَا زَالَ الْوَزِيرُ - وَزِيرُ الْمَمَالِكِ - مَمْدُوحًا فِي أَطْوَارِ الْأَرْضِ عَلَى أَلْسِنَةِ الْأَدْبَاءِ وَالْحُكَمَاءِ ، وَفِي نَوَادِي الرُّؤَسَاءِ وَالْعُظَمَاءِ ، مَا آبَ آئِبٌ^(١) ، وَغَابَ غَائِبٌ ، بِمَنِّهِ وَلُطْفِهِ .

قَدْ نَادَيْتُ الْوَزِيرَ حَيًّا سَامِعًا ، وَخَيْرًا جَامِعًا ، وَهَزَزْتُ مِنْهُ صَارِمًا قَاطِعًا ، وَشِهَابًا سَاطِعًا ، وَاسْتَشْقَيْتُ مِنْ كَرَمِهِ سَحَابًا هَاطِلًا ، وَنَقَاخًا^(٢) سَائِلًا ، وَأَسْأَلُهُ أَنْ يُجَنِّبَنِي مَرَارَةَ الْحَيَّةِ ، وَخَسْرَةَ الْإِخْفَاقِ ، وَعَذَابَ التَّشْوِيفِ ، فَقَدْ تَلَطَّقْتُ بِالسَّحْرِ الْحَلَالِ ، وَالْعَذْبِ الزَّلَالِ ، وَجُهِدَ الْمُقِلُّ الْمُحْتَالَ ، وَهُوَ أَوْلَى بِمَجْدِهِ ، فِي تَدْبِيرِ عَبْدِهِ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

هَذَا آخِرُ الرِّسَالَةِ الْأُولَى .

وَحَضَرَ وَصُولُهَا إِلَيْهِ بِهَرَامٍ - لَعَنَهُ اللَّهُ - وَتَكَلَّمَ بِمَا يَشْبَهُ نِدَائِهِ وَخِصَّتَهُ وَتَنَزَّيَّتِهِ ، فَمَا كُنْتُ آمَنُهُ^(٣) ؛ وَمَا أَشَدُّ إِشْفَاقِي عَلَى هَذَا الْوَزِيرِ الْخَطِيرِ مِنْ شَوْمِ نَاصِيَةِ بِهَرَامٍ ، وَغَلِّ صَدْرِهِ ، وَقَلَّةِ نَصِيحَتِهِ ، وَلَوْمْ طَبِيعِهِ ، وَخُبْثِ أَصْلِهِ ، وَسُقُوطِ فَرْعِهِ ، وَدِمَامَةِ مَنْظَرِهِ ، وَلَآمَةِ مَخْبَرِهِ ؛ حَرَسَ اللَّهُ الْعِبَادَ مِنْ شَرِّهِ ، وَطَهَّرَ الْبِلَادَ مِنْ عُرِّهِ وَضُرِّهِ .

(١) فِي كِلْتَا النُّسخَتَيْنِ : « وَغَلَبَ غَالِبٌ » ؛ وَهُوَ تَحْرِيفٌ فِي كِلْتَا الْكَلِمَتَيْنِ .

(٢) وَرَدَ هَذَا اللَّفْظُ بِالْيَاءِ وَالْقَاءِ ؛ وَلَعَلَّ صَوَابَهُ مَا اثْبَتْنَا .

(٣) فِي كِلْتَا النُّسخَتَيْنِ : « أَمَلَهُ » بِالْأَمِ ؛ وَهُوَ تَحْرِيفٌ . وَالسِّيَاقُ يَقْتَضِي مَا اثْبَتْنَا .

الرسالة الثانية

وأما الرسالة الثانية فهي التي كانت في هذه الأيام بعد استئذاني إياه في المخاطبة بالكاف ، حتى يَجْرَى الكلام على سَنَنِ الاسترسال ، ولا يُعْثَر في طريق الكتابة بما يراخم عليه من اللَّفْظِ وَاللَّفْظِ ، وهي :

بسم الله الرحمن الرحيم . أيها الوزير ، جعلَ الله أَقْدَارَ دَعْوِكَ جاريةً على تَحْكُمِ أَمَلِكَ ، وَوَصَلَ تَوْفِيقَهُ بِمَبَالِغِ مُرَايِكَ فِي أَقْوَالِكَ وَأَفْعَالِكَ ، وَمُكْنِكَ مِنْ نَوَاصِي أَعْدَائِكَ ، وَثَبَّتْ أَوَاخِي ذَوْلِكَ عَلَى مَا فِي نَفُوسِ أَوْلِيائِكَ .

يَجِبُ عَلَى كُلِّ مَنْ آتَاهُ اللهُ رَأْيًا ثاقِبًا ، وَنُصْحًا حَاضِرًا ، وَتَنْبَهًُا نَافِعًا ، أَنْ يَخْدُمَكَ مُتَحَرِّيًا لِرُسُوخِ دَعَائِمِ الْمَمْلَكَةِ بِسِيَاسَتِكَ وَرِيَادَتِكَ^(١) ، قَاضِيًا بِذَلِكَ حَقَّ اللهِ عَلَيْهِ فِي تَقْوِيَتِكَ وَجِيَاظَتِكَ . وَإِنِّي أَرَى عَلَى بَابِكَ جَمَاعَةً لَيْسَتْ بِالكَثِيرِ - وَلَعَلَّهَا دُونَ الْعَشْرَةِ - يُؤْثِرُونَ لِقَاءَكَ وَالْوُصُولَ إِلَيْكَ لِمَا تُجِنُّ صُدُورُهُمْ مِنَ النَّصَائِحِ النَّافِعَةِ ، وَالْبَلَاجِثِ الْمُجْدِيَةِ ، وَالذَّلَالَاتِ الْمُفِيدَةِ ، وَيَرَوْنَ أَنَّهُمْ إِذَا أَهْلَوْا لَذَلِكَ فَقَدْ قَضَوْا حَقَّكَ ، وَأَدَّوْا مَا وَجَبَ عَلَيْهِمْ مِنْ حُرْمَتِكَ ، وَبَلَّغُوا بِذَلِكَ مُرَادَهُمْ مِنْ تَفْضِيلِكَ وَأَصْطِنَاعِكَ ، وَتَقْدِيمِكَ وَتَكْرِيمِكَ ؛ وَالْحِجَابُ قَدْ حَالَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَكَ ، وَلِكُلِّ مِنْهُمْ وَسِيلَةٌ شَافِعَةٌ ، وَخِدْمَةٌ لِلْخَيْرَاتِ جَامِعَةٌ ؛ مِنْهُمْ - وَهُوَ أَهْلُ الْوَفَاءِ - ذُووُ كِفَايَةٍ وَأَمَانَةٍ ، وَنَبَاهَةٍ وَلَبَاقَةٍ ؛ وَمِنْهُمْ مَنْ يَصْلُحُ لِلْعَمَلِ الْجَلِيلِ ، وَلِرَتْقِ الْفَتَى الْعَظِيمِ ؛ وَمِنْهُمْ مَنْ يُمَتِّعُ إِذَا نَادَمَ ، وَيَشْكُرُ إِذَا أَصْطَنَعَ ، وَيَبْذُلُ الْمَجْهُودَ إِذَا رُفِعَ ؛ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُمُ الدُّرَّ إِذَا مَدَحَ ، وَيُضْحِكُ الثُّغْرَ إِذَا مَزَحَ ؛ وَمِنْهُمْ مَنْ قَعَدَ بِهِ الدُّعْرُ لِسِنَّةِ الْعَالِيَةِ ، وَجَلَابِيْبِهِ الْبَالِيَةِ ، فَهُوَ مَوْضِعُ الْأَجْرِ الْمَذْخُورِ ، وَنَاطِقُ الشُّكْرِ الْمَنْظُومِ وَالْمَشُورِ ؛ وَمِنْهُمْ طَائِفَةٌ أُخْرَى قَدْ عَكَفُوا فِي بُيُوتِهِمْ عَلَى مَا يَعْنِيهِمْ مِنْ أَحْوَالِ أَنْفُسِهِمْ ، فِي تَرْجِيَةِ عَيْشِهِمْ ، وَعِمَارَةِ آخِرَتِهِمْ ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ مِنْ وَرَاءِ خِصَاصَةِ مِرَّةٍ ، وَمُؤْنِ غَلِيظَةٍ ، وَحَاجَاتٍ مُتَوَالِيَةٍ ؛ وَلَهُمُ الْعِلْمُ وَالْحِكْمَةُ وَالْيَيَّانُ وَالتَّجَرُّبَةُ ، وَلَوْ وَثَقُوا بِأَنَّهُمْ إِذَا عَرَضُوا أَنْفُسَهُمْ عَلَيْكَ ، وَجَهَّزُوا مَا مَعَهُمْ مِنَ الْأَدَبِ وَالْفَضْلِ إِلَيْكَ حَظُّوا مِنْكَ ، وَاعْتَرَوْا بِكَ ، لَحَضَرُوا بِابْنِكَ ، وَجَسِمُوا الْمَشَقَّةَ إِلَيْكَ ؛ لَكِنَّ الْيَأْسَ قَدْ غَلَبَ عَلَيْهِمْ ، وَضَعُفَتْ مُتَتَّهُمْ ،

(١) في كلتا النسختين : « وزيدتك » ، بالزاي المعجمة : وهو تصحيف .

وَعَبَسَ أَمْلَهُمْ ، وَرَأَوْا أَنْ سَفَّ التُّرَابَ ، أَخْفُثُ مِنَ الْوُقُوفِ عَلَى الْأَبْوَابِ ، إِذَا دَنَوْا مِنْهَا دَفَعُوا عَنْهَا ؛ فَلَوْ لَحِظْتَ هَؤُلَاءِ كُلَّهُمْ بِفَضْلِكَ ، وَأَذْنَيْتَهُمْ بِسَعَةِ دَرْعِكَ وَكَرَمِ خِيَمِكَ ، وَأَصْغَيْتَ إِلَى مَقَالَتِهِمْ بِسَمْعِكَ ، وَقَابَلْتَهُمْ بِمِلءِ عَيْنِكَ ، كَانَ فِي ذَلِكَ بَقَاءٌ لِلنِّعْمَةِ عَلَيْكَ ، وَصِيَتْ فَاشٍ بِذِكْرِكَ ، وَثَوَابٌ مُؤَجَّلٌ^(١) فِي صَحِيفَتِكَ ، وَثَنَاءٌ مُعْجَلٌ عِنْدَ قَرِيبِكَ وَبَعِيدِكَ ؛ وَالْأَيَّامُ مَعْرُوفَةٌ بِالتَّقَلُّبِ ، وَاللَّيَالِي مَا خِصَّةٌ بِمَا يَتَعَجَّبُ مِنْهُ ذُو اللَّبِّ ، وَالْمَجْدُودُ مَنْ جُدَّ فِي جَدِّهِ ، أَعْنَى مَنْ كَانَ جَدُّهُ فِي الدُّنْيَا مُوَصُولًا بِحِظِّهِ مِنَ الْآخِرَةِ ، وَلَآنَ يُوَكِّلُ الْعَاقِلُ بِالْإِعْتِبَارِ بغيرِهِ ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ يُوَكِّلَ غَيْرَهُ بِالْإِعْتِبَارِ بِهِ .

أَيُّهَا الْوَزِيرُ ، اصْطِنَاعُ الرِّجَالِ صِنَاعَةٌ قَائِمَةٌ بِرَأْسِهَا ، قَلَّ مَنْ يَفْقَهُ بِرَبِّهَا^(٢) ، أَوْ يَتَأَتَّى لَهَا ، أَوْ يَعْرِفُ خِلَاقَتَهَا ، وَهِيَ غَيْرُ الْكِتَابَةِ الَّتِي تَتَعَلَّقُ بِالْبَلَاغَةِ وَالْحِسَابِ .

وَسَمِعْتُ ابْنَ سُورِينَ يَقُولُ : آخِرُ مَنْ شَاهَدْنَا مَمَّنْ عَرَفَ الْإِصْطِنَاعَ ، وَاسْتَحْلَى الصَّنَائِعَ ، وَارْتَنَحَ لِلذِّكْرِ الطَّيِّبِ ، وَاهْتَرَّ لِلْمَدِيحِ ، وَطَرِبَ عَلَى نَغْمَةِ السَّائِلِ ، وَاعْتَمَمَ خَلَّةَ الْمُحْتَاجِ ، وَأَنْتَهَبَ الْكَرَمَ انْتِهَابًا ، وَأَلْتَهَبَ فِي عِشْقِ الشَّنَاءِ أَلْتِهَابًا ، أَبُو مُحَمَّدٍ الْمُهَلَّبِيُّ ، فَإِنَّهُ قَدَّمَ قَوْمًا وَنَوَّهَ بِهِمْ ، وَنَبَّهَ عَلَى فَضْلِهِمْ وَأُخْوَجَ النَّاطِرِينَ فِي أَمْرِ الْمُلْكِ إِلَيْهِمْ ، وَإِلَى كِفَايَتِهِمْ ، مِنْهُمْ أَبُو الْفَضْلِ الْعَبَّاسُ بْنُ الْحُسَيْنِ ، وَمِنْهُمْ ابْنُ مَعْرُوفٍ الْقَاضِي ، [وَمِنْهُمْ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْيَقْرَنِيُّ] ، وَمِنْهُمْ أَبُو إِسْحَاقَ الصَّابِيُّ ، وَأَبُو الْخَطَّابِ الصَّابِيُّ ، [وَمِنْهُمْ أَحْمَدُ الطُّوَيْلِ ، وَمِنْهُمْ أَبُو الْعَلَاءِ صَاعِدٌ ، وَمِنْهُمْ أَبُو أَحْمَدَ بْنُ الْهَيْثَمِ ، وَابْنُ خَفْصٍ صَاحِبُ الدِّيْوَانِ] ، وَفُلَانٌ وَفُلَانٌ ، هَؤُلَاءِ إِلَى غَيْرِ هَؤُلَاءِ^(٣) ، [كَأَبِي تَمَّامٍ الزَّيْنِيُّ ، وَأَبِي بَكْرٍ الزَّهْرِيُّ] ، وَابْنُ قَرِيعةٍ ، وَأَبِي حَامِدٍ الْمَرْوُزِيُّ ، [وَأَبِي عَبْدِ اللَّهِ الْبَصْرِيُّ] ، وَأَبِي سَعِيدٍ السَّيرَافِيُّ ، [وَأَبِي مُحَمَّدٍ الْفَارِسِيُّ] ، وَابْنُ دُرُسْتُوهِ ، [وَابْنُ الْبِقَالِ] ، وَالسَّرِيُّ ، وَمَنْ لَا يُحْصَى كَثْرَةُ مِنَ التَّجَارِ وَالْعُدُولِ .

وَقَالَ لِي [ابْنُ سُورِينَ] : كَانَ أَبُو مُحَمَّدٍ يَطْرَبُ عَلَى أَصْطِنَاعِ الرِّجَالِ كَمَا يَطْرَبُ

(١) فِي الْأَصُولِ «يُوجَدُ» ؛ وَهُوَ تَحْرِيفٌ صَوَابُهُ مَا اثْبَقْنَا كَمَا يَقْتَضِيهِ قَوْلُهُ بَعْدَ «مُعْجَلٌ» .
(٢) فِي (١) : «يَسْقَى تَرْبَهَا ، مَكَانٌ «يَفْقَهُ بِرَبِّهَا» . وَفِي (ب) : «بَرِّهَا» ، بِالْبَاءِ الْمُثَنَّى : وَهُوَ تَصْحِيفٌ فِي كِلْتَا الْفُسْخَتَيْنِ . يَقَالُ : رَبُّ الصَّنِيعَةِ يَرْبِيهَا - بَضْمُ الرَّاءِ - إِذَا نَمَاهَا وَتَعَمَّدهَا .

(٣) فِي (ب) الَّتِي وَرَدَ فِيهَا وَحْدَهَا هَذَا الْكَلَامُ : «هَذَا إِلَى غَيْرِ هَذَا» .

سامِعُ الغِنَاءِ عَلَى الشَّابِيرِ^(١) ، وَيَرْتَأُحُ كَمَا يَرْتَأُحُ مُدِيرُ الكَأْسِ عَلَى العِشَائِرِ . وقال عنه : [إِنَّه] قال : والله لَا كَوْنَنَ فِي دَوْلَةِ الدَّيْلَمِ ، أَوَّلَ مَنْ يُذَكَّرُ ، إِنْ فَاتَنِي أَنْ كُنْتُ فِي دَوْلَةِ بَنِي العَبَّاسِ آخِرَ مَنْ يُذَكَّرُ .

فلولا أَنْكَ - أَدَامَ اللهُ دَوْلَتَكَ - أَذِنْتُ لِي أَنْ أَكْتُبَ إِلَيْكَ كُلَّ مَا هَجَسَ فِي النَفْسِ ، وَطَلَعَ بِهِ الرَّأْيُ مِمَّا فِيهِ مَرَدُّ عَلَى مَا أَنْتَ فِيهِ مِنْ هَذَا الثَّقَلِ البَاهِظِ ، وَتَنْبِيءُ عَلَى مَا تُبَاشِرُهُ بِكَاهِلِكَ البُصْحَمِ ، لَمْ يَكُنْ خَطَرِي يَتَلَعُّ مُوَاجَهَتَكَ بَلْفِظٍ يَثْقُلُ ، وَإِشَارَةٍ تَغْلُظُ ، وَكُنَايَةٍ تَخْدِشُ^(٢) ، لَكِنَّكَ وَاللهُ يَأْخُذُ بِدِيكَ ، وَيَقْرُنُ الصَّنْعَ الجمِيلَ بِظَاهِرِكَ وَبِاطْنِكَ قَدْ رَخِصْتَ لِي فِي ذَلِكَ ، وَخَصَصْتَنِي بِهِ مِنْ بَيْنِ غَاشِيَةِ بَابِكَ ، وَخَدَمَ دَوْلَتِكَ ، فَلِذَلِكَ أَقُولُ مَا أَقُولُ مُعْتَمِداً عَلَى حُسْنِ تَقَبُّلِكَ^(٣) ، وَجَمِيلِ تَكْفُّلِكَ^(٤) ، وَمُنْتَظَرِ تَفَضُّلِكَ ؛ وَلَيْسَ فِي أَبْوَابِ السِّيَاسَةِ شَيْءٌ أَجْدَى وَأَنْفَعُ ، وَأَنْفَى لِلْفَسَادِ وَأَقْمَعُ ، مِنْ الِاعْتِبَارِ المَوْقِظِ لِلنَفْسِ ، البَاعِثِ عَلَى اخْتِذِ الحَزْمِ ، وَتَجْرِيدِ العَزْمِ ؛ فَإِنَّ الوِكَالَ^(٥) وَالهُوَيْنَا قَلَمًا يُفْضِيَانِ بِصَاحِبِهِمَا إِلَى ذَلِكَ مَأْمُولٍ ، وَتَبَلٍ مُرَادٍ ، وَإِصَابَةٍ مُتَمَنَّى . وَقَدْ قَالَ رَجُلٌ كَبِيرُ الحِكْمَةِ ، مَعْرُوفُ الحِكْمَةِ : المُعْتَبَرُ كَثِيرٌ ، وَالْمُعْتَبَرُ قَلِيلٌ . وَصَدَقَ هَذَا الرَّجُلُ الصَّالِحُ ، وَهُوَ الحَسَنُ البَصْرِيُّ :

لَوْ أَعْتَبَرْتُ مِنْ تَأَخَّرَ بَعْدِي مَنْ تَقَدَّمَ ، لَمْ يَكُنْ مِنْ يَتَحَسَّرُ فِي النَّاسِ^(٦) ، وَلَكِنْ اللهُ بَنَى هَذِهِ الدَّارَ عَلَى أَنْ يَكُونَ أَهْلُهَا بَيْنَ يَقْظَةٍ وَنَوْمٍ ، وَبَيْنَ فَرَحٍ وَتَرْحٍ ، وَبَيْنَ خَيْطَةٍ^(٧) وَوَرْقَةٍ ، وَبَيْنَ حَزْمٍ وَغَفْلَةٍ ، وَبَيْنَ نِزَاعٍ وَسَلْوٍ ، لَكِنْ الِاخْتِذَ بِالْحَزْمِ - وَإِنْ جَرَى عَلَيْهِ مَكْرُوهٌ - أَعْذَرُ عِنْدَ نَفْسِهِ وَعِنْدَ كُلِّ مَنْ كَانَ فِي مَسْكِهِ ، مِنَ الْمُتَلَفِي بِيَدِهِ ، وَالْمُتَدَلَّى بِغُرُورِهِ ، وَالسَّاعِي فِي ثُبُورِهِ ؛ وَمَا وَهَبَ اللهُ العَقْلَ لِأَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ عَرَّضَهُ لِلنَّجَاةِ ، وَلَا خَلَاءَ بِالْعِلْمِ إِلَّا وَقَدْ دَعَا إِلَى العَمَلِ بِشَرَائِطِهِ ، وَلَا هِدَايَةَ الطَّرِيقَيْنِ (أَعْنَى الغَى وَالرُّشْدَ) إِلَّا لِيَزْحَفَ إِلَى أَحَدِهِمَا بِحُسْنِ الِاخْتِيَارِ .

(١) فِي كِلْتَا النُّسخَتَيْنِ : « السَّابِرِ » ؛ وَهُوَ تَحْرِيفُ صَوَابِهِ مَا اثْبَتْنَا كَمَا يَقْتَضِيهِ سِيَاقُ الْكَلَامِ . وَالشَّابِيرُ جَمْعُ شَابِيرٍ . وَهُوَ مِنَ الْإِتِّاقِ المَوْسِيقِيِّ .

(٢) فِي كِلْتَا النُّسخَتَيْنِ : « تَخْرَسُ » ؛ وَهُوَ تَحْرِيفُ صَوَابِهِ مَا اثْبَتْنَا كَمَا يَقْتَضِيهِ سِيَاقُ مَا قَبْلَهُ .

(٣) فِي كِلْتَا النُّسخَتَيْنِ : « تَقَلِّبُكَ » ؛ وَهُوَ تَحْرِيفٌ .

(٤) فِي (ب) : « تَكْلُفُكَ » ؛ وَهُوَ تَحْرِيفٌ .

(٥) ف (أ) : « الوِكَالُ » ، بِالضَّمِّ . وَفِي (ب) : « الوِكَالُ » ، بِالتَّكْوِينِ ؛ وَهُوَ تَحْرِيفٌ فِي كِلْتَا النُّسخَتَيْنِ .

(٦) فِي (ب) : « فِي الدُّنْيَا » .

فِي كِلْتَا النُّسخَتَيْنِ : « غِيْطَةٌ » ؛ وَلَعَلَّهُ تَحْرِيفٌ ، إِذِ الْغِيْطَةُ لَا تَقْبَلُ الْوَرْقَةَ ، وَالَّذِي يَقْبَلُهَا الْحَبِيْطَةُ كَمَا اثْبَتْنَا .

هذا بالأمر أبو الفضل العباس بن الحسين الوزير - وهو في وزارته وبسطة أمره ونهيه - قيل له ذات يوم : هذا التركي ساسنكر^(١) تقياً بظله ، واعتصم بحبله ، واستشق بسجله ، وارث من سوره ، ولا يئله عنك ، ما يوحشه منك ، ويخفيه^(٢) عليك . وقد قيل :

★ أسجد لقرء السوء في زمانه ★

وإذا لم تقدر على قطع يد جائرة ، فقبلها متهمة^(٣) منجدة غائرة . فلم يفعل ، حتى وجد أعداؤه طريقاً إليه ، فسلكوه وأوقعوه .
ثم قيل له في الوزارة الثانية : قد دقت مرارة النكبة ، وتحرق بنار الشماعة ، وتأرق على فرط^(٤) العجز والفسالة ، وقد كان من ذلك كله ما كان ، ودار لك بما تمنيت^(٥) الزمان ؛ فأنظر أين تضع الآن قدمك ، وبأي شيء تدير لسانك وقلمك ، فإن مخلصك من ورطتك بالمرصاد ، وقد وعدت من نفسك إن أعاد الله يدك^(٦) إلى البسطة ، ورد حالك إلى السرور والغبطة ، أنك تجمل المعاملة ، وتسي^(٧) المقابلة ، وتلقي وليك وعدوك بالإحسان إلى هذا ، والكف عن هذا ، حتى يتساوياً بنظرك ، وتتعبدا لك بتفضلك .
فكان من جوابه ما دل على عتوه وثباته^(٨) ، لأنه قال : أما سمعتم الله تعالى حيث يقول : ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ ؟
وقال لى القومسي^(٩) - ولم يعلم ما فى فحوى هذا الكلام - : ماذا ؟ قلت :

(١) لم نجد هذا الاسم فيما راجعناه من معجمات الأعلام التركية ، والذي وجدناه ، سنجر ، بالسين والجيم وبلا سين والـ في أوله .

(٢) فى (١) ، ويخفه ، وهو تحريف .

(٣) فى كلتا النسختين ، بهمه ، وهو تحريف .

(٤) فى كلتا النسختين ، فطرات ، والظاهر أن فى حروفه قلباً وقع من الناسخ . كما أن فى كلتا النسختين : وارقت ، مكن ، وتارقت ، وما اثبتناه أولى للملاحة بينه وبين قوله قبل : وتحرق ، .

(٥) فى (ب) . قلننت ، والمعنى يستقيم عليه أيضاً .

(٦) فى (ب) . أعاد الله بك أيامك البسيطة ، وفى بعض كلماتها تحريف لا يخفى .

(٧) كذا فى (١) . والذي فى (ب) : « وتسي » ، وهو تحريف . وتسي المقابلة ، أى لا تقابل الذنب بما يستحقه من عقوبة بل تعفو .

(٨) وثباته ، أى ثباته على ما كان عليه من سوء السياسة .

(٩) فى كلتا النسختين المسمى : وهو تحريف ما ترى ، صوابه ما اثبتنا .

فحواه ولو عادوا إلى ما نهوا عنه لعدنا [إلى مقابلتهم بما استحقوا عليه .
 وصدق ما قال الله عز وجل ، مَالَبْتَ ذَلِكَ الْإِنْسَانَ بَعْدَ هَذَا الْكَلَامِ إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى
 أَوْرَدَهُ ^(١) وَلَمْ يُضِدِّرْهُ وَأَعَثَّرَهُ وَلَمْ يَنْعِشْهُ ، وَسَلَّمْ إِلَى عَدُوِّهِ حَتَّى آتَمَلَ رُوحَهُ مِنْ بَيْنِ
 جَنَّتَيْهِ ، شَافِيًا بِهِ وَمُشْتَفِيًا مِنْهُ ، وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهِ خُسْرًا ، وَلَوْ اتَّقَى اللَّهُ لَكَانَ أَجْرُ أَمْرِهِ
 يُسْرًا . وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ .

وهذا بَعْدَهُ مُحَمَّدُ بْنُ بَقِيَّةَ طَعَنَى وَبَغَى ، وَاقْتَحَمَ ظُلُمَاتِ الظُّلْمِ وَالْعُسْفِ ،
 وَطَارِبِجْنَانِ اللَّهِ وَالْعَرْفِ ، وَالشُّرْبِ الْقُصْفِ ، وَمَلَّ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ ، وَضَلَّ بَيْنَ
 إِمْهَالِ اللَّهِ وَإِمْلَاتِهِ ، فَحَاقَ بِهِ مَا ذَهَبَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ وَمَالُهُ ، وَخُرِبَ بَيْتُهُ ، وَافْتَضَحَ
 أَهْلُهُ ، وَكَيْفَ كَانَ يَسْلَمُ ؟ أَمْ كَيْفَ كَانَ يَنْجُو وَقَدْ قَتَلَ ابْنَ السَّرَّاجِ بِلا ذَنْبٍ ،
 وَالْجَرَجَرَاثِي ^(٢) بِلا حِجَّةٍ ، وَضَرَبَ ابْنَ مَعْرُوفٍ بِالسَّيَاطِ وَأَبَا الْقَاسِمِ - أَخَا أَبِي مُحَمَّدٍ
 الْقَاضِي - وَشَهَّرَهُ عَلَى جَمَلٍ فِي الْجَانِبِ الشَّرْقِيِّ ؟
 وَالتَّشَفَّى حُلُو الْعِلَاقِيَّةِ ، وَلَكِنَّهُ مَرُّ الْعَاقِبَةِ ، وَكَأَنَّ الْحَفِيفَةَ إِنَّمَا خُلِقَتْ لِتُعْتَقَدَ ^(٣) ،
 وَالْحَقْدَ إِنَّمَا وُجِدَ لِيُبْلَغَ بِهِ مَا يُسَرُّ الشَّيْطَانُ .

وَكَأَنَّ الْعَفْوَ حَرَامًا ، وَالْكُظْمَ ^(٤) مُحْظُورًا ، وَالْمُكَافَأَةَ مَأْمُورًا بِهَا .
 وَهَذَا بِالْأَمْسِ عَلَى بْنِ مُحَمَّدٍ ذَوِ الْكِفَايَتَيْنِ ، اغْتَرَّ بِشَبَابِهِ ، وَلَهَا عَنْ الْحَزْمِ وَالْأَخْذِ
 بِهِ فِيمَا كَانَ أَوْلَى بِهِ ، وَظَنَّ أَنَّ كِفَايَتَهُ تَحْفَظُهُ ، وَنَسَبَهُ مِنْ أَبِيهِ يَكْنُفُهُ ، وَبِرَأَاةٍ تَحْتِجُّ
 لَهُ ، وَذُنُوبِهِ الصَّغِيرَةَ تُغْتَفَرُ ؛ لِإِلَاقَةِ الْمَذْكُورِ ، وَغَنَائِهِ الْمَشْهُورِ ؛ وَمَشَى فَعَثَرَ ،
 وَرَابَ ^(٥) فَخَثَرَ ، وَالْأَوَّلُ يَقُولُ :
 مِنْ سَابِقِ الدَّهْرِ كَبَا كَبُوءٌ لَمْ يَسْتَقِيلْهُمَا آخِرُ الدَّهْرِ
 فَاخْطَأَ مَعَ الدَّهْرِ إِذَا مَا خَطَأَ وَأَجْرٍ مَعَ الدَّهْرِ كَمَا يَنْجَرِي
 وَقَالَ لِي الْخَلِيلُ - وَكَانَ لَطِيفَ الْمَحَلِّ عِنْدَهُ ، لِمَا كَانَ يَرَى مِنْ اخْتِصَاصِ أَبِيهِ
 لَهُ ، وَلِمَا يَظْهَرُ مِنْ فَضْلِهِ عِنْدَهُ - : قُلْتُ لَهُ يَوْمًا : يَا هَذَا ، فِي أَيِّ شَيْءٍ أَنْتَ ؟ وَيَأَى

(١) أوردته ولم يصدره فاعل الفعلين ضمير يعود على الكلام السابق ذكره . أى ورده كلامه الخ .

(٢) فى (١) : « الجرجاني » .

(٣) فى (١) : « لتعتد » . وفى (ب) : « لتتخذ » : وهو تحريف فى كلتا الكلمتين .

(٤) فى كلتا النسختين : « والظلم » : وهو تحريف .

(٥) فى (١) : « وداب فخر » . وفى (ب) : « وداب فخر » : ولعل الصواب ما لفتنا .

شيء تَعَلَّلُ؟! وقد سُجِّدَتِ المَوَاسِي ، وَخُدِّدَتِ الأَنْيَابُ ، وَفُتِلَتِ المَرَاثِرُ ^(١) ، وَنُصِبَتِ الفِخَاخُ ، وَالْعِيُونُ مَحْدَقَةٌ نَحْوَ القَطِيعَةِ ، وَالْأَعْنَاقُ صُورٌ ^(٢) إِلَى الفَقِيعَةِ ، وَأَنْتَ لَاهِ سَاءَ عَمَّا يُرَادُ بِكَ بَعْدُ؟ يَسْبِيكَ ^(٣) هَذَا المَزْرَفَنُ ^(٤) وَهَذَا المُرْجِي ^(٥) وَهَذَا المَعْرُضُ ^(٦) ، وَهَذَا الحَلِيقُ ، وَهَذَا التَّيْفُ ، وَهَذَا المَعْقَرُبُ الصَّدْعُ ، وَهَذَا المَضْفُوفُ الطَّرَةُ ، وَبِالْكَاسِ ^(٧) وَالطَّاسُ ، وَالْغِنَاءُ وَالْقَصْفُ ، وَالنَّايُ وَالْعُودُ ، وَالصُّبُوحُ وَالْغُبُوقُ ، وَالشَّرَابُ المُرُوقُ الْعَتِيقُ ؛ وَاللَّهُ مَا أَدْرِي مَا أَصْنَعُ ، إِنْ سَكَتُ عَنْكَ كَمِدْتُ ، وَإِنْ نَصَحْتُكَ خِفْتُ مِنْكَ ؛ وَتَعَوَّذُ بِاللَّهِ مِنْ أَشْيَاءِ الرِّأْيِ ، وَاشْتِهَابِكَ الْأَمْرِ ، وَقِلَّةِ الْأَحْتِرَاسِ ، وَالْإِعْرَاضِ عَمَّا يَجْرِي مِنْ أَفْوَاهِ النَّاسِ .

يا هذا ، سُوءُ الِاسْتِمْسَاكِ خَيْرٌ مِنْ حُسْنِ الصَّرْعَةِ ، وَتَلَقَّى الْأَمْرِ بِالْحَزْمِ وَالشَّهَامَةِ أَوْلَى مِنْ اسْتِدْبَارِهِ بِالْحَسَرَةِ وَالنَّدَامَةِ ، وَمَنْ لَا تَجْرِبَةَ لَهُ يَقْتَسِبُ مِنْ لَهْ تَجْرِبَةٍ ، فَإِذَا نَقِبَ الْحُفَّ دَمِيَ الْأَظْلَى . فَقَالَ : قَدْ فَرَّغَ اللَّهُ مِنَّمَا هُوَ كَاتِنٌ ، وَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ .

قَالَ : قُلْتُ لَهُ : مَا أَطْلَعَكَ اللَّهُ عَلَى كَائِنَاتِ الْأُمُورِ ، وَلَا أَعْلَمَكَ بِعَوَاقِبِ الْأَحْوَالِ ، وَإِنَّمَا عَرَفَكَ حَظُّكَ بَعْدَ أَنْ ^(٨) وَفَرَ عَقْلَكَ ، وَأَخْضَرَكَ اسْتَطَاعَتَكَ ، وَأَوْضَحَ ، لِقَلْبِكَ مَا عَلَيْكَ وَلَكَ ، حَتَّى يَسْتَشِفَّ وَيَسْتَكْشِفَ ، وَمَلَكَكَ النُّوَاصِي حَتَّى تَمُنَّ ^(٩) وَتُرْسِلَ ، وَمَا طَالَبَكَ إِلَّا بَعْدَ أَنْ أَرَاهُ عِلَّتَكَ ، وَلَا عَاقِبَكَ إِلَّا بَعْدَ أَنْ أَنْذَرَكَ وَأَنْظَرَكَ ، وَبِمِثْلِ هَذَا تُطَالِبُ أَنْتَ مَنْ هُوَ دُونَكَ مِنْ خَدَمِكَ وَحَشَمِكَ ، وَأَوَّلِيَّاتِكَ

(١) في (أ) : « وقبليت » . وفي (ب) : « وفتلت » : وهو تصحيف في كلتا النسختين . وفي (أ) : « المدابر » مكان المراتر : وهو تحريف أيضا . والمرائر : الحبال ، جمع مريرة .

(٢) صور : أي مائلة . إلى الفطيمة ، أي إلى النكبة الفطيمة . وفي كلتا النسختين : « العظيمة » . وما اثبتناه هو ما يستقيم به السجع الذي التزمه المؤلف في بعض فقراته .

(٣) في (أ) : « يعدر تشبئك » . وفي (ب) : « يعد بسبيك » : وهو تحريف في كلتا النسختين .

(٤) المزرفن الذي يجعل صدغيه كالزرفين ، وهي الحلقة .

(٥) كذا في (ب) والذي في (أ) : « المزرجن » ، ولا معنى له هنا .

(٦) المعرض بتشديد الراء الذي ثبت شعر عارضيه . كما يقال عذر الغلام بتشديد الذال إذا ثبت شعر عذاره .

(٧) وبالكاس متعلق بقوله قبل : « لاه » .

(٨) كذا في (ب) . والذي في (أ) : « مقدار » مكان « بعد أن » : وهو تحريف .

(٩) في (أ) : « تمل وترشد » . وفي (ب) : « تمل » : وهو تحريف في كلتا النسختين صوابه ما اثبتناه . وتمن وترسل ، أي تمن بالغفو عن إساء ، وترسله من أمسكته ، أي تطلقه .

وأعدائك ، وهذا الذى أعذبك عليه هو الذى به تغدُل غيرك وتراه ضالاً فى مسلكه ،
متعرّضاً لمهلكه .

فقال : أَبْظِلْنِي وَلِيَّ نِعْمَتِي صَراخاً بلا ذَنْب ، وَنَجِّنَاخِي (١) بلا جَرِيْمَةٍ : وَيَسْلَمْ
دَوْلَتَهُ بلا حُجَّة ؟

قلت : الله يَقيك ويَكْفِيك ، نَرَاكَ بلا ذَنْب ، وَنَجِدُكَ بريئاً مِنْ كُلِّ غَيْب ، وَغَيْرُكَ
لا يَرَاكَ بهذه العين ، ولا يَحْكُمُ لك بهذا الحُكْم ؛ فَإِنْ كُنْتَ تَرَى فُرْصَةً فَاتَّهَظْهَا ،
وإن كُنْتَ تَحْلُمُ بَغُضَةٍ (٢) فَاحْتَرِزْ منها ؛ فَأَبْوَابُ النِّجَاةِ مُفْتَتِحَةٌ ، وَطُرُقُ الْأَمَانِ
مُتَوَجِّهَةٌ ، والأخذ بالاحتياط واجب ، قد قَرَّبَ الشَّائِخُصُّ مِنْ هَذَا الْمَكَانِ ، وَالْقِيَامَةُ قد
قَامَتْ بِالْإِرْجَافِ ، وَالطَّيْرَةُ قُشْعِرِيْرَةُ النَّفْسِ ، كَمَا أَنَّ الْقُشْعِرِيْرَةَ طَيْرَةُ الْبُذْنِ ،
وَالْأَسْتِرْسَالُ كَلَالُ الْحِجْسِ ، وَالْقَالُ لِسَانُ الزَّمَانِ ، وَعُتُونُ الْجِدْثَانِ ، وَلَا يَقَعُ فِي
الْأَفْوَاهِ إِلَّا مَا يُوجِبُ الْحَذَرَ ، وَيَبْعَثُ عَلَى الرَّأْيِ وَالنَّظَرِ ، وَاسْتَقْرَأِ الْأَثَرَ وَالْخَبَرَ .
قال : أَمَا أَنَا بَعْدَ التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ فَقَدْ اسْتَظْهَرْتُ بِمُحَمَّدٍ بْنِ إِبْرَاهِيمَ صَاحِبِ
نِيسَابُورٍ ، وَيَفْخِرُ الدَّوْلَةَ وَهُوَ بِهَمْدَانَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ، وَبِعِزِّ الدَّوْلَةِ وَهُوَ بِمَدِينَةِ
السَّلَامِ ؛ وَمَتَى حَرَبٌ حَارِبٌ ، وَرَأْبٌ رَائِبٌ ، أَوَيْتُ إِلَى وَاحِدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ .
قال : قلت : هَاهُنَا مَا هُوَ أَسْهَلُ مِنْ هَذَا وَإِنْ كَانَ أَهْوَلَ ، وَأَنْجَى وَإِنْ كَانَ
أَشْجَى ، وَأَقْرَبَ وَإِنْ كَانَ أَعَزَبَ .

قال : مَا هُوَ ؟ فَرُجْ عَنِّي وَأَهْدِنِي .

قلت : لَمَّا يَدْخُلُ هَذَا الْوَارِدُ [الدَّارَ] ، وَيَذْنُو مِنْ طَرَفِ الْبَسَاطِ ، تَنْبَرُّ رَأْسُهُ عَنْ
كَاهِلِهِ ، وَتُلْقَى شِلْوُهُ فِي مَزْبَلَةٍ ، فَإِنَّ الْهَيْئَةَ تَقَعُ ، وَالنَّائِرَةُ تَخْبُو ، وَالْعَجَبُ يَغْمُرُ ،
وَالظُّنَّةُ تَزُولُ ، وَالصَّدْرُ يَشْتَفِي ، وَالْإِعْتِذَارُ يَسْتَفِي ؛ وَيُكْتَبُ إِلَى مَوْفِيهِ بِأَنَّ الرَّأْيَ أَوْجِبُ
هَذَا الْفِعْلِ ، لِأَنَّهُ غَلَبَ عَلَى الظَّنِّ أَنَّهُ وَافَى لِكَيْدِ يَوْصِلُهُ إِلَى ، وَبَلَاءٍ يُفْرِغُهُ عَلَى ،
فَأَزَلْتُ هَذَا الظَّنَّ بِالْيَقِينِ ، وَدَفَعْتُ الشُّبُهَةَ بِالْجَلَاءِ ، وَاسْتَخْلَصْتُ النُّورَ مِنَ الظُّلَامِ ؛
وَلَأَنْ تُبْجِدَ سَاقِطاً مِنْ خَدَمِكَ ، يَسُوءُ ظَنِّي بِهِ مِنْ جَهَنِكَ ، وَيَقْدَحُ فِي طَاعَتِي ،
[وَيُضْرِمُ فِي نَارِ التُّهْمَةِ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ؛ خَيْرٌ لِي فِي نَصِيحَتِي لِدَوْلَتِكَ ، وَخَيْرٌ لَكَ] فِي

(١) كَذَا فِي (ب) . وَالَّذِي فِي (أ) : « يَجْنِيئَا » .
(٢) فِي (أ) : « بَعْضُ ، بِالْعَيْنِ وَالضَّمَّة » . وَفِي (ب) : « بَقِصَةٌ ، بِالْقَافِ وَالضَّمَّة » : وَهُوَ تَحْرِيفٌ صَوَابُهُ مَا لِيَقْنَا .

بِقَائِي^(١) عَلَى أَمْرِكَ وَنَهَيْكَ ، مِنْ أَنْ يَلْتَأَتِ ضَمِيرِي فِي سِيَاسَةِ دَوْلَتِكَ ، وَتَحُولَ
يَتْنِي^(٢) عَمَّا عَهَدْتُ مِنَ الْقِيَامِ بِحَقِّ جُنْدِكَ وَرَعِيَّتِكَ ، وَحِفْظِ قَاصِيَّتِكَ وَدَانِيَّتِكَ .
فَقَالَ : هَذَا أَعْظَمَ ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ .
وَلَيْتَنِي أَصَبْتُ بِهَذَا الرَّأْيِ^(٣) أَمْرًا عَلَا عَقْلُهُ ، فَيَقْبَلَهُ بَيَّانٌ ، أَوْ يَرُدَّهُ بِرُهَانٍ ، فَكَانَ
يَقْوَى أَوْ يَضْعَفُ ، وَيُقَدِّمُ عَلَيْهِ أَوْ يُحْجِمُ عَنْهُ ، فَإِنَّ الْمُبَرَّمِ أَقْوَى مِنَ السَّجِيلِ ،
وَالسِّمِينِ أَحْمَدُ مِنَ النَّجِيلِ ؛ ثُمَّ كَانَ مَا كَانَ . وَكَانَ مَشَايِخُ الْعِرَاقِ وَالْجَبَلُ يَرَوْنَ
مَا حَدَّثَ بِذَلِكَ الْفَتَى أَمْرًا قَرِيبًا ، وَظُلُمًا غَبْرِيًّا .
وَحَدَّثَنِي الْقَوْمِيُّ أَنَّهُ لَمْ يَتَقَدَّمْ بِذَلِكَ أَمْرًا ، وَلَا سَبَقَ بِهِ إِذْنًا ، وَلَكِنْ لَمَّا حَدَّثَ
مَا حَدَّثَ ، وَقَعَ عَنْهُ إِسْكَاتٌ ، وَسُتِرَتْ الْكِرَاهِيَّةُ وَالْإِنْكَارُ .

وَالْأُمُورُ أَيُّهَا الْوَزِيرُ ظُهُورٌ وَيُطَوَّنُ ، وَهَوَادٍ وَأَعْجَازٌ ، وَأَوَائِلُ وَأَوَاخِرُ ؛ وَلَيْسَ عَلَى
الْإِنْسَانِ أَنْ يُدْرِكَ النِّجَاحَ فِي الْعَوَاقِبِ ، وَإِنَّمَا عَلَيْهِ أَنْ يَتَحَرَّرَ فِي الْمَبَادِيءِ ؛ وَلِهَذَا
قَالَ الْقَائِلُ :

لَأَمْرِ عَلَيْهِمْ أَنْ تَسِمَ صُدُورُهُ وَلَيْسَ عَلَيْهِمْ أَنْ تَسِمَ عَسَاقِبُهُ
وَقَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ أَوْ غَيْرُهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ : مَا لُمْتُ نَفْسِي عَلَى قَوْتِ أَمْرٍ
بَدَأْتُهُ بِحَزْمٍ ، وَلَا حَمِدْتُهَا عَلَى ذَرِكِ أَمْرٍ بَدَأْتُهُ بِعَجْزٍ .

هَاهُنَا نَاسٌ إِذَا تَلَاقَوْا يَنْتَفِثُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ بِمَا هُوَ صَرِيحٌ وَكِنَايَةٌ ، وَيَحْتَاجُ الْأَمْرُ
إِلَى ابْنِ يَوْسُفَ ، وَيَسْتَمْلِي^(٤) الْخَبِيثُ مِنَ الْجَالِسِ فَوْقَ مَشْرِعَةٍ مَكَانَ الرُّوَايَا .
^(٥) وَلَيْسَ يَصِحُّ كُلُّ مَا يَقَالُ فَيُرَوَّى عَلَى وَجْهِهِ ، وَلَيْسَ يَخْفَى أَيْضًا كُلُّ مَا يَجْرِي
فِيْمَسْكٍ عَنْهُ ؛ وَالْأُمُورُ مَرَجَةٌ ، وَالصُّدُورُ حَرَجَةٌ ، وَالْإِحْتِرَاسُ وَاجِبٌ ، . وَالنَّصِيحُ

(١) كَذَا فِي (ب) . وَالَّذِي فِي (ا) : « ثَنَائِي » ؛ وَهُوَ تَحْرِيفٌ .

(٢) فِي كِلْتَا النُّسَخَتَيْنِ : « بِيْنِي » ؛ وَهُوَ تَصْحِيفٌ .

(٣) وَرِدَتْ هَذِهِ الْعِبَارَةُ فِي كِلْتَا النُّسَخَتَيْنِ هَكَذَا « وَلَيْتَنِي أَصَبْتُ مِنْ أَمْرِ بِهَذَا الرَّأْيِ عَلَى عَقْلِهِ » ؛ وَفِيهَا تَقْدِيمٌ
وَتَأْخِيرٌ وَتَحْرِيفٌ إِذْ لَا مَعْنَى لَهَا عَلَى هَذَا الْوَجْهِ ؛ وَلَعَلَّ الصَّوَابَ مَا اثْبَتْنَا .

(٤) عِبَارَةٌ (ا) : « وَمَسَلَمَ الْخَبِيثُ مِنَ الْحَالِطِينَ فَوْقَ مَشْرِعَةٍ » ؛ وَفِيهَا تَحْرِيفٌ ظَاهِرٌ وَفِي (ب) : « الْحَبِيبُ » ، مَكَانَ
« الْخَبِيثِ » ؛ وَهُوَ تَصْحِيفٌ أَيْضًا . وَيُرِيدُ بِالْخَبِيثِ ابْنَ يَوْسُفَ .

(٥) وَرَدَ فِي (ا) قَبْلَ قَوْلِهِ : « وَلَيْسَ يَصِحُّ » قَوْلُهُ : « فَصَلْ » .

مَقْبُول ، وَالرَّأْيَ مُشْتَرَك ، وَالثَّقَّةُ بِاللَّهِ مِنَ اللُّوْازِمِ عَلَى مَنْ عَرَفَهُ وَآمَنَ بِهِ ، وَلَيْسَ مِنْ
اللَّهِ عِزٌّ وَجَلُّ بُدٌّ عَلَى كُلِّ حَالٍ .

وَاللَّهُ أَسْأَلُ الدِّفَاعَ عَنْكَ ، وَالْوَقَايَةَ لَكَ ، فِي مُضْهِجِكَ وَمُفْسَاكِ ، وَفِي مَهْمَتِكَ
وَمَقِيلِكَ ، وَشَهَادَتِكَ وَغَيْبَتِكَ ، وَلِذَوِي مَلِيحَا^(١) فِي هَذَا الْبَابِ تَفْعُحُ وَإِيقَادُ ، وَتَنَاقُلُ
وَأَثِمَارُ^(٢) ، وَمَسْئَلَةٌ وَجَوَابُ .

وَعِنْدَ الشَّيْخِ أَبِي الْوَفَاءِ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ وَمِنْ غَيْرِهِ مِمَّا يَتَّصِلُ بِهِ مِنْ نَاحِيَةِ ابْنِ
الْيَزِيدِيِّ مَا يَجِبُ أَنْ يُصَاحَّ لَهُ بِالْأُذُنِ الْوَاعِيَةِ ، وَيُقَابَلُ بِالنَّفْسِ الرَّاعِيَةِ ، وَيُدَاوَى
بِالدَّوَاءِ النَّاجِعِ ، وَتُحَسَّمْ مَادَّتُهُ مِنَ الْأَصْلِ ، فَإِنَّ الْفَسَادَ إِذَا زَالَ حَصَلَ مَكَانَهُ الصَّلَاحُ .
وَلَيْسَ بَعْدَ الْمَرَضِ إِلَّا الْإِفْرَاقُ ، وَلَا بَعْدَ التَّرْعِ إِلَّا الْإِغْرَاقُ .

إِلَى هَاهُنَا أَنْتَهَى نَفْسِي بِالنُّصْحِ وَإِنْ كَانَتْ شَفَقَتِي^(٣) تَتَجَاوَرُهُ ، وَجَرَّصِي يَسْتَعْلِي
عَلَيْهِ ، لَكِنِّي خَادِمٌ ، وَكَمَا يَجِبُ عَلَى أَنْ أُخْطَمَ بِنِيَّاتِ^(٤) الصَّدْرِ ، فَيَنْبَغِي أَنْ أَلْزَمَ
الْحَدَّ بِحُسْنِ الْأَدَبِ .

وَاللَّهُ إِنِّي لَوَادٌّ مُخْلِصٌ ، وَعَبْدٌ طَائِعٌ ، وَرَجَائِي الْيَوْمَ أَقْوَى مِنْ رَجَائِي أَمْسٍ ،
وَأَمَلِي غَدًا أَبْسَطُ^(٥) مِنْ أَمَلِي الْيَوْمَ ؛ أَشْكُو إِلَيْكَ الْأَرْقَ بِاللَّيْلِ فِكْرًا فِيمَا يُقَالُ ،
وَتَحَفُّظًا^(٦) مِمَّا يُنَالُ ، وَتَوْهُمًا لِمَا لَا يَكُونُ [إِنْ كَانَ] ، وَشُرًّا الْعِدَا ، الَّذِينَ يَتَمَنُونَ
لَأُولَى يَنْعَمْتَهُمُ الرَّدَى ، وَيَبْتَئُونَ النُّكَاثَ^(٧) وَيَكْسِرُونَ الْأَجْفَانَ^(٨) ، وَيَتَخَازِرُونَ
بِالْأَعْيُنِ ، وَيَتَجَاهَرُونَ بِالْأَذَى إِذَا تَلَاقُوا ، وَيَتَهَامَسُونَ بِالْأَلْسُنِ إِذَا تَدَانَوْا ، وَاللَّهُ يَضْرَعُ
جُدُودَهُمْ ، وَيَضْرَعُ خُدُودَهُمْ بَيْنَ يَدَيْكَ ؛ وَهَذِهِ الرَّقَّةُ مِنِّي وَالْحَفَاوَةُ ، وَهَذِهِ الرَّعْشَةُ
وَالْقَلَقُ ، وَهَذَا التَّقَبُّعُ وَالتَّفَرُّعُ كُلُّهُ ، لِأَنِّي مَا رَأَيْتُ مِثْلَكَ ، وَلَا شَاهَدْتُ شِبْهَكَ ، كَرَّمَ
خَيْمَ ، وَلَيْنَ عَرِيكَةَ ، وَجُودَ بَنَانٍ ، وَحُضُورَ بَشَرٍ ، وَتَهَلَّلَ وَجْهَ ، وَحُسْنَ وَعْدٍ ، وَقُرْبَ

(١) كَذَا وَرِدَتْ هَذِهِ الْعِبَارَةُ فِي (ب) وَلَمْ تَقْبَلْ مِنْ هَمِ ذَوِي مَلِيحَا .

(٢) فِي كُلِّمَا النُّسَخَتَيْنِ : « وَتَنَاقُلُ وَأَثِمَارُ » : وَهُوَ تَصْحِيفٌ .

(٣) فِي كُلِّمَا النُّسَخَتَيْنِ : « شَفَقَتِي » : وَهُوَ تَحْرِيفٌ .

(٤) فِي (أ) : « تَبَيَّنَ » . وَفِي (ب) : « بَلَّيْتُ » . وَهُوَ تَصْحِيفٌ .

(٥) فِي (ب) : « انْشَطَ » .

(٦) فِي (ب) : « وَغَيْظًا » .

(٧) فِي (ب) : « الْبَيْلِيَّةُ » . وَهُوَ تَحْرِيفٌ .

(٨) فِي (أ) : « الْإِظْفَارُ » . وَهُوَ تَحْرِيفٌ .

إنجاز ، وبذل مال ، وحُب حِكْمَةٍ^(١) .

قد شاهدتُ ناسًا في السَّفر والحَضَر ، صِغارًا وكبارًا وأوساطًا ، فما شاهدتُ مَنْ يَدِينُ بالمَجْد ، وَيَتَحَلَّى^(٢) بالجدود ، وَيَرْتَدِي بالعَفْو ، وَيَتَأَزَّرُ^(٣) بالجَلْم ؛ وَيُعْطَى بالمُجْزَأَف ، وَيَفْرَحُ بالأَضْيَاف ، وَيَصِلُ الإسْعَافَ بالإسْعَاف ، والإِتْحَافَ بالإِتْحَاف ، غَيْرَكَ .

والله إِنَّكَ لَتَهَبُ الدرهمَ والدينارَ وكأنَّكَ غَضَبَانُ عليهما ، وتُطْعِمُ الصادرَ والواردَ كأنَّ الله قد آسَخَلَكَ على رِزْقِهما ؛ ثم تَتَجَاوَزُ الذهبَ والفضَّةَ إلى الثيابِ العزيزة ، والخَلَعِ النفيسة ، والخَيْلِ العتاق ، والمَرَائِبِ الثقال ، والعِلْمانَ والجواري ، حتَّى الكُتُبَ والدفاترَ وما يَضُنُّ به كُلُّ جَوَاد ؛ وما هذا مِنْ سَجَايا البَشَرِ إلا أَنْ يَكُونَ فاعِلُ هذا نَبِيًّا صادقًا ، وَوَلِيًّا لله مُجْتَبَى ، [فَإِنَّ الله قد أَمَّنَ هذا الصنفَ من الفقر ، وَرَفَعَ من قلوبهم عِزَّ المال] ، وَهَوَّنَ عليهم الإفراجَ عن كُلِّ مُنْفَسٍ^(٤) ، ياقوتًا كان أودرًا ، ذهبًا كان أو فضةً ؛ كفاكَ اللهُ عَيْنَ الحاسدينَ ، وَوَقَاكَ كَيْدَ المُفسِدينَ ، الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عليهم بالأمس على رُؤوسِ الأشهاد ، وكانوا كَحَصَى فَجَعَلْتَهُمْ كالأطواد ؛ وهم يَكْفُرُونَ بأياديكَ ، ويوالُونَ أعاديكَ ، وَيَتَمَنَّوْنَ لك ما أَرْجُو أَنْ الله يَعْصِبَهُ برُؤوسِهِمْ ، وَيَنْزِلَهُ على أرواحِهِمْ ، وَيُذَيِّقَهُمْ وَبَالَ أمرِهِمْ ، وَيَجْعَلُهُمْ عِبْرَةً لِكُلِّ مَنْ يراهم وَيَسْمَعُ بهم ، كان اللهُ لَكَ وَمَعَكَ ، وحَافِظَكَ ونَاصِرَكَ .

أطلتُ الحديثَ تَلَذُّذًا بمواجهَتِكَ ، وَوَصَلْتُهُ خِدْمَةً لِدَوْلَتِكَ ، وَكَرَّرْتُهُ تَوْقَعًا لِحُسْنِ مَوْقِعِهِ عِنْدَكَ ، وَأَعَدْتُهُ وَأَبْدَيْتُهُ طَلِبًا للمكانَةِ في نَفْسِكَ .

وَأَرْجُو أَنْ شاءَ اللهُ ألا أُحْرِمَ هَبَّةً مِنْ رِيحِكَ ، وَنَسِيمًا مِنْ سَحَرِكَ ، وَخَيْرَةً بِنَظَرِكَ . لَمْ أَوْفِقْ في هذه الكلمة الأخيرة ، والله ما يَمُرُّ بي يَأْسٌ مِنْ إِنْعامِكَ فَأَقْوِيهِ بِالرُّجَاءِ ، وَلَا يَغْتَرِينِي وَهْمٌ في الْخَيَّةِ لَدَيْكَ فَأَتَلَفَاهُ بِالْأَمَلِ . إِنَّمَا قُصَارَى أُمْنِيَّتِي إِذَا حُكِّمْتُ أَنْ أُعْطَى فَيْكَ سُؤْلِي بِالْبَقَاءِ الْمَدِيدِ ، وَالْأَمْرِ الرَّشِيدِ ، وَالْعَدْوِّ الصَّرِيعِ ، وَالْوَلِيِّ الرَّفِيعِ ،

(١) كذا في (ب) . والذي في (أ) : « وبذل ما أوجب حكمة » . وهو تحريف كما لا يخفى .

(٢) في كلتا النسختين : « ويتحلل » . وهو تحريف صوابه ما أثبتنا ، إذ ليس انتحال الجود مما يمدح به .

(٣) في كلتا النسختين : « ويبازر » . وهو تحريف .

(٤) كذا في (أ) . والذي في (ب) « مهسر » . ولا يستقيم معه الكلام الآتي بعده .

والدَّوْلَةُ الْمُسْتَبِيَّةُ ، والأحوالِ الْمُسْتَحْبَةِ ، والآمالِ الْمَبْلُوغَةِ ، والأمانِ الْمُدْرَكَةِ . مع الأمرِ وَالنَّهْيِ النَّافِذَيْنِ ، بَيْنَ أَهْلِ الْخَافِقَيْنِ ؛ وَاللَّهِ يُبَلِّغُنِي ذَلِكَ بِطَوْلِهِ وَمَتْنِهِ .

وآخرُ ما أقول ، أَيُّهَا الْوَزِيرُ : مِرُّ بِالصَّدَقَاتِ ، فَإِنَّهَا مَجْلَبَةُ السَّلَامَاتِ وَالْكَرَامَاتِ ، مَذْفَعَةٌ لِلْمَكَارِهِ وَالْآفَاتِ ؛ وَاهْتِجِرِ الشَّرَابَ ، وَأَدِمِ النَّظَرَ فِي الْمُصْحَفِ ، وَأَفْزِعْ إِلَى اللَّهِ فِي الاسْتِخَارَةِ ، وَإِلَى الثَّقَاتِ بِالِاسْتِشَارَةِ ؛ وَلَا تَبْخُلْ عَلَى نَفْسِكَ بِرَأْيٍ غَيْرِكَ ، وَإِنْ كَانَ خَامِلًا فِي نَفْسِكَ ، قَلِيلًا فِي غَيْتِكَ ، فَإِنَّ الرَّأْيَ كَالدَّرَّةِ الَّتِي رُبَّمَا (١) وَجَدْتَ فِي الطَّرِيقِ وَفِي الْمَرْبَلَةِ ، وَقَلٌّ مِنْ فَرْعٍ إِلَى اللَّهِ بِالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ ، وَإِلَى الصَّدِيقِ بِالِإِسْعَادِ (٢) مِنْهُ ، إِلَّا أَرَاهُ اللَّهُ النَّجَاحَ فِي مَسْئَلَتِهِ ، وَالْقَضَاءَ لِحَاجَتِهِ ؛ وَالسَّلَامَ .

فقال لي الْوَزِيرُ بَعْدَ مَا قَرَأَ الرِّسَالَةَ : يَا أَبَا مَرْيَدَ (٣) ، بَيَّضْتُهَا ، وَعَجِبْتُ مِنْ تَشْفِيقِ الْقَوْلِ فِيهَا ، وَمِنْ لُطْفِ (٤) إِيْرَادِكَ لَهَا ، وَمِنْ بَلَّةِ رِيْقِكَ بِهَا .

وَاللَّهُ يُحَقِّقُ مَا نَأْمُلُهُ لَهُ ، وَنَرْجُوهُ لَأَنْفُسِنَا ، وَيُنْخَسِرُ عَنْنَا هَذَا الضَّبَابُ الَّذِي رَكَدَ عَلَيْنَا ، وَيَزُولُ الْغَيْمُ الَّذِي اسْتَعْرَضَ فِي أَمْرِنَا ، وَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ، ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ .

رسالة في شكوى البؤس ورجاء المعونة وَجَّهَ بِهَا الْمُؤَلِّفُ إِلَى الشَّيْخِ أَبِي الْوَفَاءِ الْمُهَنْدِسِ الَّذِي كَتَبَ لَهُ الْمُؤَلِّفُ هَذَا الْكِتَابَ . وَخَتَمَ كِتَابَهُ بِهَا :

أَيُّهَا الشَّيْخُ ، سَلَّمَكَ اللَّهُ بِالصَّنْعِ الْجَمِيلِ ، وَحَقَّقَ لَكَ وَفِيكَ وَبِكَ غَايَةَ الْمَامُولِ . هَذَا آخِرُ الْحَدِيثِ ، وَخَتَمْتُهُ بِالرِّسَالَتَيْنِ ، وَيَتَقَرَّرُ جَمِيعُ مَا جَرَى وَدَارَ (٥) عَلَى وَجْهِهِ ، إِلَّا مَا لَمْ يَمُتْ شَعْنًا ، وَزَيَّنْتُ (٦) بِهِ لَفْظًا ، وَزَيَّنْتُ مَنْقُوصًا ، وَلَمْ أَظْلِمْ مَعْنَى بِالْتَّحْرِيفِ ، وَلَا مِلْتُ فِيهِ إِلَى التَّحْوِيرِ (٧) ؛ وَأَرْجُو أَنْ يَبَيِّضَ وَجْهِي عَيْنُكَ بِالرِّضَا عَنِّي ، فَقَدْ كَادَ وَعْدُكَ فِي عَنَائِكَ (٨) يَأْتِي عَلَيَّ ، وَأَنَا أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَحْفَظَ عَنَائِكَ

(١) فِي (١) الَّتِي وَرَدَ فِيهَا وَحْدَهَا هَذَا الْكَلَامُ : « إِنَّمَا » . وَهُوَ تَحْرِيفٌ . وَالسِّيَاقُ يَقْتَضِي مَا اثْبَتْنَا .

(٢) فِي (١) الَّتِي وَرَدَ فِيهَا هَذَا الْكَلَامُ : « بِالْإِشْهَادِ » : وَهُوَ تَحْرِيفٌ . وَسِّيَاقُ الْكَلَامِ يَقْتَضِي مَا اثْبَتْنَا .

(٣) فِي (١) الَّتِي وَرَدَ فِيهَا وَحْدَهَا هَذَا الْكَلَامُ : « يَا أَبَا فَرِيد » .

(٤) فِي (١) الَّتِي وَرَدَ فِيهَا وَحْدَهَا هَذَا الْكَلَامُ : « لَفْظًا » : وَهُوَ تَحْرِيفٌ .

(٥) فِي (١) الَّتِي وَرَدَ فِيهَا وَحْدَهَا هَذَا الْكَلَامُ : « وَدَارَ » : وَهُوَ تَحْرِيفٌ .

(٦) فِي (١) الَّتِي وَرَدَ فِيهَا وَحْدَهَا هَذَا الْكَلَامُ : « وَرَقَّيْتُ » : وَهُوَ تَحْرِيفٌ .

(٧) فِي (١) الَّتِي وَرَدَ فِيهَا وَحْدَهَا هَذَا الْكَلَامُ : « التَّجْوِيزُ » بِالْجِيمِ وَالزَّاي : وَهُوَ تَحْرِيفٌ .

(٨) فِي (١) الَّتِي وَرَدَ فِيهَا وَحْدَهَا هَذَا الْكَلَامُ : « غَنَّاكَ » : وَهُوَ تَحْرِيفٌ صَوَابُهُ مَا اثْبَتْنَا كَمَا يَقْتَضِيهِ سِيَاقُ الْكَلَامِ .

على ، كسابق اهتمامك بأمرى^(١) ، حتى أنملك بهما^(٢) ما وعدتني من تكملة هذا الوزير الذي قد أشبع كل جائع ، وكسا كل عار ، وتألف كل شارد ، وأحسن إلى كل مريض^(٣) ، ونوة بكل خامل ، ونفق^(٤) كل هزيل ، وأعز كل ذليل ؛ ولم يبق في هذه الجماعة على فقره ويؤبه ، ومرة وبأيه ، غيري ؛ مع خدمتي السالفة والآتية ، وبذلي كل مجهود ، ونسخي كل عويص ، وقيامي بكل صعب ؛ والأمور مقدرة ، والمخطوط أقسام ، والكذح لا يأتي بغير ما في اللوح .

فصل

خلصني أيها الرجل^(٥) من التكفف ، أنقذني من لبس الفقر ، أطلقني من قيد الضر ، اشترني بالإحسان ، اعتدني بالشكر ، استعجل لسانى بفنون المذح ، إكفني مؤونة الغداء والعشاء .

إلى متى الكسيرة اليابسة ، والبقيلة الذابية ، والقيمص المرقع ، وباقلي ذرب الحاجب ، وسذاب ذرب الرواسين ؟

إلى متى التأدم بالخبز والزيتون ؟ قد والله بيع الحلق ، وتغير الخلق ؛ الله الله في أمري ؛ اجبرني فإني مكسور ، اسقني فإني صيد ، أغشى فإني ملهوف ، شهري فإني غفل ، حلني فإني عاطل .

قد أدلني السفر من بلد إلى بلد ، وحذلني الوقوف على باب باب ، ونكرني العارف بي ، وتباعده عني القريب مني .

أغررك مشكوكه حين قال لك : قد لقيت أباحيان ، وقد أخرجته مع صاحب البريد إلى قرميسين ؟

والله ثم وحياتك التي هي حياتي ، ما انقلب من ذلك بنفقة شهر ، والله نكل لي بالعود ، فإن الأراجيف اتصلت ، والأرض اقشعرت ، والنفوس استوحشت ، وتشبه

(١) ورثت هذه العبارة في (١) التي ورد فيها وحدها هذا الكلام هكذا « بأعريجي » . ولا معنى لها على هذا الوجه : والصواب ما أثبتنا . كما يقتضيه السياق .

(٢) بهما . أي بالعناية والاهتمام .

(٣) في (١) التي ورد فيها وحدها هذا الكلام : « مريض » : وهو تحريف .

(٤) في (١) التي ورد فيها وحدها هذا الكلام : « ونفق » : وهو تحريف .

(٥) يريد بالرجل أبا الوفاء وهو الذي قربه إلى الوزير .

كُلُّ ثَعْلَبٍ بِأَسَدٍ ، وَقَتْلَ كُلِّ إِنْسَانٍ لِعَدُوِّهِ حَبْلًا مِنْ مَسَدٍ .
 أَيُّهَا الْكَرِيمُ ، أَرْحَمُ ؛ وَاللَّهُ مَا يَكْفِينِي مَا يَصِلُ إِلَيَّ فِي كُلِّ شَهْرٍ مِنْ هَذَا الرِّزْقِ
 الْمُقْتَرِ الَّذِي يَرْجِعُ بَعْدَ التَّقْيِيرِ وَالتَّيْسِيرِ إِلَى أَرْبَعِينَ دِرْهَمًا مَعَ هَذِهِ الْمَثُونَةِ الْغَلِيظَةِ ،
 وَالسَّفَرِ الشَّاقِّ^(١) ، وَالْأَبْوَابِ الْمُحَجَّبَةِ ، وَالْوُجُوهِ الْمُقَطَّبَةِ ، وَالْأَيْدِي الْمُسْمَرَةِ ،
 وَالنَّفُوسِ الضَّيْقَةَ ، وَالْأَخْلَاقِ الدَّنِيئَةَ .

أَيُّهَا السَّيِّدُ ، أَقْصِرْ تَأْمِيلِي ، إِرْغَ ذِمَامِ الْمِلْحِ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ، وَتَذَكَّرِ الْعَهْدَ فِي
 صُحْبَتِي ، طَالِبَ نَفْسِكَ بِمَا يَقْطَعُ حُجَّتِي ، دَعْنِي مِنَ التَّعْلِيلِ الَّذِي لَا مَرَدَّ لَهُ ،
 وَالتَّسْوِيفِ الَّذِي لَا آخِرَ مَعَهُ .

ذَكَرَ الْوَزِيرُ أَمْرِي ، وَكَرَّرَ عَلَى أُذُنِهِ ذِكْرِي ، وَأَمَّلَ عَلَيْهِ سُورَةَ مِنْ شُكْرِي ، وَأَبْعَثَهُ
 عَلَى الْإِحْسَانِ إِلَيَّ .

افْتَحَ عَلَيْهِ بَابًا يُغْرِي^(٢) الرَّاعِبَ فِي اصْطِنَاعِ الْمَعْرُوفِ لَا يَسْتَغْنِي عَنِ الْمَرْغَبِ ،
 وَالْفَاعِلِ الْخَيْرِ لَا يَسْتَوْجِشُ مِنَ الْبَاعِثِ عَلَيْهِ .

أَنْفَقَ جَاهَكَ فَإِنَّهُ بِحَمْدِ اللَّهِ عَرِيضٌ ، وَإِذَا جُدَّتْ بِالْمَالِ فَجُدْ أَيْضًا بِالْجَاهِ ، فَإِنَّهُمَا
 أَخَوَانٌ .

سَرَّخَنِي رَسُولًا إِلَى صَاحِبِ الْبَطَائِحِ أَوْ^(٣) إِلَى أَبِي السُّؤْلِ الْكُرْدِيِّ^(٤) أَوْ إِلَى غَيْرِهِ
 مِمَّنْ هُوَ فِي الْجِبَالِ ، هَذَا إِنْ لَمْ تُؤْهِلْنِي بِرِسَالَةٍ إِلَى سَعْدِ الْمَعَالِمِ بِأَطْرَافِ الشَّامِ ،
 وَإِلَى الْبَصْرَةِ ، فَإِنِّي أُبْلِغُ فِي تَحْمَلِ مَا أُحْمَلُ ، وَأُدْأِ مَا أُؤْدَى ؛ وَتَرْبِيْنِ مَا أُزَيْنُ ،
 حَدًّا^(٥) أُمْلِكُ بِهِ الْحَمْدَ ، وَأَعْرِفُ فِيهِ بِالنَّصِيحَةِ وَأُسْتَوْفِي فِيهِ عَلَى الْغَايَةِ . دَعَّ هَذَا ،
 وَدَعَّ لِي أَلْفَ دِرْهَمٍ ، فَإِنِّي أَتَّخِذُ رَأْسَ مَالٍ ، وَأُشَارِكُ بِقَالَ الْمَحَلَّةِ فِي ذَرْبِ
 الْحَاجِبِ ، وَلَا أَقْلَ مِنْ ذَا ، تَقْدِمُ إِلَى كَسَجِ^(٥) الْبَقَالِ حَتَّى يَسْتَعِينَ بِي لِأَبِيعَ

(١) وَرَبَّتْ هَذِهِ الْعِبَارَةُ فِي (أ) الَّتِي وَرَدَ فِيهَا وَحْدَهَا هَذَا الْكَلَامُ هَكَذَا ، وَالسَّعْرُ الشَّارِي ، وَهُوَ تَحْرِيفُ صَوَابِهِ
 مَا اثْبَتْنَا اخْتِذَا مِنْ سِيَاقِ الْكَلَامِ .

(١) فِي (أ) الَّتِي وَرَدَ فِيهَا وَحْدَهَا هَذَا الْكَلَامُ : « يَفْنَى » بِالضَّمِّ : وَهُوَ تَحْرِيفُ صَوَابِهِ مَا اثْبَتْنَا
 (٢) فِي (أ) الَّتِي وَرَدَ فِيهَا وَحْدَهَا هَذَا الْكَلَامُ : « لَوْلَى » : وَهُوَ تَحْرِيفٌ .
 (٣) كَذَا وَرَدَ هَذَا الْإِسْمُ فِي (أ) الَّتِي وَرَدَ فِيهَا وَحْدَهَا هَذَا الْكَلَامُ دُونَ (ب) وَلَمْ نَهْتِدْ إِلَى وَجْهِ الصَّوَابِ فِيهِ
 (٤) فِي (أ) الَّتِي وَرَدَ فِيهَا وَحْدَهَا هَذَا الْكَلَامُ : « جَدَا » بِالْجِيمِ : وَهُوَ تَصْحِيفٌ .
 (٥) كَذَا وَرَدَ هَذَا الْإِسْمُ بِالْكَافِ وَالسِّينِ وَالْجِيمِ فِي (أ) الَّتِي وَرَدَ فِيهَا وَحْدَهَا هَذَا الْكَلَامُ وَلَمْ نَقِفْ عَلَى وَجْهِ
 الصَّوَابِ فِيهِ .

الدُّفَاتِر . قُلْتُ : الْوَزِيرُ مَشْغُولٌ . فَمَا أَصْنَعُ بِهِ إِذَا قَرَعْتُ ، فَالشَّاعِرُ يَقُولُ :
« تُنَاطُ بِكَ الْأَمَالُ مَا اتَّصَلَ الشُّغْلُ »

قَدْ وَاللَّهِ نَسِيتُ صَدْرَ هَذَا الْبَيْتِ ، وَمَا بَالُ^(١) غَيْرِي يُنَوِّلُهُ وَيُمَوِّلُهُ مَعَ شُغْلِهِ^(٢) وَأَحْرَمَ
أَنَا ؟ ! أَنَا كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

وَيَزُقُّ أَضَاءَ الْأَرْضِ شَرْقًا وَمَغْرِبًا وَمَوْضِعُ رَجُلِي مِنْهُ أَسْوَدُ مُظْلَمٌ
وَاللَّهُ إِنَّ الْوَزِيرَ مَعَ أَشْغَالِهِ الْمَتَّصِلَةِ ، وَأَثْقَالِهِ الْبَاهِظَةِ ، وَفِكْرِهِ الْمَفْضُوضِ^(٣) وَرَأْيِهِ
الْمَشْتَرَكِ ، لِكَرِيمٍ مَاجِدٍ ، وَمُفْضِلٍ مُحْسِنٍ ، يَرْغَى الْقَلِيلَ مِنَ الْحُرْمَةِ ، وَيُعْطِي
الْجَزِيلَ مِنَ النُّعْمَةِ ، وَيُحَافِظُ عَلَى الْيَسِيرِ مِنَ الدَّمَامِ ، وَيَتَقَبَّلُ مَذَاهِبَ الْكِرَامِ ،
وَيَتَلَذَّذُ بِالشَّيْءِ إِذَا سَمِعَ ، وَيَتَعَرَّضُ لِلشُّكْرِ مِنْ كُلِّ مُتَجَعِّعٍ ، وَيَزْرَعُ الْخَيْرَ ، وَيَحْصُدُ
الْأَجْرَ ، وَيُوَاطِبُ عَلَى كَسْبِ الْمَعْجَدِ ، وَيَثَابِرُ عَلَى آجِتِلَابِ الْحَمْدِ ، وَيَنْخَدِعُ
لِلْمَسَائِلِ ، وَيَتَهَلَّلُ فِي وَجْهِ الْأَمَلِ ، وَلَا يَتَبَوَّأُ مِنَ الْفَضَائِلِ إِلَّا فِي دُرَاهِمِ رَحِيمٍ بِكُلِّ
غَايٍ وَرَائِحٍ ، وَلِكُلِّ صَالِحٍ وَطَالِحٍ .

وَأَنَا الْجَارُ الْقَدِيمُ ، وَالْعَبْدُ الشَّاكِرُ ، وَالصَّاحِبُ الْمَخْبُورُ ، وَلَكِنَّكَ مُقْبِلٌ
كَالْمُعْرِضِ ، وَمُقَدَّمٌ كَالْمُؤَخَّرِ^(٤) ، وَمُوقِدٌ كَالْمُخْمِدِ ، تُذْنِبُنِي إِلَى حَقِّي بِشِمَالِكَ ،
وَتَجْذِبُنِي عَنْ نَيْلِهِ بِيَمِينِكَ ، وَتُعْدِنِي بِوَعْدٍ كَالْعَسَلِ ، وَتُعْشِينِي بِبَاسٍ كَالْحَنْظَلِ ،
« وَمَنْ »^(٥) كَانَ عَتَبَهُ عَلَى مِظَنَّةِ عِيكَ ، فَلَيْسَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ تَقْصِيرُهُ عَلَى تَيْقَنِهِ^(٦)
بِنَصْرِكَ .

نَعَمْ ؛ عَتَبْتُ فَأَوْجَعْتُ ، وَعَرَفْتُ الْبِرَاءَةَ فَهَلَا نَفَعْتُ ؟ وَاللَّهُ مَا أَدْرَى مَا أَقُولُ ، إِنَّ
شُكْرَكَ عَلَى ظَاهِرِكَ الصَّحِيحِ لَذَعْتُكَ لِبَاطِنِكَ السَّقِيمِ ، وَإِنْ حَمِدْتُكَ عَلَى أَوَّلِكَ

(١) وَرَبَّتْ هَذِهِ الْعِبَارَةُ فِي (أ) الَّتِي وَرَدَ فِيهَا وَحْدَهَا هَذَا الْكَلَامُ هَكَذَا ، وَمَا نَالُ غَيْرِي سَوْءٌ وَتَحْوِيلٌ مَعَ شُغْلِهِ
وَأَخْرَجْتُ مِنْهَا : « فِيهَا تَحْرِيفٌ ظَاهِرٌ لَا يَسْتَقِيمُ بِهِ الْمَعْنَى .

(٢) يُنَوِّلُهُ وَيُمَوِّلُهُ . أَيْ نَوَّلَهُ الْوَزِيرُ وَيُمَوِّلُهُ . مَعَ شُغْلِهِ ، أَيْ مَعَ شُغْلِ الْوَزِيرِ .

(٣) الْمَفْضُوضُ ، أَيْ الْمَتَفَرِّقُ غَيْرُ الْمَجْتَمِعِ .

(٤) فِي (أ) الَّتِي وَرَدَ فِيهَا وَحْدَهَا هَذَا الْكَلَامُ : « وَمُؤَخَّرٌ كَالْمَقْدَمِ » : وَفِي كِلَا الْكَلِمَتَيْنِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ مِنَ
النَّاسِخِ : وَالسِّيَاقُ يَقْتَضِي مَا أَتَيْنَاهُ .

(٥) كَذَا وَرَدَ هَذَا الْكَلَامُ فِي الْأَصْلِ . وَفِيهِ تَحْرِيفٌ ظَاهِرٌ لَمْ نَهْتَدِ إِلَى وَجْهِ الصَّوَابِ فِيهِ .

(٦) عَلَى تَيْقَنِهِ . أَيْ مَعَ تَيْقَنِهِ . « وَيَكُونُ ، هَذَا تَامَةً .

الجميل ، أفسدتُ لآخركَ الذى ليس بجميل .
قد أَطَلْتُ ، ولكنْ ما شُفِيتُ ، ونَهَلْتُ وَعَلَلْتُ ، ولكنْ ما رَوِيتُ .
وَأَخِرُ ما أَقُولُ : أَفْعَلْ ما تَرَى ، وَأَصْنَعْ ما تَسْتَخِيسُ ، وَأَبْلُغْ ما نَهَوَى ، فليسَ واللهِ
مِنْكَ بُدٌّ ، وَلَا عَنكَ غِنَى .
وَالصَّبْرُ عَلَيْكَ أَهْوَنُ مِنَ الصَّبْرِ عَنكَ ، لَأَنَّ الصَّبْرَ عَنكَ مَقْرُونٌ بِالْيَاسِ ، وَالصَّبْرُ
عَلَيْكَ رَبُّمَا يُؤَدِّي إِلَى رَفْعِ هَذَا الْوَسْوَاسِ ، وَالسَّلَامُ لِأَهْلِ السَّلَامِ .

* * *

الهوامل والشوامل

طرح التوحيدى على الفيلسوف
المعاصر له مسكويه مجموعة من
الأسئلة (هكذا يقول التوحيدى !) .
الأسئلة أسماها الهوامل وهى الإبل
السائمة يهملها صاحبها ويتركها
ترعى ، والأجوبة هى الشوامل أى
الحيوانات التى تضبط الإبل الهوامل
فتجمعها .

اعتمدنا على الطبعة النادرة
الصادرة عن مطبعة لجنة التأليف
والنشر عام ١٩٥١ . بتحقيق المرحوم
أحمد أمين والمرحوم أحمد صقر .
ولم يطبع الكتاب مرة أخرى حتى
تاريخه .

لماذا الشوق إلى ما مضى ؟

ما السبب في اشتياق الإنسان إلى ما مضى من عمره حتى إنه لَيَجُنَّ حينَ الإبل ، ويكي بكاء المُنْمَلِج . وَيَطُولُ فَكْرُهُ بِتَخَيُّلِهِ مَا سَلَفَ ؟ وبهذا المعنى هتف الشاعر فقال :
لم أبك من زمن ذممت صُرُوفهُ إِلَّا بِكَيْتٍ عَلَيْهِ حِينَ يَسْزُولُ^(١)
وقال الآخر :

رَبِّ يَوْمٍ بِكَيْتٍ مِنْهُ فَلَمَّا صرْتُ فِي غَيْرِهِ بِكَيْتٍ عَلَيْهِ^(٢)
وقال آخر :

وَأَرْجُو غَدًا فَإِذَا مَا أَتَى بِكَيْتٍ عَلَى أُمْسِيهِ السَّاهِبِ^(٣)
هذا العارضُ يَغْتَرَى وَإِنْ كَانَ الْمَاضِي مِنَ الزَّمَانِ فِي ضَيْقٍ وَحَاجَةٍ ، وَكَرْبٍ وَشِدَّةٍ ، وَمَا ذَاكَ كَذَاكَ إِلَّا لِبَسْرِ النَّفْسِ الْإِنْسَانُ غَيْرُ شَاعِرٍ بِهِ ، وَلَا وَاجِدٍ لَهُ إِلَّا إِذَا طَالَ فَحْصُهُ ، وَزَالَ نَقْصُهُ ، وَاشْتَدَّ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ تَشْبِيرُهُ ، وَاتَّصَلَ فِي اقْتِبَاسِ الْحِكْمَةِ رَوَاحُهُ وَيُكْوَرُهُ ، وَكَانَتْ الْكَلِمَةُ الْحَسَنَاءُ أَشْرَفَ عِنْدَهُ مِنَ الْجَارِيَةِ الْعِذْرَاءِ ، وَالْمَعْنَى الْمَقُومُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنَ الْمَالِ الْمَكُونِ ، وَعَلَى قَدَرِ عَنَابِهِ يَحْطَى بِشَرَفِ الدَّارَيْنِ ، وَيَتَحَلَّى بِزِينَةِ الْمَحَلِّينِ .

الجواب

قال أبو علي مسكويه - رحمه الله -
ليس يَشْتَأِقُ إِلَى الشَّبَابِ وَالصَّبَا إِلَّا أَحَدُ رَجُلَيْنِ :
إِمَّا فَاقَدَ شَهَوَاتِهِ وَلَذَاتِهِ الَّتِي سَوَّرَتْهَا وَجَدَّتْهَا وَقَتَ الشَّبَابِ .
وَأَمَّا فَاقِدُ صِحَّتِهِ فِي السَّمْعِ وَالْبَصَرِ ، أَوْ بَعْضِ أَعْضَائِهِ الَّتِي قُوَّتُهَا وَوُفُورُهَا زَمَنَ الصَّبَا وَحِينَ الْحِدَاثَةِ .
وَالْمَعْنَى الْأَوَّلُ أَكْثَرُ مَا يَتَشَوَّقُ ، فَإِنَّ الْمُكْتَهِلَ وَالْمُجْتَمِعَ وَمَنْ بَلَغَ الْأَشُدَّ - الَّذِي لَا يَنْكَرُ شَيْئًا مِنْ حَوَاسِهِ - يَتَشَوَّقُ إِلَى الصَّبَا ، وَالشَّيْخُ لَا يَعْلَمُ مِنْ نَفْسِهِ وَرَأْيِهِ وَقُوَّةَ عَقْلِهِ شَيْئًا مِمَّا كَانَ يَجِدُهُ فِي شَبَابِهِ ، اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَهْرَمَ وَيَلْحَقَهُ الْخَرَفُ ، فَحِينَئِذٍ لَا يُذَكِّرُ بِشَيْءٍ مِنَ التَّشَوُّقِ ، وَلَا يوصف به ، وَلَا يَحْتَجُ بِرَأْيِهِ .

(١) ورد هذا البيت غير منسوب في محاضرات الأدباء للراغب الاصفهاني ٢/٢٢٣ وفي معناه يقول إبراهيم بن العباس الصولي :

سَقِيَا وَرَعِيَا أَيَّامَ مَضَتْ سَلَفَا بِكَيْتٍ مِنْهَا فَصُرَتْ الْيَوْمَ أَبْكِيهَا
كَذَاكَ إِيَّامَنَا لِأَشْكَ نَسْدِيهَا إِذَا نَقَضَتْ وَنَحْنُ الْيَوْمَ نَشْكُوهَا

(٢) البيت بهذه الرواية في كتب ، الأدب . لجعفر بن شمس الخلافة غير منسوب أيضا . وفي ديوان أبي الغناحية من ٢٨٨ :

كَمْ زَمَانٍ بِكَيْتٍ مِنْهُ قَدِيمَا ثُمَّ لَمَّا مَضَى بِكَيْتٍ عَلَيْهِ
(٣) المحفوظ : « على أُمْسِي » .

وهنا سبب ثالث يُشَوِّق إلى الصبا وهو أن الأمل حينئذ في البقاء قوى . وكأن الإنسان ينتظر أمامه حياة طويلة فكلما مضى منها زمان تيقن أنه من أمده المضروب ، وعمره المقسوم ، فاشتاق إلى أن يستأنف به ، طمعاً في البقاء السرمدي الذي لا سبيل للجسد الفاني إليه .

إلا أن المعنى الأول هو الذي ذهب إليه الشعراء فأكثروا فيه ، وقد صرّحوا به وذكره في أشعارهم .

والمتشوّق إلى شهواته صورته عند الحكماء صورة من أُعْبِقَ فاشتاق إلى الرِّق ، أو صورة من أَقْلَتْ من سباع ضارية كانت مقرونة به فاشتاق إلى مُعَاوَذَتِهَا . وذلك أن الشاب تهيم به قوى الطبيعة عند الشهوة وعند الغضب حتى تغمر عقله فلا يستشير لُبّه ، ولا يكاد يظهر أثر العقل عليه إلا ضعيفاً .

وقد بينا فيما تقدّم من المسائل أن فضيلة الإنسان وشرّفه في الجزء الألهي منه ، وإن كان الجزء الآخر ضرورياً له .

فقد بان أن السنّ التي تضعف فيها قوى الطبيعة حتى يقتدر عليها العقل فيزُمّها ، ويجرّها ذليلة طائعة غير متأبّية ولا هائجة - أفضل الأسنان ، والرّجل الفاضل الصالح لا يشتاق من أشرف أسنانه إلى أخسّها .

والدليل البين على أن الأمر على ما حكيناه - أن الشاب العفيف الضابط لنفسه ، القوى على قمع شهواته مشرور بسيرته ، وإن كان في جهد عظيم ، ومحكوم له بالفضل ، مشهود له به عند جميع أهل العقل ، وأنّه إذا كبر وأسنّ لم يشتق إلى الشباب ؛ لأن ضبطه لنفسه ، وقمعه لشهواته أيسر عليه وأهون .

ومن كان فلسفي الطريق ، شريعي المذهب لم تعرض له هذه العوارض - أعني التلهّف على نيل اللذات ، والأسف على ما يفوته منها ، والتّندم على ما ترك وقصر فيها - بل يعلم أن تلك انفعالات خسيّة تقتضي أفعالا دنيّة ، وأن الحكماء - رضي الله عنهم - قد بينوا ذائلها ، وسطّروا الكتب في ذمّها ، وأن الأنبياء - صلوات الله عليهم - قد نهّوا عنها ، وحذّروا منها ، وكتب الله - تعالى وتقدس - ناطقة بجميع ذلك ، مُصدّقة له .

فأى شوق يحدث للفاضل إلى النقص ، وللعالم إلى الجهل ، وللصحيح إلى المرض ؟

وإنما تلك أعراض تعرض للجهال الذين غايتهم الانهماك في الطبيعة والحواس ، وطلب ملاذها الكاذبة ، لا التماس الصّحة ، ولا بلوغ السعادة ، ولا تكميل الفضيلة الإنسانية ، ولا معتبر بهؤلاء ولا التفات إلى أقوالهم وأفعالهم .

لماذا حب الذكر؟

لم أَحِبُّ الإنسانَ أن يعرف ما جرى من ذِكْرِهِ بعد قيامه من مجلسه ، حتى إِنَّه لَيَجُنُّ إلى أن يقف على ما يُؤْبِنُ به بعد وفاته ، ويحبُّ أن يطلع على حقيقة ما يكون ويُقال ؟ وكيف لم يتصنع لفعل ما يُحِبُّ أن يكون منسوباً إليه مُزِيناً به ، هذا وَمَحَبَّتُهُ لذلك طبيعة لورام زواله عنها لما أطاق ذاك ، وإن كَابَرَ طِبَاعَهُ ، وأراد خِدَاعَهُ .

الجواب

قال أبو على مسكويه - رحمه الله :

قد تقدّم لنا في بعض هذه الأجوبة التي مضت أن للنفس قوتين : إحداهما هي التي بها يَشْتاقُ الإنسانُ إلى المعارض واشْتِبابِهَا ، ولما كانت هذه المعرفة عامةً له في سائر الأشياء كانت بما يخصُّه في نفسه التي هي محبوبته ومَعشوقته - أُولَى . فالإنسان يَشْتاقُ إلى هذه المعرفة بالطبع الأول ، والقوة التي هي ذاتيةٌ للنفس ، ثم يَتَزَيَّدُ هذا الشَّوْقُ ، وَيَشْتعل وَيَقْوَى ؛ لأجل اختصاصه بمعرفة أحوال نفسه المحبوبة .

فأما تصنُّعه لفعل ما يُحِبُّ أن يكون منسوباً إليه فإنه ليس يتركه إلا أن يعترضه عارضٌ آخرٌ من شهوة عاجلة تقاومه ، فهي أغلبٌ وأشدُّ مجاذبةً له كما ضربنا به المثل فيما تقدّم من علم المريض بحفظ الصحة ، وحاجته إليها ، ثم إثارة عليها نيل شهوة دنية عاجلة ، وإن فاتته الصّحة المؤثرة في العاقبة . ولولا هذه الشهوات الدنية المُعْترضَةُ على السعادات المؤثرة - ما تميّز الفاضلُ من الناقص ، ولا مُدِيحُ العفيف ، ودُمَّ النَّهْمُ - ، وكنا حينئذ لا ننتفع بالآداب والمواعظ ، وكان لا يحسنُ منا التعبُ والرياضة فيما على الطبيعة فيه كُلفةٌ ومشقة . وهذا بيّن كافٍ في جواب المسألة .

لماذا العلم؟

لم كان الإنسان محتاجاً إلى أن يتعلّم العلم؟ ولا يحتاج إلى أن يتعلّم الجهل ، الأتة في الأصل يوجد جاهلاً؟ فما علّة ذلك؟ فيأثارة علته يتم الدليل على صحته .

الجواب

قال أبو على مسكويه - رحمه الله :

قد تبين في المباحث الفلسفية أن العلم هو إدراك النفس صور الموجودات على

حقائيقها ، ولما قال بعض الأوائل : إن النفس مكان للصورة استحسنه أفلاطون ، وصوب قائله ؛ لأن النفس إذا اشتاقت إلى العلم الذى هو غايتها نقلت صورة المعلوم إلى ذاتها حتى تكون الصورة التى تحصلها مطابقة لصورة المنقول منه ، لا يفضل عليها ، ولا ينقص منها ، وهو حيثئذ علم محض وإن كانت الصورة المنقولة إلى النفس غير مطابقة للمنقول فليس بعلم .

وهذه الصورة كلما كثرت عند النفس قويت على استثبات غيرها ، والنفس فى هذا المعنى كالمناصب للجسد ؛ وذلك أن الجسد إذا حصلت فيه صورة ضعفت عن قبول صورة غيرها ، إلا بأن تنمحي الصورة الأولى منه ، أو تتركب الصورة الأولى والثانية الوراثة فتختلط الصورتان ولا تحصلان ولا إحداهما على التمام ، وليست النفس كذلك .

ولما كانت نفس الإنسان هيولانية مشتاقة إلى الكلام الموضوع لها بأن يتصور بصورة الموجودات كلها ، أعنى الأمور الكلية دون الجزئية ، وكانت قوية على ذلك ، وكانت صورة الموجودات فيها غير مضيفة بعضها مكان بعض ، بل هى بالضد من الأجسام فى أنها كلما استثبتت صورة فى ذاتها قويت على استثبات أخرى ، وخلصت الصور كلها بعضها من بعض وذلك بلا نهاية - كان الإنسان محتاجا إلى تعلم العلم أى إلى استثبات صور الموجودات ، وتحصيلها عنده .

* * *

فأما الجهل فاسم لعدم هذه الصور والمعلومات ، ونحن فى اقتناء هذه الصور محتاجون إلى تكلف واحتمال مشقة وتعب إلى أن نحصل لنا .
فأما عدمها فليس مما يتكلف ويتجشم ، بل النفس عادمة لذلك . ومثل ذلك من المحسوس صورة لوح لا كتابة فيه ، وإثبات الكتابة ، وصور الحروف يكون بتكلف فأما تركه بحاله ، فلا كلفة فيه إلا على مذهب من يرى صورة الأشياء موجودة للنفس بالذات ، وإنما عرض لها النسيان ، وأن العلم تذكر وإزالة لآفة النسيان عن النفس . ولو كان الأمر كذلك لكان جواب المسألة بحسب هذا المذهب بيئا فى أن التعب بإزالة آفة واجب ، وتركه مأوفاً^(١) لا تعب فيه .
ولكن هذا مذهب غير مرغوب فيه ، والشغل به فى هذا الموضع فضل ؛ لأنه ليس

(١) مأوفا : أى مصلبا .

من المسألة في شيء ، وإن كانَّ الكلامُ قد جرَّ إليه ، ولكنَّا ندلُّ على موضعه فليؤخذ
من هناك ، وهو كتب النفس .

فقد تبيَّن أن العلمَ تصوُّر النفس بصورة المعلوم ، والتصوُّرُ تفعلُّ من الصورة .
والجهل هو عدمُ الصورة ، فكيف يستعملُ التَّفَعُّلُ من الصورة في عدم الصورة ؟
هذا مُحال .

لماذا الحياء ؟

لم طال لسان الإنسان في حاجة غيره ، إذا غنى به ، وقصر لسانه في حاجته مع عنايته بنفسه ؟
وما السر في هذا ؟

الجواب

قال أبو علي مسكويه - رحمه الله :
بُنية الإنسان وتركيبه ومبدأ خلقه وقَعَ على أنه ملك ، . فكل إنسان له أن يكون ملكاً
بما أعد له من القوى المساعدة عليه ، ولا ينبغي لأحد أن يقصِّر عن أحد في هذا
المعنى إلا لآفة أو نقص في البنية .
ولما عرض للواحد بعد الواحد أن يسأل غيره ، مع أن موضوعه موضوع الآخر ،
ولم يكن بأن يحتاج إلى صاحبه أولى من أن يحتاج صاحبه إليه - وجب أن تحدث له
عزة نفس تمتعه من التدلُّل .
ولهذه العلة وجب التمدُّن ، وحدث الاجتماع والتعاون ، وحسُن بين الناس
التعامل ، وأن يدفع الإنسان إلى صاحبه [حاجته] (١) إذا كانت عنده ؛ ليستدعي
مثلاً منه ، فيجدها أيضاً عنده .
فالسائل إذا لم يكن معوضاً ، ولا معاملاً ، والتمس الرِّقْد من غيره من غير مقابلة
عليه ، ولا وعد من نفسه بمثله - كان كالظالم ، وأيسر ما فيه أنه قد حطَّ نفسه عن رتبة
خلق عليها ، ونُدِب إليها فقصُر لسانه ، واحتقر نفسه .
فأما إذا تكلم في حاجة غيره لم يعرض له هذا العارض ، فكأنه إنما يحيل بهذا
النقص على من تكلم عنه فانطلق لسانه ، ولم تدلُّ نفسه .

لماذا الصيت بعد الموت ؟

ماسبب الصَّيْب الذي يَتَفَقُّ لبعضهم بعد موته ، وأنه يعيش خاملاً ، ويشتهر ميتاً كمعروف
الكرخي (٢) ؟

(١) زيادة يوجبها السياق .

(٢) كان معروف بن فيروز الكرخي من كبار مشايخ الصوفية . ومن موالى على بن موسى الرضا . وكان استاذ
السقطي . توفي سنة مائتين ، كما في رسالة القشيري ص ٩ - ١٠ .

الجواب

قال أبو علي مسكويه - رحمه الله :
معظم السبب في ذلك الحسد الذي يَغْتَرِي أَكْثَرُ النَّاسِ ، لا سيما إذا كان المحسود قريب المتزلة من الحاسد ، أو كان في درجته من النسب أو الولاية والبلدية أو ما أشبههما ؛ فإن هذه النسب إذا تقاربت بين الناس فاشتركوا فيها ، ثم انفرد أحد منهم بفضيلة نافسه الباقون فيها ، وحسدوه إياها حتى يحملهم الأمر على أن يجحدوه آخر الأمر ؛ ولذلك قيل : أزهد الناس في عام جيرانه ؛ لأن الجوار وكثرة الاختلاط سبب جامع لهم يتساوون فيه ؛ فإذا انفرد أحدهم بفضيلة لحق الباقين ما ذكرته .
وربما كان سبب زهدهم فيه غير هذا ، ولكن الأغلب ما ذكرته .
فأما البعيد الأجنبي فإنه لما لم يجمعه وإياه سبب خف عليه تسليم الفضل له ، وقل عارض الحسد فيه ؛ ولأجل ذلك إذا مات المحسود ، وانقطع السبب الذي بينه وبين الحساد أنشأوا يفضلونه ، ويسلمون له ما منعه إياه في حياته .

لماذا الجزع من الموت ؟

ما سبب الجزع من الموت ؟ وما الاسترسال إلى الموت ؟
وإن كان المعنى الأول أكثر فإن الثاني آتٍ وأظهر وأبين المعنيين أجل الجزع منه أم الاسترسال إليه ، فإن الكلام في هذه الفصول كثير الرّبع جم الفوائد .

الجواب

قال أبو علي مسكويه - رحمه الله :
الجزع من الموت على ضروب ، وكذلك الاسترسال إليه . وبعضه محمود ، وبعضه مذموم ؛ وذلك أن من الحياة ما هو جيد محبوب ، ومنها ما هو رديء مكروه ، فيجب من ذلك أن يكون ضدها الذي هو الموت بحسبه : منه ما هو حيال الحياة الجيدة المحبوبة ، فهو رديء مكروه ، ومنه ما هو حيال الحياة الرديئة المكروهية ، فهو جيد محبوب .
ولابد من تبين هذه الأقسام لتبين سبب الجزع والاسترسال^(١) ، وأيهما أعلى ، فأقول :

إن الحياة المقترنة بالآفات العظيمة ، والميمن الهائلة^(٢) ، والآلام الشديدة : مثل أن يسبى الرجل وأهله وولده ويميلكهم قوم أشرا حتى يرى في أهله وولده ما لا طاقة

(١) يقال : استرسل إلى فلان : انبسط إليه واستأنس به . ويريد بالاسترسال إلى الموت الرضا به عن سماع

(٢) مهن فلانا الأمر : جهده ، فاعهنة هنا : الجهد والشدة .

له به ، ويُسَامَ في نَفْسِهِ وجَسَدِهِ ما لا صَبَرَ عليه ، ويقع في الأمراض الشديدة التي لا بَرءَ منها ، وَيُضْطَرُّ إلى فعلٍ قبيحٍ بأصدقائه وبوالديه ، فهذا كله ردىء مكروهٌ ، وليس أحدٌ يختار العيش فيه ، ولا يؤثر الحياة معه ، فضده إذاً جيدٌ محبوبٌ ؛ لأنَّ الموتَ أمامَ هذه المحن في مجاهدةٍ عدوٍّ يسومُ هذا السَّوْمَ - موتٌ مختارٌ جيدٌ . فيجب بحسب هذا النظر أن نقول : إنَّ تلك الحياة المكروهة يُسْتَحَبُّ فيها الموت الذي هي ضده ، فالاسترسال إلى هذا الموت جيدٌ ، وسببه ظاهرٌ .

وكذلك إذا عَكِستِ الحال ، فإن الحياة المحبوبة والعيش المضبوط ، التي معه صحةُ البدن ، واعتدالُ المزاج ، ووجودُ الكفاية من الوجوه الجميلة ، والتمكُّن بهذه الأشياء من السعى نحو السعادة القصوى ، وتحصيلُ الصورة المكملة للإنسان مع مساعدة الإخوان الفضلاء ، وقرّة العين بالأولاد النجباء ، والعزُّ بالعشيرة وأهل البيت الصالحين - كله محبوبٌ مؤثّرٌ جيدٌ . ومقابلُهُ إذن الذي هو الموت ردىء مكروهٌ ؛ لأنَّ هذا الموت ينقطعُ به استكمالُ السعادة وإتمامُ الفضيلة . ويُقوِّته أمراً عظيماً كان معرضاً له .

فالجزع من هذا الموت واجبٌ ، وسببه بينٌ .

وهذا ضربٌ من النظر ، ويأبى من الاعتبار .

وضرب آخر وهو أن البقاء بنفسه أمرٌ مختارٌ ؛ لأنه وجودٌ متصلٌ ، والوجود كريمٌ شريفٌ . وضده العدمُ رذلٌ خسيسٌ ، والرغبة في الشيء الكريم واجبةٌ ، كما أن الزهد في الشيء الخسيس واجبٌ .

وإذا كانت حياة ما منقطعة لا محالة ، ثم كان ذلك يُقْضَى إلى حياة أخرى أبديةً ، ووجودٌ سرمديٌّ - صار هذا الموت غير مكروهٍ إلا بقدر ما يُكره من الدواء المرِّ إذا أدّى إلى الصحة ، فإن العلاج المؤلم والدواء الكريه مختاران ، إذا أديا إلى صحة طويلة ، وسلامة متصلة فإن لم يكونا مختارين بالذات فهما مختاران بالعرض .

فالإنسان المستبصر الذي يرى أن آخره أفضل من دنياه ، وآجله خيرٌ له من عاجله - يَسْتَرْسِلُ إلى الموت استرساله إلى الدواء الكريه ، والعلاج المؤلم ؛ لِيُقْضَى به إلى خير دائم ، وإن كان هذا الاختيار بالعرض لا بالذات ، وربما ظن ذلك ظناً فحسناً أيضاً منه الاسترسال إليه بحسب قوة ظنه وما وقع إقناعه به ، كما يحسن في الدواء إذا قوى ظنه بمعرفة واصفه له .

فأما من خلال من هذا الاعتقاد والظن القوي فهو يجزع من الموت ؛ لأنه عدم ما ، والعدم مهروب منه ، وهذا سبب صحيح وعلة ظاهرة .

وهذا ضرب آخر من الاسترسال إلى الموت ، والجزع منه ، وهو أن من قوى ظنه واستحكمت بصيرته في عاقبته ومعاده ولكنه لم يُقدِّم ما يعتقد أنه يسعد به ، ولم يتأهب بأهبة ، ولا استعد له عدة ، فهو يكره الموت ، ويجزع منه ، ولا يسترسل إليه .

وأنت ترى ذلك في أصحاب الأهواء المختلفة ، والذبايات المتضادة ، كأنهم في تسرعهم إلى إحراق نفوسهم ، وإقدامهم على ضروب المثل والقتل في أبدنهم . وكالخوارج في حرصهم على الموت ، وبذلهم نفوسهم في مواقفهم المشهورة . وحروبهم الماثورة ، وأن الرجل إذا طعن قنَّع فرسه ليسبح في الرَّمح ، وينتهى إلى طاعنه^(١) ، ثم قرأ : « وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى^(٢) » ولذلك اتخذ أصحاب السلطان في صدور رماحهم [حاجزا]^(٣) لئلا يسبح فيها المضعون فيصل إلى الطاعن .

لماذا.. حب يوم بعينه

لم صار الإنسان يحب شهراً بعينه ، ويوما بعينه ؟
ومن أين يتولد للإنسان صورة يوم الجمعة على خلاف صورة يوم الخميس ؟
وقيل للروذكى^(٤) - وكان أكنه ، وهو الذى ولد أعمى - كيف اللون عندك ؟ قال : مثل الجمل .
الجواب

قال أبو على مسكويه - رحمه الله :
أما محبة الإنسان شهراً بعينه فلاجل ما يتفق له فيه من سعادة ما ، بحصول مأمول ، أو ظفر بمطلوب ، أو انتظار مرجو في وقت بعينه ، أو سرور بعقب غم ، أو راحة بعد تعب ، وربما استمر ذلك به ، وتكرر عليه مدة من عمره في وقت بعينه ، فأنس به وألفه وأحبه لَمَا يتفق له فيه ، ولذلك أحب صبيان المسلمين يوم الجمعة ،

(١) يريد أن الخارجى إذا طعنه عدوه بالرمح ضرب فرسه ليتقدم حتى يلحق طاعنه فيقتضى عليه . غير عابىء بنفاد الرمح في صدره .

قال المبرد في الكامل ٩٥٤/٣ ، وكان في جملة الخوارج لدد واحتجاج . على كثرة خطيئهم وشعرائهم . ونفاذ بصيرتهم . وتوطين أنفسهم على الموت . فمتهم الذى طعن فانقذه الرمح فجعل يسعى فيه إلى قاتله وهو يقول . . وعجلت إليك رب لترضى . .

(٢) سورة طه ٨٤ .

(٣) مكان الزيادة يقتضى كلمة بمعناها .

(٤) الروذكى : كما في انساب السمعاني ٢٦٢ واللباب لابن الاثير ١/٨٠ ، بضم الراء . وسكون الواو . وفتح الذال المعجمة ، وفي آخرها كاف - هذه النسبة إلى روذك . وهى ناحية بسمرقند . والمشهور بهذه النسبة الشاعر المصليح القول بالفارسية ، الذى سار شعره - أبو عبدالله جعفر بن محمد بن حكيم بن عبدالرحمن الروذكى . الشاعر السمرقندى . وتوفي بروذك سنة تسع وعشرين وثلاثمائة .

وَأَلْفَوْهُ بَعْدَ ذَلِكَ طَوْلَ عَمْرِهِمْ ، وَكَرِهُوا يَوْمَ السَّبْتِ ؛ لِأَن يَوْمَ الْجُمُعَةِ مَقْرُوضٌ لَهُمْ فِيهِ الرَّاحَةُ ، مُرَخَّصٌ لَهُمُ اللَّعِبُ ، وَيَتَلَوُّهُ يَوْمُ السَّبْتِ الَّذِي هُوَ يَوْمُ تَعْبِهِمْ وَعَوْدِهِمْ إِلَى مَا يَكْرَهُونَ مِنْ فَقْدِ اللَّعِبِ . فَأَمَّا صِيبِيَانِ الْيَهُودِ فَإِنَّمَا يَعْرِضُ لَهُمْ ذَلِكَ فِي يَوْمِ السَّبْتِ وَمَا يَلِيهِ ، وَصِيبِيَانِ النَّصَارَى فِي يَوْمِ الْأَحَدِ وَمَا يَلِيهِ ، وَكَذَلِكَ^(١) أَيَّامُ الْأَعْيَادِ الَّتِي أُطْلِقَ لِلنَّاسِ فِيهَا الرَّاحَةُ وَالزَّيْنَةُ ، يَقُولُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « أَيَّامُ أَكْلٍ وَشَرْبٍ وَبِعَالٍ »^(٢) .

وهذه الأيام مختلفة في أصحاب المِلَل . وكل قوم يحبون الأيام التي هي أعيادهم التي أُطْلِقَ لَهُمْ فِيهَا الزَّيْنَةُ وَالْمَتْعَةُ وَالرَّاحَةُ .

وأما من تساوت به الأحوال من الأمم التي ليست تحت شرع ، ولا لهم نظام في سيرتهم وأحوالهم ، كالزُّنُجِ وَأَوَاخِرِ التُّرْكِ وَأَشْبَاهِهِمْ ، فَلَيْسَ يُلْحَقُهُمْ هَذَا الْمَعْنَى ، وَلَيْسَ يَحْبُونُ يَوْمًا بَعِيْنَهُ ، وَلَا شَهْرًا ، وَلَا وَقْتًا مُخْتَصُوصًا .

فَأَمَّا تَوْلَدُ صُورَةِ يَوْمِ الْجُمُعَةِ عَلَى خِلَافِ صُورَةِ يَوْمِ الْخَمِيسِ فَإِنَّهُ عَلَى مَا أَقُولُ : إِنَّ الزَّمَانَ الْأَظْهَرَ الْأَعْمَ الْأَشْهَرَ هُوَ مَا تَحْدُثُهُ دَوْرَةٌ وَاحِدَةٌ مِنَ الْفَلَكَ الْأَقْصَى ، أَعْنَى الَّذِي يَدْبُرُ جَمِيعَ الْأَفْلَاقِ وَيَحْرِكُهَا بِحَرَكَةٍ نَفْسِهِ إِلَى غَيْرِ جِهَةٍ حَرَكَاتِهَا ، وَذَلِكَ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ ، مِنْ مَفْرُوضِهِ إِلَى أَنْ يَعُودَ إِلَيْهَا ، وَهُوَ فِي أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ سَاعَةً .

وإِنَّمَا صَارَ هَذَا الزَّمَانُ أَظْهَرَ لِلنَّاسِ لَمَّا يَظْهَرُ فِيهِ مِنْ صَبَاحٍ يَغْرُضُ ، وَمَسَاءٍ يَبُومُ وَلَيْلَةٍ ، وَسَبِيْهُمَا ظَهْوَرُ الشَّمْسِ فِي بَعْضِ هَذِهِ الْمُدَّةِ فَوْقَ الْأَرْضِ ، وَغَيْبَتُهَا فِي بَعْضِ تَحْتَ الْأَرْضِ .

وَتَكَرَّرُ هَذِهِ الْأَدْوَارُ فِي الْأَيَّامِ وَاللَّيَالِي ، وَفِي كُلِّ دَوْرٍ مِنْهَا لِلنَّاسِ أَفْعَالٌ وَحَرَكَاتٌ وَمَوَالِدٌ وَمَعَامَلَاتٌ لَيْسَتْ فِي الدَّوْرَةِ الْآخَرَى .

وَيَتَعَلَّقُ بِأَفْعَالِهِمْ هَذِهِ أَحْكَامٌ وَأَقْضِيَّةٌ فِي مَدَدٍ مَعْلُومَةٍ ، وَأَجَالٍ مَفْرُوضَةٍ ، فِي مَدَّةٍ مَضْرُوبَةٍ ، يَحْتَاجُونَ فِيهَا إِلَى نَسْبَتِهَا إِلَى دَوْرَةٍ بَعْدَ دَوْرَةٍ مِنَ الْفَلَكَ الْأَقْصَى الَّتِي هِيَ سَبَبُ لَكُونِ الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ ؛ لِتَصِحَّ مَعَامَلَاتُهُمْ ، وَتَصْدَقَ قَضَايَاهُمْ ، وَتَعْتَمِدَ أَجَالُهُمْ الْمَضْرُوبَةُ فِي أَعْمَالِهِمْ وَمَعَامَلَاتِهِمْ .

وههنا زمان آخر تحدته دورة أخرى تختص بها الشمس في سيرها .

(١) فِي الْأَصْلِ ، وَذَلِكَ .

(٢) فِي الْمُسْلَمِ : « الْبِعَالُ : حَدِيثُ الْعُرُوسِينَ ، وَالتَّبَاعِلُ وَالْبِعَالُ : مَلَاعِبَةُ الْمَرْءِ أَهْلَهُ ، وَقِيلَ الْبِعَالُ : النِّكَاحُ ، وَمِنْهُ الْحَدِيثُ فِي أَيَّامِ التَّشْرِيقِ إِنَّهَا أَيَّامُ أَكْلٍ وَشَرْبٍ وَبِعَالٍ ، وَالتَّبَاعِلَةُ : الْمُبَاشَرَةُ » .

وذلك أن تبتدىء الشمس من نقطة مفروضة ، وتعود إليها بعينها بحركة نفسها دون تحريك المحرك الأول .

وهذه الدورة هي من المغرب إلى المشرق بخلاف تلك .
وتتم الدورة الواحدة من هذه الحركة التي تخص الشمس ، في ثلاثمائة وخمسة وستين يوما وربع يوم على التقريب .
وهذا هو زمان أيضا ، ولكنه منسوب إلى حركة الشمس نفسها ، ويسمى :
« سنة » .

وهنا زمان آخر قد تعارفه الناس أيضا ، واشتهر بينهم ، وظهوره وإن لم يكن كظهور الشمس فهو تال له ، وهو ما يكون ويحدث بدورة واحدة من حركة القمر التي تخصه دون تحريك المحرك الأول .

وتتم الدورة الواحدة بهذه الحركة التي تخص القمر ، وهو أيضا من المغرب إلى المشرق ، في ثمانية وعشرين يوما ، ويسمى « شهرا » .
فهذه الأزمنة الثلاثة لما كانت ظاهرة مكشوفة تراها العيون ؛ لأجل تعلقها بالشمس والقمر اللذين هما أنور الكواكب وأبينهما وأكبرهما^(١) في الظاهر . تعارفها الناس ، وتعاملوا عليها ، وحدثت صورة لكل دورة بحسب ما يقسّطه الناس فيها من أعمالهم ، وبحسب ما يفشو فيها ويحدث من الأعمار والمواليد ، وبحسب نسبة حركاتهم إليها بمبدأ ومنتهى .

وإذا نظر الإنسان إلى هذه الأدوار في أنفسها خالية من حركات الناس وأفعالهم ولم ينسب إليها حركة أخرى ، وفعلا آخر . لم يكن بينها فرق بتة إلا بالتكرار الذي لا بد فيه من العدد بالأول والثاني والثالث ، وإلى حيث انتهى الإحصاء .
فإن نظر فيها بحسب الأحوال ، ونسب إليها أفعالا وآثارا ، ونظمها بالحساب . حدثت صورة مختلفة بحسب اختلاف الأمور الواقعة فيها ، المنسوبة إليها .

* * *

فأما الأكمه الذي ذكرته في المسألة ، فإن الفاقد حاسة من حواسه لا يتصور شيئا من محسوساته ؛ لأن التصوّر في النفس من كل محسوس إنما يقع بعد الإحساس به .
وذلك أن هذه القوى من قوى النفس التي تأخذ العلوم من الحواس ، إنما ترقىها إلى قوة التخيل عن الحس ، فحينئذ تثبت صورة المحسوس في القوة المتخيلة ، وإن زالت صورة الحس وغابت .

(١) في الأصل : بالشمس والقمر الذي لهما أنور الكواكب وأبينهما وأكبرهما .

فأما إذا فقد الحس فكيف يترقى المحسوس إلى قوة التخيل ؟ فبحق صار الأكمه لا يتخيل شيئاً من الألوان ولا يتصوره .
وكذلك إن فقد فاقد حسَّ الشم والسمع من مبدأ ولادته ، لم يتخيل شيئاً من محسوساتهما لما قدمناه .
وحدثني بعض أهل التحصيل من المتفلسفين أنه سأل رجلاً أكمه : كيف يتصور البياض ؟ فقال « حلو » .

فكانه لما لم يجد صورة البياض في تخيله ردها إلى حاسة أخرى هو واجد لمحسوسها ، فسامها بها ، وظنها إياها . أو يُغْتَابَ به ؛ لأنه يعرف قبج الشر ، ويحب لنفسه التي هي حبيبته أن تكون بريئة من كل عيب ، بعيدة من كل ذنب وذم ، فإذا رُميت بشر لحقه غمٌ أولاً ، ثم محبة الانتقام ممن غمه .
والغضب حقيقته حركة النفس للانتقام ، وهذه الحركة تُثير دم القلب حتى يغلي ؛ ولذلك يُحدِّد الغضب بأنه غليان دم القلب شهوة الانتقام .

* * *

فأما غضب الإنسان من شر ينسب إليه وليس هو فيه فبالواجب ؛ لأنه قَصِدَ بالظلم لِيُعَمَّ .
وقائدة الغضب ، وسبب وجوده في الإنسان هو أن يَتَصَيَّرَ به من الظالم ، أو يَمْنَعَهُ ويضعه عن نفسه ؛ فإذا علم الإنسان أن قاصداً يقصده بالظلم أحب الانتقام منه ، وتحركت نفسه لذلك ، فحدث الغضب .
فقد استبان من الصديق والكذب جميعاً في هذه المسألة ، سبب هتيج الغضب ، ومائتته أيضاً .

لماذا الحضور عند الذكرى ؟

ما علة حضور المذكور عند مَقْطَعِ ذكره وهو لا يتوقع فيه ؟
هذا كثير معهود ، وإن لم يكن من باب المعتاد المألوف ، ولو كان من ذلك لسقط التعجب ، وزال الإكْبَارُ ، ووقع الاشتراك .
ومن هذا الضرب رؤية الإنسان بالالتماس مَنْ لم يكن يَظُنُّ أنه يَرَاهُ .
وكذلك تشبهك بعض من يلحقه طرفك بمعهود لك ، حتى إذا حَدَّثَتْ نحوه لم يكن ذاك ، ثم إنك لا تلبث حتى تصادف المشبهة به .
وهل هذا كله بالاتفاق ؟

وإن كان بالاتفاق فما الاتفاق ؟ وهل الاتفاق هو الوفاق ؟
وما الوفاق ؟ حتى يكون البيان عنه بياناً عن الأول ، أو مُطْلِعاً عليه ، أو مُقَرَّباً إليه .

الجواب

قال أبو علي مسكويه - رحمه الله :
إن النفس علامة بالذات ، درأكة للأمور بلا زمان ؛ وذلك أنها فوق الطبيعة ، والزمان إنما هو تابع للحركة الطبيعية ، وكأنه^(١) إشارة إلى امتدادها ؛ ولذلك اشتق اسم المدة منه^(٢) ؛ لأن المدة فعل ، والامتداد افتعال ، وأصلهما واحد من المدة .
ولما كانت النفس فوق الطبيعة ، وكانت أفعالها فوق الحركة ، أعنى فى غير زمان ؛ فإذاً ملاحظتها الأمور ليست بسبب الماضى ولا الحاضر ، ولا المستقبل . بل الأمر عندها فى السواء ، فمتى لم تعقها عوائق الهولوى والهيوليات ، وحجب الجس والمحسوسات - أدركت الأمور ، وتجلت لها بلا زمان ، وربما ظهر هذا الأمر منها فى بعض المزاوجات أكثر حتى يرتفع إلى حد التكهّن والإنذار بالأمور المستقبلية . وهذا الإنذار رُبما كان فى زمان بعيد ، فكلما كان أبعد ، والمدة أطول ، كان أبدع عند الناس وأغرب ، ثم لا يزال يقرب الزمان ، ويقصر فيه ، حتى يتلو وقت الإنذار بلا كبير فاصلة .

وهذا الحال تعرض لمن يذكّر الإنسان فيحضر المذكور عند تقطع ذكره ، ولم يكن ذكره سبباً لحضوره ، بل كان الأمر بالضد ؛ فإن قرب حضوره أشعر النفس حتى أنذرت به .

وكذلك الحال فى الرؤية بالالتفات ؛ فإن قرب الملتفت إليه هو الذى حرك النفس حتى استعملت آلة الالتفات .

واستقصاء هذا غير لائق بشرطنا فى ترك الإطالة ، ولولا ذلك لذكرنا أموراً بديعة من هذا الجنس ، وفى هذا القدر كفاية وبلاغ فيما سألت عنه .

* * *

فأما مسألتك عن الاتفاق ، وهل هو الوفاق ؟ وما الوفاق ؟ فقد وعدنا بالكلام فيه فى مسألة تجيء بعد هذه .

ولعمري إن الاتفاق هو الوفاق ؛ لأنه افتعال منه ، والأصل واحد ، والاشتقاق دال عليه .

وسنخبر عنه إخباراً كافياً عند ذكر البخت والجذ ، إن شاء الله .

(١) فى الأصل « وكأنها » .

(٢) فى اللسان : « المدة : طائفة من الزمان تقع على القليل والكثير ، وما فيها أى أطلقها ، وهى فاعل من المدة » .

لماذا لا يرجع عمر الانسان ؟

لِمَ لَمْ يرجع الإنسان ، بعدما شاخ وخرف ، كهلاً ، ثم شاباً غريراً ، ثم غلاماً صيباً ، ثم طفلاً كما نشأ ؟

وعلام يدل هذا النظم ؟ وإلى أى شىء يشير هذا الحكم ؟

الجواب

ليست الشيخوخة والهرم نهايةً نشوء الإنسان ، ولا غايةً الحركة الطبيعية ، أعنى النامية ، فتروم - آيدك الله - أن يعود الشيخ فى مسالكها إلى المبدأ الذى تحرك منه ، بل ينبغى أن تعلم أن غاية النشوء والحركة إنما هى عند منتهى الشباب ثم حينئذ يقف ، وذلك زمان التكهل ، ثم ينحط ، وذلك زمان الشيخوخة ؛ وذلك أن الحرارة الغريزية التى فى الأجسام المركبة من الطبائع الأربع مادامت فى زيادة قوتها فهى تنشئ الجسم الذى هو فيه بأن تجتذب إليه الرطوبات المتلائمة بدلاً ما يتحلل منها فتكون غذاءً له ، ثم تبقى بقيه جذبها^(١) فضل القوة - فاضلة عن قدر الغذاء الذى عوض من المتحلل ، فزادتها فى مساحة الجسم ، ومددت بها أقطاره ، فإذا تناهت القوة وقفت فلم تزد فى الأقطار شيئاً ، بل غايتها حينئذ أن تحفظ على ذلك الجسم أقطاره ومقداره ، بأن تغذيه أعنى أن تجتذب من الرطوبات مقدار ما يسرى فى الجسم عوضاً عما تحلل بلا زيادة تنصرف إلى التزديد والتمديد .

ثم إن الحرارة تضعف قليلاً ، وتأخذ فى النقصان بعد أن تقف وقفة فى زمان التكهّل ، فيبتدىء البدن فى النقص ، ويصير الإنسان إلى الانحطاط عن تلك الحركة الأولى ، فلا يزال الغذاء ينقص عن مقدار الحاجة ، فلا يفى ما يعتاض من الرطوبة بما تحلل منها ، فهو كذلك إلى أن يهرم ، ويبلغ إلى الانحلال الذى هو مقابل التركيب الذى بدأ منه ، وهو الموت الصحيح الطبيعى .

وهذه سبيل كل حركة قهرية فى أنها تبتدىء بتزديد ، ثم تنتهى إلى غاية ، ثم تقف وقفة ، ثم تنحط .

ولما كان مزاج الإنسان وكل مركب من الطبائع المتضادة إنما كان بجامع جمعها ، وقاهر قهرها حتى ألفها مع تضادها ونفور بعضها من بعض - صارت حركتها قهرية ، ومن شأن الحركة القهرية ما ذكرت من أمرها إذا لم يُتبعها القاهر أبداً ، بقهر بعد قهر . فوجب فى حركة النشوء ما وجب فى كل حركة من جنسها ، ولم يعد الشيخ

(١) فى الاصل . جذبتها .

كهلا ، ثم شاباً ، ثم طفلاً ؛ لأن الحركة لم تقع على هذا النظام ، ولا الشيخوخة هي غاية الحركة ، بل هي غاية الضعف ، ونظير الطفولة .
ووسط زمان الإنسان الذي بين الطفولة والشيخوخة هو غايته ، ثم العود في الانحطاط والحركة يكون على سبيل ما بدأ .

لماذا يعجب الانسان ؟

لم إذا أبصر الإنسان صورة حسنة ، أو سمع نعمة رجيعة قال : والله ما رأيت مثل هذا قط ، ولا سمعت مثل هذا قط ، وقد غلب أنه سمع أطيب من ذلك ، وأبصر أحسن من ذلك ؟

الجواب

قال أبو علي مسكويه - رحمه الله :
أما بحسب الفقه أو مقتضى اللغة فهو غير حائث ولا مخطيء ؛ لأن شيئاً لا يماثل شيئاً بالإطلاق ، ولا يقال في شيء : هذا مثل هذا إلا بتقييد ، فيكون مثله في جوهره ، أو كميتيه ، أو كيفيته ، أو غير ذلك من سائر المقولات ، وقد يماثل في اثنتين منها^(١) وأكثر ، فأما في جميعها فمحال .
فهذا وجهه صحة قول الإنسان : والله ما رأيت مثله .
فأما من جهة أخرى - وهي جهة طبيعية - فإنك تعلم أن الحس سيال سيلان محسوسة ، فإذا استثبت صورة ، ثم زالت عنه ، وحضرت أخرى شغلته وثبتت بدلاً الأخرى ، فلا يحصر الحس إلا ما قد أثر فيه دون ما قد زال ، وإنما حصلت الأولى في الذكر ، وفي قوة أخرى ، وربما لم يجتمعا ، أو لم يحضر الذكر ، فيكون قول الإنسان على حسب الحاضر ، وحضور الذكر أوغيته .

لماذا يستحسن الانسان الصورة الحسنة ؟

ما سبب استحسان الصورة الحسنة ؟
وما هذا الولوع الظاهر ، والنظر ، والعشق الواقع من القلب ، والصباية المتيمة للنفس ، والفكر الطارد للنوم ، والخيال المائل للإنسان ؟
أهلها كلها من آثار الطبيعة ؟ أم هي من عوارض النفس ؟ أم هي من دواعي العقل ؟ أم من سهام الروح ؟ أم هي خالية من الملل جارية على الهذر ؟
وهل يجوز أن يوجد مثل هذه الأمور الغالبة ، والأحوال المؤثرة على وجه العبث ، وطريق البطل^(٢) ؟

(١) في الأصل : « في الثنتين منهما » .
(٢) في المتن : « بطل في حديثه بطله وأبطل : هزل . والاسم البطل » .

الجواب

قال أبو علي مسكويه - رحمه الله :
أما سبب الاستحسان لصورة الإنسان فكمال في الأعضاء ، وتناسب بين الأجزاء مقبول عند النفس .
وهذا الجواب بحسب غرضك من المسألة التي هي مُتوجِّهة نحو الصورة الإنسانية المعشوقة دون غيرها .

وأقول : إن الطبيعة مُقْتَنِيَةٌ أفعال النَّفْس وآثارها ، فهي تعطى الهَيُولَى والأشياء الهَيُولَانِيَّةَ صُوراً بحسب قبولها ، وعلى قدر استعدادها ، وتحكى في ذلك فعل النَّفْس فيها - أعنى في الطبيعة - ولكنها هي بسيطة ، فتَقَبَّلُ من النفس صوراً شريفة تامة ، فإذا أرادت أن تنقش الهَيُولَى بتلك الصُّور أعجزت الأمور الهَيُولَانِيَّةَ عن قبولها تامة وافية ؛ لقلة استعدادها ، وعدمها القوة الممسكة الضابطة ما تُعْطَاهُ من الصور التامة .

وهذا العجز في الهَيُولَى ربما كان كثيراً ، وربما كان يسيراً ، وبحسب قوتها على قبول الصُّور يكون حُسْنُ موقع ما يحصل فيها من النفس ؛ فإن المادة الموافقة للصُّورة تقبل النَّقْشَ تاماً صحيحاً مشاكلاً لما قَبِلَتْهَا الطبيعة من النفس . والمادة التي ليست بموافقة تكون على الضد . والمثال في ذلك أن الطبيعة إنما تعمل من المادة عند تَجْيِيلِ^(١) النَّاسِ فِي الرَّجْمِ الْفُطْسِ^(٢) في الأنف ، والزرقة في العينين ، والصُّهُوبَةِ في الشَّعْرِ^(٣) ، وبحسب قبول الهَيُولَى الموضوع لها ، لا أنها تقصد الصُّور الناقصة ، بل تقصد - أبداً - الأفضل ، ولكن المادة الرطبة تأتي إلا قبول ما يلائمها ، وذلك أن الدَّعَجَ في العين^(٤) ، والشَّمَمَ في الأنف^(٥) صورٌ تحتاج إلى اعتدال المادة بين الرطوبة السَّيَالَةِ ، واليوسة الصلبة ، ولا يمكن إظهارها في المادة الرطبة ، كما لا يمكن صياغة خاتم من شمع ذائب .

وربما كانت المادة حاضرة من طريق الكمية دون الكيفية فلا تتم الخَلْقَةُ على أفضل الهيئات . وكذلك الحال في شَعْرَ الرَّأْسِ ، وأهداب العين والحاجب ، فإنها لا تَنْقَشُ على ما ينبغي إذا كانت ناقصة المادة ، أو غير معتدلة في الكيفيات فتعمل الطبيعة منها ما يمكن وَيَتَأْتِي ، فتجىء الصورة غير مقبولة عند النَّفْس ؛ لأنها لا تطابق ما عندها

(١) في اللسان « جيل الله الخلق يجبلهم : خلقهم » .

(٢) في اللسان « الفطس - انخفاض قصبة الأنف وانفراشها » .

(٣) في اللسان « الصُّهُوبَةُ - أن يعلو الشعر حمرة واصوله سود ، فإذا رهن خيل إليك أنه اسود » .

(٤) الدعج : شدة سواد العين .

(٥) في اللسان « الشَّمَمُ في الأنف - ارتفاع القصبة وحسنها ، واستواء أعلاها - وانتصاب الأرنبة » .

من الكمال . فأما وأنت تتأمل ذلك من طين الختم فإنه إذا كان ناقص الكمية غير مقدار الخاتم ، أو يابساً ، أو رطباً أو خشناً - نقصت صورة الخاتم ، ولم يقبل النقش على التمام والكمال .

فأما المثال في المادة الموافقة فهو بالضد من هذا المثال ؛ فلذلك تقبل ما تعطيها الطبيعة على التمام ، وتتقش نقشاً صحيحاً مناسباً مشاكلاً لما في النفس ، فإذا رأتها النفس سرّت ؛ لأنها موافقة لما عندها مطابقة لما أعطتها الطبيعة .

فكما أن الصناعة تقتفى الطبيعة ، فإذا صنع الصانع مثالاً في مادة موافقة فقبلت منه الصورة الطبيعية تامة صحيحة : فرح الصانع ، وسر وأعجب ، واقتخر ؛ لصدق أثره ، وخروج ما في قوته إلى الفعل موافقاً لما في نفسه ، ولما عند الطبيعة - فكذلك حال الطبيعة مع النفس ، لأن نسبة الصناعة إلى الطبيعة في اقتفائها إياها كنسبة الطبيعة إلى النفس في اقتفائها إياها .

ثم إن من شأن النفس إذا رأت صورة حسنة متناسبة الأعضاء في الهيئات والمقادير والألوان وسائر الأحوال ، مقبولة عندها ، موافقة لما أعطتها الطبيعة - اشتاقت إلى الاتحاد بها ، فترغبتها من المادة ، واشتبتها في ذاتها ، وصارت إياها ، كما تفعل في المعقولات .

وهذا الفعل لها بالذات ، له تتحرك ، وإليه تشاقت ، وبه تكمل ، إلا أنها تشرف بالمعقولات ، ولا تشرف بالمحسوسات .

فإذا فعلت النفس ذلك ، واشتاقت إلى الطبيعيات والأجسام الطبيعية - رامت الطبيعة في الأجساد من الاتحاد ما رامتة النفس في الصور المجردة ، فلا يكون لها سبيل إليه ؛ لأن الجسد لا يتصل بالجسد على سبيل الاتحاد ، بل على طريق المماسّة ، فتحصل حينئذ على الشوق إلى المماسّة التي هي اتحاد جسماني بحسب استطاعتها .

وهذا من النفس غلط كبير ، وخطأ عظيم ، لأنها تتكس من الحال الأشرف إلى الحال الأدنى ، وتتصور بصورة طبيعية منها أخذت ، وبها ابتديت ، وتفوتها الصور الشريفة العقلية التي ترتقى بها إلى الرتبة العليا ، والسعادة العظمى . وهذا الذي ذكرته هو الأمر الذاتي الكلي الجاري على وتيرة طبيعية تحصرها الصناعة ، وتضبطها القوانين .

فأما الاستحسان العرضي والجزئي - أعني ما يستحسنه شخص ما بحسب مزاج ما - فهو أيضاً لأجل نسبة ما ، ولكنه يصير شخصياً ، والأمور الشخصية لا نهاية لها فلذلك لا تنحصر تحت صناعة ، ولا لها قانون .

والذى ينبغي أن يُعَلِّمَ منها أن كُلَّ مِزَاجٍ متباعد من الاعتدال تكون له (١) مناسباتٌ نحو أمورٍ خاصةٍ به (٢) ، ويخالُفه المِزَاجُ الذى هو منه فى الطرف الآخر من الاعتدال حتى يستقيح هذا ما يستحسنُ هذا ، وبالضدِّ ، وكذلك ما تقيدهُ العاداتُ والاستعاراتُ ، وهو موجودٌ فى استلذاذِ المأكولِ والمشروبِ ؛ فإنَّ الأمزجة البعيدة من الاعتدال تُناسِبُ طُعوماً غريبةً ، وتستلِذُّ مِنْهَا طرائفَ وعجائبَ . والاستقراء يفيدُك كلَّ عجيبةٍ وطريفةٍ من هذا النحو فى الروائحِ والسَّماعِ وجميعِ الحواسِ .

لماذا يقتل الانسان نفسه ؟

تَرَى ما السببُ فى قتلِ الإنسانِ نفسه عندَ إخفاقِ تَوَالِيِ عليه ، وفقرِ يَحوِجِ إليه ، وحالِ تَمَنُّعِ على حَوِيلِهِ وطَوْفِهِ ، وبابِ يَنْسُدُّ دونَ مَطْلَبِهِ ومَنازِلِهِ ، وعشقِ يَضِيقُ ذُرْعاً به ، ويَتَمَلَّ فى معالِجته (٣) ؟

وما الذى يَرجو بما يأتى ؟ وإلى أى شىءٍ يَنحو فيما يقصد وَيَنوَى ؟ وما الذى يَتَصَيَّبُ أَمَامَهُ ، ويستهلكُ حِصَّاقَتَهُ ، ويُذهله عن رُوحِ مَالُوقَةٍ ، ونفسِ مَعْشُوقَةٍ ، وحياةٍ عَزِيزَةٍ ؟

وما الذى يَخْلُصُ إلى وَهْمِهِ من العدمِ حتى يسلبه من قبضةِ الواجدانِ وَيُسَلِّمَهُ إلى صَرَفِ الحدثانِ ؟

الجواب

قال أبو علي مسكويه - رحمه الله :

الإنسان مركب من ثلاث قوى نفسانية ، وهو كالواقف بينها تجذبه (٤) مرة ، وهذه مرة . وبحسبِ قُوَّةِ إحداها على الأخرى ، يميل بفعله ، فربما غلب عليه القُوَّةُ الغضبية ، فإذا انصبغ بها ، ومال بفعله إليها ظهرت قُوَّتُهُ كُلُّهَا كما غضبٌ ، وخفيت القوى الأخرى حتى كأنها لم توجد له ، وكذلك إذا هام به القُوَّةُ الشهوية خفيت آثار القوى الأخرى .

وأخصِفُ ما يكون الإنسانُ ، وأَحْسَنُهُ حالاً إذا غلبت عليه القُوَّةُ النامية فإن هذه القوة هى المُمِيزَةُ العاقِلَةُ التى تُرتَّبُ القوى الأخرى حتى تظهر بحسبِ ما تحدّه وترسمه .

والإنسانُ حينئذٍ نازل بالمتزلة الكريمة بحيث هَيَّأَهُ اللهُ تعالى ، وكما أراد . فإذا كان الأمرُ كذلك فَغَيْرُ مُنْكَرٍ أن تهيج بالإنسان بعضُ القُوَى منه عند التواء أمر

(١) فى الأصل : « لها » .

(٢) فى الأصل : « بها » .

(٣) فى اللسان : « البخل » : الضجر والتبرم بالشيء ، وبعل بامرء بعلافه هو يعل : يرم قلم يدر كيف يصنع فيه .

(٤) فى الأصل : « يجذبها » .

عليه ، أو انسداد باب دون مطلب له ، فيظهر منه لا توجيه زوئية ، ولا يقتضيه تمييز ؛
لجفاء أثر القوة الناطقة ، واستمداد القوة الأخرى .

وأنت تجد ذلك عيانا عند الأحوال المختلفة بك ؛ فإنك تجد نفسك في أي على
أحوال مؤثرة لها ، قاصدة إليها ، غير مصغبة إلى نصيح ، ولا قابلة أمر حتى إذا أقفّت
من تلك السكرة التي غلبت عليك في تلك الحال - من الأفعال التي ظهرت منك ،
وأثّرت نفسك فيها ، وكأنّ غيرك كان الذي أثرها ، وقصد إليها ، فلا تزال كذلك
حتى تهيج بك تلك القوة الأولى مرة أخرى ، فلا يمتنعك ما جرّته من نفسك ،
ووعظتها به - أن تقع في مثله . وسبب ذلك التركيب من القوى المختلفة النفسانية .
وليس يمكن الإنسان أن يخلص بقوة واحدة ، ويصير أفعال الباقية بحسب التي هي
أفضل وأشرف إلا بعد معالجة شديدة ، وتقويم كثير ، وإدّمان طويل ؛ فإن العادة إذا
استمرت ، والعزيمة إذا أنفذت في زمان متصل طويل - حصل منها خلق ، فكان
الحكم له ، وصار هو الغالب ؛ ولذلك نأمر الأحداث بالسيرة الجميلة ، ونؤاخذهم
بالآداب التي تسنها الشرائع ، وتأمر بها الحكمة .

واستقصاء هذا الكلام ، وذكر علله لا تقتضيه المسألة ، ولا يفنى به المكان .
فإن شك فيما قلنا شك ، وظن أن الإنسان المركب من القوى الثلاثة يجب أن
يكون لازما لأمر واحد متركب من تلك القوى كما نجد الحال في سائر المعجونات
والمركبات من الطبيعة ، فليعلم أن مثاله ليس بصحيح ؛ لأن قوى الإنسان نفسانية ،
لها من ذاتها حركات تزيد^(١) وتنقص ، وأحوال - أيضا - تهيجها . وليست كذلك قوى
الطبيعات ، فلتنعم النظر في ذلك تجده كما أومأنا إليه وذكرناه .

من القاتل ؟

سألت بعض مشايخنا بمدينة السلام عن رجل اجتاز بطرف الجسر ، وقد اكتنفه الجلاوزة^(٢)
يسوقونه إلى السجن ، فأبصر موسى ومبنة في طرف دكان مزين ، فاحتفظها كالبرق ، وأمرها على
حلقوميه ، فإذا هو يخور في دعائه ، قد فارق الروح وودع الحياة . فقلت : من قتل هذا الإنسان ؟
فإذا قلنا : قتل نفسه ، فالقاتل هو المقتول ، أم غير المقتول ؛ فإن كان أحدهما غير الآخر ،
فكيف توأما مع هذا الانفصال ؟

وإن كان هذا ذاك ، فكيف تفاعلا مع هذا الاتصال ؟
وإنما شيعت المسألة الأولى بهذا السؤال لأنه ناح ناح نحوها ، وقاب أثرها .

(١) في الأصل : ... نفسانية من ذاتها حركات وتزيد .

(٢) الجلاوزة : جمع جلواز ، وهو الشرطي .

الجواب

قال أبو علي مسكويه - رحمه الله - :
كان هذه المسألة مبنية على أن الإنسان شيء لا كثرة فيه والشبهة فيها من هذا الوجه
تقوى ، فإذا بان أن للإنسان قوى كثيرة وهو مركَّب منها ، وأنه يميل فى وقت ما نحو
قوة ، وفى وقت آخر نحو غيرها ، وأن أفعاله - أيضاً - بحسب ميله^(١) إلى إحدى
القوى ، وغلبتها عليه ، كما بيناه فى المسألة التى قبل هذه - زال هذا الشك .

فأما قوله : كيف تواصلنا مع هذا الانفصال ؟ فأقول :
إن السبب فى ذلك أن البارئ تعالى لما علم أن هذا المركَّب من نفس وجسد
يحتاج إلى أشياء تقيمه من غذاء وغيره ، وأنه لا قوام لحياته إلا بمادة ، وكان لا يصل
إلى تلك المادة إلا بحركة وسعى ، وكانت العائقات والممانعات عنها كثيرة - أعطاه قوة
يصل بها إلى حاجاته ، ويدفع بها أضدادها عن نفسه ؛ ليتم له البقاء .
ومن شأن هذه القوة أن تهيج وتثور فى أوقات بأكثر مما ينبغى ، وفى أوقات تقصر
عما ينبغى .

فهذه جملة من القول فى الفراسة .
وينبغى أن تحذر الحكم بدليل واحد ، وتتوخى جميع الدلائل من الأصول
الثلاثة ؛ لتكون بمنزلة شهود عدول لا يتدخل الشك فى صدقهم ، فيكون حكمك
صادقاً ، وفراستك صحيحة ، وذلك بحسب دريتك بالصناعة بعد معرفتك بالأصول .
وما أكثر الانتفاع بهذا العلم وأخضره ؛ فإنى أرى فى الجولان الذى يتفق لى فى
الأرض ، وكثرة الأسفار أن أرى ضروباً من الناس ، وأخالط أخفاف الأمم^(٢) ،
وأشاهد عجائب الأخلاق فأستعمل الفراسة ، فيعظم نفعها ، وتتجمل فائدتها .
والفراسة ربما تخطىء فى الفيلسوف التام الحكمة ووجه ذلك^(٣) أنه ربما كان ذا
مزاج فاسد ، وخلق - بالطبع - مُشاكِل له ، فيصلحه ، ويهذب بطول المعاناة ، وتعاهد
نفسه بدوام السيرة الحميدة ، ولزوم السجايا الرضية ، كما يحكى عن أفليمون^(٤) ،
وهو أول من سبق إلى هذا العلم ، فإنه حمل إلى أبقرطيس وهو متكرر فدخل إليه وهو

(١) فى الأصل : « مثله » .

(٢) فى اللسان : « الأخفاف : الضروب المختلفة فى الأخلاق والأشكال ومن الناس : الذين أهم واحدة
وأنهم شتى . يقال : الناس أخفاف : أى مختلفون لا يستوون » .

(٣) فى الأصل : « التام الحكمة ووجده وذلك » .

(٤) راجع ترجمته فى اختيار الحكماء ص ٤٤

لا يعرفه ، فلما تأمله حَكَم عليه : زَانٍ ، فَهَمُّ أصحابه بالوثوب عليه ، فنهاهم
أبقراطيس وقال : قد صدَّقَ الرَّجُلُ بحسب صناعته ، ولكنى بالقهر أَمْنَعُ نفسى من
إظهار سجيَّتها^(١) .

لماذا يحرص الانسان على ما منع منه ؟

مايبر قولهم : الإنسان حريص على ما مَنَع ؟
ولم صار هذا هكذا ؟
وكيف يسرع المَلَلُ^(٢) مما يُدَلُّ^(٣) ، وَيَضَاعِفُ الزَّلْوَعُ بطلب ما يُبْجَلُ به ؟
هَلَّا كَانَ المحرَّصُ فى مقابلة ما وجد ، والزَّهْدُ فى مقابلة ما مَنَع ؟
ولهذا ما صار الرخيص مَرغوباً عنه ، والغالى مرغوباً فيه ، ولهذا إذا ركب الأمير لا يُحرص على
رؤيته ما يُحرص على رؤية الخليفة إذا برز .

الجواب

قال أبو مسكويه - رحمه الله - ؛
إِنَّ النَّفْسَ غَنِيَّةٌ بِذَاتِهَا ، مَكْتَفِيَةٌ بِنَفْسِهَا ، غَيْرُ مُحْتَاجَةٍ إِلَى شَيْءٍ خَارِجٍ عَنْهَا .
وإنما عرض لها الحاجة والفقر إلى ما هو خارج منها لمقارنتها الهيولى ، وذلك أن
أَمَرَ الهيولى بالضد من أمر النفس فى الفقر والحاجة ، والإنسان لما كان مركباً منها
عرض له التَّشَوُّفُ^(٤) إلى تحصيل المعارف والقُنْيَات .
أما المعارف والعلوم فهو يُحَصِّلُهَا فى شبيهة بالخزانة له ، يرجع إليه متى شاء ،
ويستخرج منه ما أراد ، أعنى القوة الذاكرة التى تُسْتَوْدَعُ الأُمُورَ التى تُسْتَفَادُ من
خارج ، أعنى من العلماء والكتب ، أو التى تُسْتَأْرُ بالفِكْرِ والرَّوْيَةِ من داخل .
وأما القُنْيَات والمحسوسات فإنه يروم منها ما يروم من تلك التى تقدم ذكرها فلذلك
يغلط فيها ، ويخطئ فى الاستكثار منها إلى أن يتنبه بالحكمة على ما ينبغى أن يُقْتَنَى
من العلوم والمحسوسات فيقصد نحو القصد من الأمرين جميعاً ، ويقف عنده .

وإنما نحرص على ما مَنَعَ لأنه إنما يطلب ما ليس عنده ، ولا هو موجود له فى
خِزَانَتِهِ فيتحرك لاقتنائه وتحصيله بحسب ميله إلى أحد الأمرين ، أعنى المعقول أو

(١) راجع أخبار الحكماء ص ٦٤ - ٦٥ .

(٢) فى الأصل : « الملك » .

(٣) فى اللسان : « البذل : ضد المنع ، بذله يبذله وبذلاً : أعطاه وجاد به » .

(٤) فى اللسان : « تشوفت إلى الشيء : أى تطلعت ، ورايت تساء يتشوفون من السطوح . أى ينظرون
وينطلون » .

المحسوس ، فإذا حَصَّلَه سَكَنَ من هذه الجهة ، وعلم أنه قد ادخره ، ومتى رجع إليه وجده ، إن كان مما يَبْقَى بالذاتِ ، وَتَشَوَّفَ إلى جهة أخرى ، ولا يزال كذلك إلى أن يعلم أن الجزئيات لا نهاية لها ، وما مالا نهاية له فلا طمع في تحصيله ، ولا فائدة في التَّزاع (١) إليه ، ولا وجه لطلبه ، سواء كان في المعلوم أو في المحسوس . وإنما ينبغي أن يقصد مِنَ الْمَعْلُومَاتِ إلى الأنواع والذوات الدائمة السرمدية الموجودة أبدا بحالة واحدة ، ويكون ذلك برد الأشخاص التي بلا نهاية إلى الوحدة التي يمكن أن تتأحد بها النفس ، وَمِنَ الْمَحْسُوسَاتِ الْمُقْتَنَاتِ إلى ضَرُورَاتِ الْبَدَنِ وَمُقِيمَاتِهِ دون الاستكثار منها ؛ فإن استيعاب جميعها غير ممكن لأنها أمور لا نهاية لها .

فإذن كل ما فَضَّلَ عن الحاجة ، وَقَدَّرَ الْكِفَايَةَ فهو مادة الأحزان والهموم والأمراض ، وَضُرُوبُ الْمَكَارِهِ .

والغلط في هذا الباب كثير ، وسبب ذلك طمع الإنسان في الغنى من معدن الفقر ؛ لأن الفقر هو الحاجة ، والغنى هو الاستقلال ، أعنى ألا يحتاج بَتَّةً ؛ ولذلك قيل إن الله - تعالى - غنى ؛ لأنه غير محتاج بته .

فأما من كثرت قُنْيَاتُهُ فإنه ستكثر حاجاته بحسب كثرة قنياته وعلى قدر مُنَازَعَتِهِ إلى الاستكثار تَكَثُرُ وجوه فقره ، وقد تبيّن ذلك في شرائع الأنبياء ، وأخلاق الحكماء . فأما الشيء الرخيص الموجود كثيرا فإنما رُغِبَ عنه لأنه معلوم أنه إذا تَمَسَّيَ وَجَدَ ، وأما الغالي فإنما يُقَدَّرُ عليه في الأحيان وَيُصَيِّهُ الواحدُ بعد الواحد ، فكل إنسان يتمنى أن يكون ذلك الواحد ؛ لِيَحْصُلَ له ما لم يحصل لغيره ، وذلك من الإنسان على السبيل الذي شرحناه من أمره .

لماذا ينظر الانسان في العواقب ؟

ما سبب نظر الإنسان في العواقب ؟

وما مثاره منها ؟ وما آثاره فيها ؟

وما الذي يَحْلِي بِهِ (٢) إذا استقصى ؟ وما الذي يَتَخَوَّفُهُ إذا جَنَحَ إلى الْهُوَيْنِ ؟

(١) في اللسان : « ونازعتني نفسي إلى هواها نزعا : غلبتني ، ويقال للإنسان : إذا هوى شيئا ونازعته نفسه إليه - هو ينزع إليه نزعا - .

(٢) في اللسان : « وحلى بقلبي وعيني يحلى ، وحلى يحلو حلوة وحلوانا : إذا أعجبك وهو من المقلوب والمعنى يحلى بقلبي .

أو ما مراد الأولين في قولهم : الْمُخْتَفِلُ^(١) مُلْقَى^(٢) ، والمُسْتَرْسِلُ مُوقَى^(٣) .
الجواب

قال أبو علي مسكويه - رحمه الله - :
أما نظر الإنسان في العواقب فيكون لأمرين .
أحدهما لِيَتَطَلَّعَ إلى الأمور الكائنة ، وشوقه إلى الوقوف على الأمر الكائن قبل
حدوثه ، لما تقدم فيه من الكلام في المسألة الأولى .
والآخر لأخذ الأَهْبَةِ له إن كان مما ينفع فيه ذلك ؛ ولهذا المعنى اشتاق الإنسان
إلى الفأل والزَّجَر إذا عدم جميع وجوه الاستدلال من أشكال الفلك ، وحركات
النجوم ، وربما عدل إلى الْمُتَكِيهِين ، وصدَّق بكثير من الظنون الباطلة .

وأما قول المتقدمين : « المحتفل مُلْقَى ، والمسترسل مُوقَى » فهو على ظاهر
كالمُنَاقِضِ للحكم الأول ؛ وذلك أن الإشارة في هذا المثل هو إلى أن الْمُخْتَفِلَ إنما
يَتَوَقَّى ما لا بد أن يصيبه ، فهو يجتهد أن يخرج من حكم القضاء أعنى موجبات الأقدار
بتوسط حركات الفلك ، فيصير اجتهاده في الخروج منه سببا لحصوله فيه ، ووقوعه
عليه . وإلى هذا المعنى أشار الشاعر بقوله :
وَإِذَا حَدَرَتْ مِنَ الْأُمُورِ مُقْسَدًا وَهَرَبَتْ مِنْهُ قَنَحَسُوءٌ تَتَسَوَّجُهُ
فَأَمَّا الْمُسْتَرْسِلُ إلى ذلك ، الرَّاضِي به فإنه مُوقَى مما هو غير مُقْضِيٍّ ، ولا هو
بمصيب له وإن لم يَتَوَقَّه ، كما قال الشاعر فيمن كان بغير هذه الصِّفَةِ :
حَلِيزُ أُمُورًا لَا تَكُونُ وَخَائِفٌ مَالِيسٌ مُنْجِبٌ مِنَ الْأَقْدَارِ
ويتصل بهذا الباب شرح ما يجب أن يَتَوَقَّى ، وما يجب ألا يَتَوَقَّى ، أعنى بذلك
ما يغنى فيه الْفِكْرُ وَالرَّوْيَةُ ، وما لا يغنى فيه . وإذا مر ما يقتضيه من الكلام استقصيته
إن شاء الله .

ماذا يلحق الانسان من قرينه ؟

ما يصيب الإنسان من قرينه في خيره وشره ؟
وكيف صار يُؤَثَّرُ الشرير في الخير أسرع مما يُؤَثَّرُ الخير في الشرير ؟
وما فائدة النفس في المقارنة ؟

(١) في اللسان : « الحفل : المبالاة ، يقال : ما احفل بفلان ، أى ما أبالي به ، وحفلت كذا وكذا - أى بالغيت به » .

(٢) في اللسان رجل ملقى : أى لا يزال يلقاه مكروه .

(٣) في اللسان : وقاه الله وقاية بالكسر : أى حفظه ، والتوقية الكلاءة والحفظ قال : * إن الموقى مثل ما وقيت * .

الجواب

قال أبو علي مسكويه - رحمه الله - :
ينال القرين من قرينه الاقتداء والتشبه ، وكما أن كل متجاورين من الأشياء الطبيعية لا بد أن يؤثر أحدهما في الآخر فكذلك حال النفس ؛ وذلك أن الطبيعة مُتشَبَّهة بالنفس ؛ لأنها شبيهة بظل النفس ، ومن شأن الشيء الأقوى في الطبيعة أن يُحِيلَ الأضعف إلى نفسه ويُشَبِّهه بذاته ، كما تجد ذلك في الحار والبارد ، والرطب واليابس ؛ ولأجل تأثير المجاور في مجاوره حدثت الأمراض في البدن ، وبسببه عُولِجَ بالأدوية .

ولما كانت النفس التي فينا هيولانية^(١) صار الشر لها طباعا ، والخير تكلُفاً وتعلُّماً ، فاحتجنا - معاشر البشر - أن نتعب بالخير حتى تَسْتَفِيدَهِ وَنَقْتَنِيهِ ، ثم ليس يكفيننا تحصيل صورته حتى نألفه ، ونعوده ، ونُكْرِرَ زماناً طويلاً الحالة التي حصلت لنا منه على أنفسنا ؛ لتصير مَلَكَةً وَسَجِيَّةً بعد أن كانت حالا .
فأما الشر فلسنا نحتاج إلى تعب به ، وتحصيله ، بل يكفي فيه أن نُخْلَى النفسَ وَسَوْمَهَا^(٢) ، ونتركها على طبيعتها ، فإنها تخلص من الخير ، والخُلُو من الخير هو الشر ؛ لأنه قد تبين في المباحث الفلسفية أنه ليس الشر بشيء له عين قائمة ، بل هو عدم الخير ؛ ولذلك قيل : الهيولي معدن الشر وينبوعه لأجل خُلُوها من جميع الصور ، فالشر الأول البسيط هو عدم ، ثم يتركب ، وسبب تركبه الأعدام التي هي مقترنة بالهيولي .

وشرح هذا الكلام طويل ، إلا أن الذي يحصل لك من جواب المسألة فيه أن النفس تشبه بالنفس المقارنة لها ، وتقتدى بها ، والشر أسرع إليها من الخير ؛ لما ذكرناه وهو أن النفس التي فينا هي هيولانية ، وأعني بهذا القول أنها قابلة للصور من العقل ، فالمعقولات إنما تصير معقولات لنا إذا ثبتت صورها في النفس ، ولذلك قال أفلاطون : إن النفس مكان للصور . واستحسن أرسططاليس هذا التشبيه من أفلاطون ؛ لأنه استعارة حسنة ، وإيماء فصيح إلى المعنى الذي أراد .
فيجب - على هذا الأصل - أن نتوقى مُجَالَسَةَ الأشرار ، ومخالطتهم ، ومقارنتهم ، ونقبَل قول الشاعر :

(١) في الأصل : لاهوتية . .

(٢) في اللسان : وخليته وسومه : أي وما يريد . .

عن المرء لا تسأل وأبصر قرينه^(١) فإن القرين بالمقارن مقتد^(٢)
وينبغي أن نأخذ الأحداث والصبيان به أشد الأخذ فقد مر في مسألة ما يحقق هذا
المعنى ، ويؤكدّه ، وينبّه عليه .

لماذا يتظاهر الانسان ؟

ماوجه تسخيف من أطال ذيلة وسخيه ، وكبر عمامته ، وحشا زيقه^(٣) قطناً وعرض جنيته
تعريضاً ، ومشى متنهيساً^(٤) ، وتكلم متشادفاً ؟
ولم شنع هذا ونظيره ؟ وما الذي سمح هذا وأمثاله ؟
ولم لم يترك كل إنسان على رأيه واختياره ، وشهوته وإيثاره ؟
وهل أطبق العقلاء المميزون ، والفضلاء المبرزون على كراهة هذه الأمور إلا ليرخاف ،
وتخيف موجدته ؟
فما ذلك السر ؟ وما تلك الحيلة ؟

الجواب

قال أبو علي مسكويه - رحمه الله - :
يُنكر مما ذكرته كله التكلف ، وذاك أن من خالف عادات الناس في زيهم ،
ومذاهبيهم ، وتفرّد من بينهم بما يُبائنههم ، ثم احتمل مؤونة ما يتجشمه ، فليس ذلك
منه إلا لغرض مخالف لأغراضهم ، وقصدٍ لغير ما يقصدونه : فإن كان غايته من هذه
الاشياء أن يشهر نفسه ، ويُنَبِّه على موضعيه فليس يعدو أن يُرهّم بها أمراً لا حقيقة له ،
ويطلب حالاً لا يستحقها ؛ لأنه لو كان يستحقها لظهرت منه ، وعرفت له من غير
تكلف ولا تجشّم لهذه المؤن الغليظة ، فإذا هو كاذب فعلاً ، ومزور باطلاً
وما تعاطى ذلك إلا ليغرّر سليماً ، ويخدع مستريلاً . وهذا ملتهب المحتال الذي
يتحرّز منه ، ويتباعده عنه . هذا إلى ما يجمعه من بديهة المخالفة ، والمخالفة سبب
الاستيحاءش ، وعلة التفور ، وأصل المعادة .
ولنما حرص الناس وأهل الفضل ، وحرص لهم الأنبياء عليهم السلام بما وضعوه
لهم من السنن والشرائع ؛ لتحدث بينهم الموافقة والمناسبة التي هي سبب
المحبات ، وأصل المودات ؛ ليتشاركوا في الخيرات ، ولتحصل لهم صورة التأخذ
الذي هو سبب كل فضيلة ، ولأجله تم الاجتماع في المدينة الذي هو سبب حسن
الحال في العيش والاستمتاع بالحياة والخيرات المطلوبة في الدنيا .

(١) يروى « وسل عن قرينه » والبيت لعدى بن زيد كما في عيون الأخبار ٧٩/٣ وحماسة البحتري ٣٠٧
ومجموعة المعاني ص ١٤ ونهاية الأرب ٦٢/٣ وجمهرة أشعار العرب ص ١٠٢ وورد منسوباً لطرفة كما في
ديوانه ص ١٥٣ .

(٢) في اللسان « زيق القميص : ما لحاظ بالعتق » .

(٣) في اللسان « يتبهس : إذا كان يتبختر في مشبه » .

لماذا الخوف بلا مخيف ؟

ما سبب استشعار الخوف بلا مخيف ؟
وما وجه تجلّد الخائف والمصاب كرامة أن يوقّف منه على فُسولة طبيعه ، أو قلّة مكائبه ، أو سوء جزعه . هذا مع تخاذل أعضائه ، وبذائه على ما به ، واستحالة أعراضه ، ووجيب قلبه ، وظهور علامات ما إذا أراد طيه ظهر على أسيرة وجهه ، وألحاظ عينيه ، وألفاظ لسانه ، واضطراب شمائله ؟

الجواب

قال أبو علي مسكويه - رحمه الله - :
سبب ذلك توقّع مكروه حادث ، فإن كان السبب صحيحاً قوياً ، والدليل واضحاً جلياً كان الخوف فى موضعه .
وإن لم يكن كذلك ، وكان من سوء ظن ، وفساد فكر فهو مرض أو مزاج فاسد من الأصل .

ثم بحسب ذلك المكروه يتحسن الصبر ، ويتمدّد احتمال الأذى العارض منه وتظهر من الإنسان أمارات الشجاعة أو الجبن .
وأثبت الناس جنانا وجأشاً ، وأحسنهم بصيرة وروية لا بد أن يضطرب عند نزول المكروه الحادث به ، الطارئ عليه ، لاسيما إن كان هائلاً ؛ فإن أرسططاليس يقول : « من لم يجرع من هيج البحر وهوراكه ، ومن الأشياء الهائلة التى فوق طاقة الإنسان فهو مجنون » .

وكثير من المكاره يجرى هذا المجرى ويقاربه ، والجرع لا حق بالمرء على حسبه ومقداره : فإن كان المكروه والمتوقّع مما يطيق الإنسان دفعه أو تخفيفه فذهب عليه أمره ، واستولى عليه الجزع ، ولم يتماسك له فهو جبان جزوع مذموم من هذه الجهة .

ودواؤه التدرّب باحتمال الشدائد وملاقاتها ، والتصبر عليها ، وتوطيئ النفس لها قبل حدوثها ؛ لئلا تردّ عليه وهو غافل عنها ، غير مستعد لها .
وإذا كانت الشجاعة فضيلة ، وكانت ضدّها نقيصة ورذيلة ؛ فمن الذى لا يحب أن يستتر نقيصته ، ويظهر فضيلته ، مع ما تقدم من قولنا فيما سبق . إن كلّ إنسان يعشق ذاته ، ويحب نفسه ؟

لماذا يغضب الانسان ؟

ما سبب غضب الإنسان وضجره إذا كان مثلاً يفتح قفلاً فيتعرّض عليه حتى يُجَنّ ، ويتعصّر على القفل ، ويكفر ، وهذا عارض فاش فى الناس ؟

الجواب

قال أبو علي مسكويه - رحمه الله - :
هذا العارض وشبهه من أقبح ما يعرض للإنسان ، وهو غير معذور ، إن لم يضلحه
بالخلق الحسن المحمود ؛ وذلك أن الغضب إنما يثور به دم القلب لمحبة الانتقام .
وهذا الانتقام إذا لم يكن كما ينبغي ، وعلى من ينبغي ، وعلى مقدار ما ينبغي فهو
مذموم ، فكيف به إذا كان على الصور التي حكيتها .

فأما سؤالك عن سبب الغضب فقد ذكرته وأجبته عنه ، وإذا تأر في غير موضعه
فواجب على الإنسان الناطق المميز أن يسكنه ، ولا يستعجله ، ولا يجرى فيه على
منهاج البهيمة ، وسنة السبع ؛ فإن من أعانته بالفكرة ، وألهبه بسلطان الروية حتى
يحتدّم ويتوقّد فإنه سيعسر بعد ذلك تلافيه وتسكينه ، والإنسان مذموم به إذا تركه وسوم
الطبيعة ، ولم يظهر فيه أثر التمييز ، ومكان العقل .

وجالينوس^(١) قد ذكر في كتاب الأخلاق حديث القفل بعينه ، وتعجب من جهل
من يفعل ذلك ، أو يرفس الحمار ويلكّم البغل ، فإن هذا الفعل يدل على أن
الإنسانية يسيرة في صاحبه جدا ، والبهيمية غالبية عليه ، أعنى سوء التمييز وقلة
استعمال الفكر .

وليس هذا وحده يعرض لحشو الناس وعامتهم ، بل الشهوة والشبق وسائر
عوارض النفس البهيمية والغضبية إذا هاج بهم ، وابتدأ في حركته الطبيعية لم
يستعملوا فيه ما وهبه الله - تعالى - لهم ، وفضلهم به ، وجعلهم له أناسي ، أعنى أثر
العقل بحسن الروية ، وصحة التمييز ، والله المستعان ، ولا قوة إلا به .

لماذا .. العداوة سهلة والصداقة صعبة ؟

لم كان الإنسان إذا أردا أن يتخذ عدّة أعداء في ساعة واحدة قنر على ذلك ، وإذا قصد اتخاذ
صديق ومُصافاة جَدَن واحد لم يستطع إلا بزمان واجتهاد وطاعة وغرم ؟
وكذلك كل صلاح مأمول ، ونظام مطلوب في جميع الأمور ، ألا ترى أن الفتن أسهل من
الخطاة ، والهدم أيسر من البناء ، والقتل أخف من التربية والإحياء ؟

الجواب

قال أبو علي مسكويه - رحمه الله - :
جواب مسلتك هذه منها . وما أشبهها بحكاية سمعتها عن الأصمعي ، وذلك أنه
بلغني أن قارئاً قرأ عليه :

(١) راجع فهرست ابن النديم ص ٤٠٢ - ٤٠٣ . وأخبار الحكماء ص ٨٥ .

الألمعى الذى يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمعا
 فقال : يا أبا سعيد : ما الألمعى ؟
 فقال : الذى يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمعا .
 فأننا قائل فى هذه المسألة أيضا :
 إنما صار الإنسان قادراً على اتخاذ الأعداء بسرعة ، وغير قادر على اتخاذ الأصدقاء
 إلا فى زمان طويل ، وبغرامة كثيرة لأن هذا فتن ، وذاك رتن ، وهذا هدم ، وذاك
 بناء . وسق باقى كلامك فإنه جوابك .

لماذا يحب الإنسان الرئاسة ؟

ما السبب فى محبة الإنسان الرئاسة^(١) ؟
 ومن أين ورث هذا الخلق ؟
 وأى شىء رمزت الطبيعة به ؟
 ولم أفرط بعضهم فى طلبها ، حتى تلقى الأسيئة بتخره ، وواجه المرفقات بصدره ، وحتى هجر
 من أجلها الوساد ، ودع بسببها الرقاد ، وطوى المهامة والبلاد ؟
 وهل هذا الجنس من جنس من امتعض فى ترتيب العنوان إذا كوتب أو كاتب ؟
 وما ذاك من جميع ما تقدم ؟ فقد تشاح الناس فى هذه المواضع وتباينوا وبلغوا المبالغ .

الجواب

قال أبو على مسكويه - رحمه الله - :
 قد تبين أن فى الناس ثلاث قوى ، وهى : الناطقة ، والبهيمية ، والغضبية .
 فهو بالناطقة منها يتحرك نحو الشهوات التى يتناول بها اللذات البدنية كلها .
 ويظهر أثرها من الكبد .
 وبالغضبية منها يتحرك إلى طلب الرئاسة ، ويشتاق إلى أنواع الكرامات ،
 وتعرض له الحمية والأنفة ، ويلتمس العز والمرتبة الجليلة العالية ، ويظهر أثرها من
 القلب .
 وإنما تقوى فيه واحدة من هذه القوى بحسب مزاج قوة هذه الأعضاء التى تسمى
 الرئيسية فى البدن .
 فربما خرج عن الاعتدال فيها إلى جانب الزيادة والإفراط ، أو إلى ناحية النقصان
 والتفريط ، فيجب عليه حينئذ أن يعدلها ويردّها إلى الوسط - أعنى الاعتدال الموضوع

(١) فى الأصل : « ما سبب الإنسان فى محبة الرئاسة » .

له - ولا يسترسل لها بترك التقويم والتأديب ؛ فإن هذه القوى تهيجُ لما ذكرناه .
فإن تُركتْ وَسَوِّمَتْ ، وَتَرَكَ صاحبُها إصلاحَها وعلاجَها بالأعْقالِ واتباع الطبيعة
تَفَاقَمَ أمرُها ، وغلبت حتى تَجْمَعَ إلى حيث لا يُطْمَعُ في علاجها ويُؤس من بُرئها .
وإنما يُملِكُ أمرُها وتأديبُها في مبدأ الأمر بالنفس التي هي رئيسة عليها كلها - أعني
المميّزة العاقلة ، التي تسمى القوة الإلهية - فإن هذه القوة ينبغي أن تستولى ، وتكون
لها الرئاسة على الباقية .

فمحنة الإنسان للرئاسة أمر طبيعي له ، ولكن يجب أن تكون مُقوِّمة ؛ لتكون في
موضعها ، وكما ينبغي .

فإن زادت أو نقصت في إنسان لأجل مزاج أو عادة سيئة وجب عليه أن يُعدِّلَها
بالتأديب ؛ ليتحرك كما ينبغي ، وعلى ما ينبغي ، وفي الوقت الذي ينبغي .
وقد مضى من ذكر هذه القوى وآثارها في موضعه ما يجب أن يقتصر بها هنا على
هذا المقدار . ونقول :

إنه كما يعرض لبعض الناس أن يلقي الأسنة بنحره ، ويركب أهوال البر والبحر
لنيل الشهوات بحسب حركة قوة النفس البهيمية فيه ، وتَرْكِه قَمْعَها - فكذلك يعرض
لبعضهم في نهوض قوة النفس الغضبية فيهم إلى نيل الرئاسات والكرامات - أن يُركَّبَ
هذه الأهوال فيها .

ومدارُ الأمر على العقل الذي هو الرئيس عليها ، وأن يجتهد الإنسان في تقوية
هذه^(١) النفس ؛ لتكون هي الغالبة ، وتتعبَّد القوتان الباقيتان لها حتى تُصْبِرَ عن أمره
وتتحرك لما ترسمه ، وتقف عندما يحده ؛ فإن هذه القوة هي التي تسمى الإلهية ،
ولها قوة على رئاسة تلك الآخر ، وهداية إلى علاجها وإصلاحها ، واستقلال بالرئاسة
الثامة عليها ، ولكنها - كما قال أفلاطون - في لين الذهب وتلك في قوة الحديد
وللإنسان الاجتهاد والميل إلى تذليل هذه لتلك ، فإنها سَتَلِدُ وتنقاد . والله المعين ،
وهو حسبنا ونعم الوكيل .

لماذا السلوى .. ولماذا الجزع ؟

ما علة الإنسان في سلوته إذا كانت محنة عامة له ، ولغيره ؟
وما علة جزعه واستكثاره وتحسره إذا خَصَّتْه المصيبة ، ولم تغدِ المصيبة ؟
وما سر النفس في ذلك ؟

(١) في الأصل ، هذا . .

وهل هو محمود من الإنسان أم مكروه ؟
وإذا نَزَّأ به هذا الخاطر فِيمَ يُعَالِجُه ، وإلى أى شىء يردُه ؟
ولمَ يَتَمَنَّى بسبب محنته أن يَشْرُكُهُ النَّاسُ ؟ ولمَ يَسْتَرِجِع إلى ذلك ؟ صحابنا يروون مثلاً
بالفارسية ترجمته : من احترق يَنْزَرُهُ (١) أراد أن يحترق يَنْزُرُ غيره .

الجواب

قال أبو علي مسكويه - رحمه الله - :
الجزع والأسف والحزن من عَوَارِضِ النَّفْسِ ، وهى تَجْرى مجرى سائر العَوَارِضِ
الأخر كالغضب والشهوة والغيرة والرحمة والقسوة وسائر الأخلاق التى يُحْمَدُ الإنسان
فيها إذا عرضت له كما ينبغي ، وبسائر الشروط التى أحصيناها مراراً كثيرة ، ويُذَمُّ بها
إذا عرضت بخلاف تلك الشرائط .

وإنما تَهْتَدِبُ النَّفْسُ بالأخلاق لتكون هذه العوارض [التى] تعرض له فى مواضعها
على ما ينبغي فى الوقت الذى ينبغي ، فالحزن الذى يعرض كما ينبغي هو ما كان فى
مصيبية (١) لحقت الإنسان لذنوب اجتَرَحَهُ ، أو لعمل فَرَطَ فيه ، أو كان له فيه سبب
اختيارى ، أو لسوء اتفاق خَصَّهُ دون غيره وهو يجهل سببه ، فَإِنَّ هذا الحزن وإن كان
دون الأول فالإنسان مَعْدُورٌ به .

فأما ما كان ضروريا ، أو واجبا فليس يحزن له عاقل ؛ لأن غروب الشمس مثلا لما
كان ضروريا لم يحزن له أحد ، وإن كان عائقا عن منافع كثيرة ، وضارا بكل أحد ،
وَمَنَعَ النَّظَرَ والتَصَرَّفَ فى منافع الدنيا ، وكذلك هجوم الشتاء والبرد ، وورود الصيف
بالحر لا يحزن له عاقل ؛ بل يستعد له ، ويأخذ أُهْبَتَهُ .

وأما الموت الطبيعى فليس يحزن له أحد ؛ لأنه ضرورى ، وإنما يجزع الإنسان
منه إذا ورد فى غير الوقت الذى كان ينتظره ، أو بغير الحالة الْمُحْتَسِبَةِ ؛ ولذلك يجزع
الوالد على موت ولده ؛ لأن الذى احتسبه أن يموت هو قبله .

فأما الولد فيقل جزعه على والده ؛ لأن الأمر كما كان فى حسابه إلا أنه تقدم مثلا
بزمان يسير ، أو كما ينبغي .

فأما ما يعرض للمسافر ، ولِرَاكِبِ البحر أن يُخَصَّصَ دون مَنْ يَصْحَبُهُ بمحنة فى ماله
أو جسمه ، فإنما حزنه لسوء الاتفاق ورداءة البخت فإن هذا النوع مجهول السبب ؛
ولذلك يُعَذَّرُ فيه أدنى عذر .

(١) فى اللسان ، البيدر : الموضع الذى يداس فيه الطعلم .

(٢) فى الأصل ، لمصيبة .

وأما من يتمنى لغيره من السوء مثل ما يحصل له فهو شر في طبعه .

لماذا السفر؟

لَمْ حَنَ بعض الناس إلى السفر من لَذَن طفولته إلى كهولته . ومنذ صغره إلى كبره . حتى إنه يُعَقِّ الوالدين ، ويشُقُّ الخافقين صابراً على وَغْثِ السفر ، وذُلِّ الغربة . ومهانة الخمول . وهو يسمع قول الشاعر :

إنَّ الغريبَ بحيث ما حطَّ . ركائبه ذليلٌ
ويُذُّ الغريبَ قصيرةً . ولسانه أبداً كليلٌ
والناس ينصرفون بعضهم ببعضاً . وناصره قليلٌ
وآخر ينشأ في حضن أمه ، وعلى عاتق ظهره ، ولا ينزعُ به حين إلى بلد ، ولا يقبله شوق إلى أحد ، كأنه حجر جبله ، أو حصاة جدوله ؟

لعلك تقول : مواضع الكواكب ، ودرجة الطالع ، وشكل الفلك اقتضت له هذه الأحوال . وقصَّرتَه على هذه الأمور ، فحيث تكون المسألة عليك في آثار هذه النجوم ، وتوزيعها هذه الأسباب على ما هي عليه من ظاهر التَّخْيِير - أشدَّ ، وتكلف الجواب عنها أكثَر . وأنكد .

الجواب

قال أبو علي مسكويه - رحمه الله - :

إِنَّ قُوَّةَ النَّزَّاعِ إلى المحسوسات تنقسم بانقسام الحواس . وكما أن بعض المزاج تقوى فيه حاسة البصر ، وبعضه تقوى فيه حاسة السمع ، فكذلك الحال في القوة النَّزَّاعِيَّة التي في تلك الحاسة ؛ لأنها هي التي تشتاق إلى تكمُّل الحاسة ، وتصييرها بالفعل بعد أن كانت بالقوة . ومعنى هذا الكلام أن الحواس كلها هي حواس بالقوة إلى أن تدرك محسوساتها ، فإذا أدركتها صارت حواس بالفعل .

وإذا كان الأمر على ما وصفنا فليس بعجب أن يكون هذا المعنى في بعض الحواس قويا ، ويضعف في بعض ، فيكون بعض الناس يشتاق إلى السَّماع ، وبعضهم إلى النظر ، وبعضهم إلى المذُوقات من المأكول والمشروب ، وبعضهم إلى المَشْمُومَات والوان الروائح ، وبعضهم إلى الملبوسات من الثياب وغيرها . وربما اجتمع لواحد بعد الواحد أن يشتاق إلى اثنين منها ، أو ثلاثة ، أو إليها كلها . ولكل واحد من هذه المحسوسات أنواع كثيرة لا تحصى ، لأنواعها أشخاص بلا نهاية . وهي على كثرتها وعددها الجَمِّ ، وخروجها إلى حد ما لا نهاية له ليست كَمَالَات للإنسان من حيث هو إنسان ، وإنما كماله الذي يَتِمُّ إنسانيته هو فيما يدركه بعقله . أعنى العلوم . وأشرفها ما أدى إلى أشرف المعلومات . وإنما صار البصر

والسمع أشرف الحواس لأنهما أخص بالمعارف ، وأقرب إلى الفهم والتمييز ، وبهما تَدْرَكُ أوائل المعارف ، ومنها يرتقى إلى العلوم الخاصة بالنطق .
 وإذا كانت الحالة على هذه الصورة في الشوق إلى ما يَتِمُّ وجود الحواس ، ويُخرجها إلى الفعل ، وكان من الظاهر المتعارف أن بعض الناس يشترك في نوع منها فيحتمل فيه كل مشقة وأذى حتى يبلغ أَرَبَهُ فيه لم يكن بديعاً ولا عجباً أن يشترك آخر إلى نوع آخر فيحتمل مثل ذلك فيه . إلا أنا وجدنا اللغة في بعض هذه قد غُيِّت فوضعت له اسماً ، وفي بعضها لم تُعَنْ فأهملته : وذلك أنا قد وجدنا لمن يشترك في [المأكول] والمشروب إذا أفرطت قوته التَّزَاعِيَّةُ إليهما حتى يعرض له ما ذكرتُ من الحرص عليهما ، والتَّوَصُّلُ إليهما ما يحتمل معه ضُروب الكَلْفِ والمَشَاقِ اسماً ، وهو الشَّرُّ والنَّهْمُ . ولم نجد لمن يعرض له ذلك في المشموم والمسموع اسماً . وأظن ذلك لأجل كثرة ما يوجد من ذلك الضرب ، ولأن عيبه أفحش ، وما يَجْلِبُهُ من الآثام والقبائح أكثر .

فقد ظهر السبب في تشوُّق بعض الناس إلى الغربة وجَوَلَانِ الأرض . وهو أن قوته التَّزَاعِيَّةَ التي تختص بالبصر تُجِبُّ الاستكثار من المُبْصِرَاتِ وتحديدها ، وَيُظَنُّ أن أشخاص المُبْصِرَاتِ تُسْتَفْرَقُ ، فهو يحتمل كثيراً من المشاق في الوصول إلى أَرَبِهِ من إدراك هذا النوع .

وقد نجد من يحتمل أكثر من ذلك إذا تَحَرَّكَ بقوته التزاعية إلى سائر المحسوسات الآخر ، والاستكثار منها . فتأمل الجميع ، وأعد نظرك ، وتصفح جزئياتها تجد الأمر فيها واحداً .

لماذا الرغبة في العلم ؟

ما سبب رغبة الإنسان في العلم ؟
 ثم ما فائدة العلم ؟ ثم ما غائِلَةُ الجهل ؟ ثم ما غائِذَةُ الجهل الذي قد شَبِلَ الخَلْقُ ؟
 وما سر العلم الذي قد طُبِعَ عليه الخَلْقُ ؟
 فإن استَشَفَّافَ هذه الفصول ، واستكشافَ هذه الأصول يُبَيِّرَانِ علما وحكما جَمًّا ، وإن كان فيها - في البحث عنها ، وبعض أوائلها وأواخرها - مشقة على النفس ، وثقل على الكاهل . ولولا معونة الخالق مَنْ كَانَ يَقْطَعُ هذه التَّائِفَ المُلْسِ ؟ ومن كان يسلك هذه المهامه الخُزْسَ ؟ ولكن الله - تعالى - وَلِيُّ المخلصين ، وناصر المطيعين ، ومُغِيثُ المُستعرجين .

الجواب

قال أبو علي مسكويه - رحمه الله - :
 مرُّنا في عرض كلامنا على هذه المسائل ما يُنبِّه على جواب هذه المسألة . ولكنه لا بد من إعادة شيء منه يزيد في كشف الشبهة ، وإزالة الشك . وهو أن العلم كمالٌ

الإنسان من حيث هو إنسان ؛ لأنه إنما صار إنساناً بصورته التي مَيَّزَتْهُ عن غيره . أعنى النَّبات والجماد والبهائم .

وهذه الصورة التي مَيَّزَتْهُ ليست في تَخَاطُطِطِهِ وشكله ولونه . والدليل على ذلك أنك تقول : فلان أكثر إنسانية من فلان ، فلا تعنى به أنه أتم صورة بدن . ولا أكمل في الخلق التخطيطي ، ولا في اللون ، ولا في شيء آخر غير قوته الناطقة التي يُعَيِّزُ بها بين الخير والشر في الأمور ، وبين الحسن والقيبح في الأفعال ، وبين الحق والباطل في الاعتقادات ؛ ولذلك قيل في حد الإنسان : إنه حي ناطق ماث . فَمَيَّزَ بالنطق ، أعنى بالتمييز بينه وبين غيره ، دون تخطيطه وشكله ، وسائر أغراضه ولواحقه .

وإذا كان هذا المعنى من الإنسان هو ما صار به إنساناً ، فكلما كَثُرَتْ إنسانيته كان أفضل في نوعه . كما أن كل موجود في العالم إذا كان فعلة الصادر عنه بحسب صورته التي تخصه ، فإنه إذا كان فعلة أجود كان أفضل وأشرف . مَثَلُ ذلك الفرس والبازي من الحيوان ، والقلم والفأس من الآلات ، فإن كل واحد من هذه إذا صَدَرَ عنه فعلة الخاص بصورته كاملاً كان أشرف في نوعه ممن قصر عنه ، وكذلك الحال في النَّبات والجماد ، فإن لكل واحد من أشخاص الموجودات خاص صورة يَصْدُرُ عنه فعلة ، وبحسبه يشرف أو يهبط إذا كان تاماً أو ناقصاً . فأى فائدة أعظم مما يُكْمَل وجودك ، ويتمم نوعك ، ويعطيك ذاتك حتى يَمَيِّزَكَ عن الجماد والنَّبات والحيوانات التي ليست بناطقة ، ويقربك من الملائكة والإله - عز وجل ، وتقديس وتعالى - وأى غائلة أدهى وأمر ، وأكَلَمُ وأطَمُّ مما يُنَكِّسُكَ في الخلق ، ويردك إلى أرذل وجودك ، ويَحْطُكَ عن شرف مقامك إلى خساسة مقامات ما هو دونك ؟

أظنك تذهب إلى أن العلم يجب أن يفيدك - لا محالة - جاهاً ، أو سلطاناً أو مالاً تتمكن به من شهوات ولذات . فلعمري إن العلم قد يفعل ذلك ، ولكن بالعرض لا بالذات ؛ لأن غاية العلم ، والذي يسوق إليه ، ويكمل به الإنسان ليس هو غايات الحواس ، ولا كمال البدن . وإن كان قد يتم به ذلك في كثير من الأحوال . ومتى استعملته في هذا النوع فإنه يُكْمَلُ صورتك البهيمية والنباتية ، وكأنه استعمل في أرذل الأشياء ، وهو مُعَدَّ لأن يُسْتَعْمَلَ في أشرفها .

لماذا يأمل الإنسان ؟

لِمَ كُلَّمَا شاب البدن شَبَّ الأمل ؟ قال أبو عثمان التَّهْدِي^(١) : قد أتت على مائة وثمانون سنة ،

(١) هو عبد الرحمن بن مل القضاعي . أدرك النبي صلى الله عليه وسلم ولم يره . وشهد فتح القسسية والبرموك وغيرهما ، وتوفي بالبيصرة في أول ولاية الحجاج العراق ، كما قال ابن قتيبة في المعارف ص ١٨٨ وقيل مات سنة خمس وتسعين وقيل سنة مائة أو بعدها . راجع تاريخ بغداد ٢٠٢/١٠ - ٢٠٥ .

وأُنكرت كل شيء إلا الأمل ، فإنه أُخذ ما كان (١) .

ما سبب هذه الحال ؟ وعلى ماذا يدل الرمز فيها ؟

وما الأمل أولاً ؟ وما الأمانة ثانياً ؟ وما الرجاء ثالثاً ؟

وهل تشتمل هذه على مصالح العالم ؟

فإن كانت مُشْتَبَلة فلم تُوَاصى الناس بقصر الأمل ، وقُطِع الأمانى ، وبصُرْف الرجاء إلا فى الله - تبارك وتعالى - وإلى الله ؟ فإنه سائر العورة ، وزاجم العبرة ، وقابل التوبة وغافر الخطيئة ، وكل أمل فى غيره باطل ، وكل رجاء فى سواه زائل ؟
الجواب

قال أبو على مسكويه - رحمه الله - :

هذه المسألة قد أُخِذَ فيها فَعْلٌ من أفعال النفس فَقَرِنَ بفعل من أفعال الطبيعة التى بحسب البدن إلى الطبيعة والمزاج البدنى ، ثم وقعت المُقَايَسَةُ بينهما ، وهما يتباينان لا يتشابهان ، فلذلك عرض التعجب منها . وذلك أن الأمل والرجاء والمُنَى من خصائص القوة الناطقة . فأما الشَّيْبُ والنَّقْصَانَاتُ التى تعرض للبدن ، وعجز القوى التابعة للمزاج فهى أمور طبيعية فى آلات تَكِلُّ بالاستعمال ، . وتضعف على مر الزمان .

وأما أفعال النفس فإنها كلما تكررت وأدِيمَتْ فإنها تقوى ويشتد أثرها فهى بالضد من حال البدن . مثال ذلك أن النظر العقلى كلما استُعْمِلَ قَوِيَ واحتد ، وأدرك فى الزمان القصير ما يُدْرِكُه فى الزمان الطويل ، ولِحَقِّ الأمر الذى كان خفياً عنه بسرعة . والنظر الحسى كلما استعمل كَلَّ وضعف ، ونقص أثره إلى أن يَضْمَجُل .

فأما الفرق بين الأمل والرجاء وبين الأمانة فظاهر ؛ وذلك أن الأمل والرجاء يعلّقان بالأُمُور الاختيارية ، وبالأشياء التى لها هذا المعنى .

فأما الأمانة ، فقد تتعلق بما لا اختيار له ولا روية ؛ فإنه ليس يمنع مانع من تَمَنَّى المحال والأشياء التى لا تميز فيها ولا لها .

والأمل أخص بالمختار . والرجاء كأنه مشترك ، وقد يرجو الإنسان المطر والخضب ، وليس يأمل إلا من له قدرة وروية .

وأما المُنَى فهو - كما علمت - شائع فى الكل ، ذاهب كل مذهب ، فقد يتمنى الإنسان أن يطير ، أو يصير كوكباً أو يصعد إلى الفلك فيشاهد أحواله . وليس يرجو هذا ولا يأمله . ثم قد يرجو المطر ، وليس يأمل إلا منزل القطر ، ومنشئ الغيث . فهذه فروق واضحة .

(١) المعارف ص ١٨٨ وتاريخ بغداد ٢٠٤/١٠ .

لماذا غير المرأة أشد؟

لم صارت غير المرأة على الرجل أشد من غير الرجل على المرأة؟
هذا في الأكثر والأقل ، وكيفما كان ففيه خبيء وهو المشد على أحدهما . والمخفف عن الآخر .
وقد أدت الغيرة جماعة إلى تلف النفوس ، وإلى زوال النعم ، وإلى الجلاء عن الأوطان .

ثم قلت في المسألة التالية لهذه :
ما الغيرة أولاً ؟ وما حقيقتها ؟ وكيف أصلها وقصلها ؟
وقوتها على الإحالة وضعفها ظلمت^(١) على ما سألت عنه ، وتبين لك ما ضربت به المثل .

لماذا أحب الإنسان الأمثال؟

ما السبب في طلب الإنسان فيما يسمعه ويقول ويفعله ويرثيه ، ويؤوى فيه الأمثال ؟
وما لفائدة المثل ؟ وما غناؤه من^(٢) مآثاه ، وعلى ماذا فرائده ؟
فإن في المثل والمماثلة والتمثيل كلاماً رائقاً ، وغاية شريفة .

الجواب

قال أبو علي مسكويه - رحمه الله - :
إن الأمثال إنما تُضرب فيما لا تدركه الحواس مما تدركه .
والسبب في ذلك أنسنا بالحواس ، وإلفنا لها منذ أول كونها ، ولأنها مبادئ علومنا ، ومنها نرتقى إلى غيرها . فإذا أخبر الإنسان بما لم يدركه ، أو حدث بما لم يشاهده ، وكان غريباً عنده طلب له مثلاً من الحسن ، فإذا أعطى ذلك أنس به ، وسكن إليه لإلفه له .
وقد يعرض في المحسوسات أيضاً هذا العارض . أعني أن إنساناً لو حدث عن النعامة والزرافة والفيل والتمساح لطلب أن يصور له ليقع بصره عليه ، ويحصل تحت جسده البصري ، ولا يقنع فيما طريقه جس البصر بحس السمع حتى يردّه إليه بعينه . وهكذا الأمر في الموهومات فإن إنساناً لو كلف أن يتوهم حيواناً لم يشاهد مثله لسأل عن مثله ، وكلف مخبره أن يصوره له ، مثل عتقاء مغرب ، فإن هذا الحيوان ، وإن لم يكن له وجود ، فلا بد لمتوهمه أن يتوهمه بصورة مركبة من حيوانات قد شاهدها .

(١) في اللسان : التهمة ، الحاجة ، وقيل بلوغ الهمة والشهوة في الشيء . وفي الحديث : إذا قضى أحدكم نهمته من سفره فليعجل إلى أهله .

(٢) في الأصل : وما غناؤه وهو من .

فأما المعقولات فلما كانت صورها ألطف من أن تقع تحت الحس ، وأبعد من أن تمثّل بمثال الحس إلا على جهة التقريب صارت أخرى أن تكون غريبة غير مألوفة [و] النفس تسكن إلى مثل وإن لم يكن مثلاً ؛ لتأنس به من وحشة الغربة فإذا ألفتها ، وقويت على تأملها بعين عقلها من غير مثال سهل حيثئذ عليها تأمل أمثالها . والله الموفق لجميع الخيرات .

لماذا يقوى الوهم على الانسان ؟

كيف قوى الوهم على أن ينقش في نفس الإنسان أو حش صورة ، وأمقت شكل ، وأقبح تخطيط ، ولم يقو على أن يصور أحسن صورة ، وألطف شكل وأملح تخطيط ؟ ألا ترى أن الإنسان كلما اعترض في وهمه أو حش شيء عرته شمانية وعلته قشعريرة ، ولبحة صدوف ، ورجفة نفور ؟

فلو قوى الوهم على تصوير أحسن الحس لتعلل به الإنسان عند فراغ باله وخلوته . فما هذا ؟ وكيف هذا ؟

ولا عجب فلهذا الإنسان من هذه النفس والعقل والطبيعة أمور تستنفذ العجب ، وتحير القلب . جل من أودع هذا الوعاء هذه الطرائف ، وعرضه لهذه الغايات ، وزين ظاهره ، وحسن باطنه ، وصرقه بين أمن وخوف ، وعدل وحيف ، وحجبه في أكثر ذلك عن لم وكيف .

الجواب

قال أبو علي مسكويه - رحمه الله - :

إن الحسّن هو صورة تابعة لاعتدال المزاج ، وصحة مناسبات من الأعضاء بعضها إلى بعض في الشكل واللون وسائر الهيئات . وهذه حال لا يتفق اجتماع جميع أجزائها على الصحة ، ولذلك لا تقوى الطبيعة نفسها على اتخاذها في الهولى على الكمال ؛ لأن الأسباب لا تساعد عليها ، أعني أنه لا يتفق في الهولى والأشكال والصورة والمزاج أن تقبل الصورة الأخيرة على غاية الصحة .

فإذا كانت الطبيعة تعجز عن إيجاد هذا الاعتدال وهذه المناسبة الصحيحة التي يتبعها الحسن التام ، فكم بالحرى يكون الوهم أعجز عنه ؟ وإنما الوهم تابع للحس ، والحس تابع للمزاج ، والمزاج تابع أثر من آثار الطبيعة . ومثال ذلك أن الأوتار الكثيرة إنما يطلب بها وبكثرة الدساتين عليها أن تخرج من بينها نغمة مقبولة ، وتلك النغمة إنما يتوصل إليها بجميع الآلة وأجزائها من الأوتار والدساتين بالقرعات المختلفة . فالنغمة وإن كانت واحدة فإنها تتم بمساعدة جميع تلك الأجزاء . فإذا خأن واحد منها خرجت النغمة كريهة : إما بعيدة من القبول وإما قريبة على قدر عجز الأسباب وقصور بعضها .

فكذلك الهيولى^(١) في حاجتها إلى مزاج ما بين اسطقتصات^(٢) وصور^(٣) أخرى كثيرة تصير بجمعها مستعدة لقبول صور الحسن الذي هو اعتدال ما . ومناسبة ما صحيحة بين أمزجة وأعضاء في الهيئة والشكل واللون وغيرها من الأحوال التي مجموعها كلها هو الحسن .

والحسن وإن كان أمراً واحداً ، وصورة واحدة فهو مثل النعمة الواحدة المقبولة التي تحتاج إلى هيئات كثيرة ، وصور مختلفة جمّة ؛ ليحصل من بينها هذا الاعتدال المقبول .

والوهم في خروجه عن الاعتدال سهل الحركة . فأما في حفظه إياه . وتوصله إليه فإنه يحتاج إلى تعب شديد ، وأخذ مقدمات كثيرة ، واستخراج اعتدال بينها . وهكذا الحال في كل اعتدال ؛ فإن جفّظه والثبات عليه صعب . فأما الخروج عنه فهو بأدنى حركة .

فإن اتفق أن يكون لذلك الاعتدال تمامات من خارج ، ومعاونات من أمور مختلفة كانت الصعوبة في تحصيله أشدّ .

وهذه المسألة أحد الآثار التي ترد على الإنسان مرّة بتدريج ، ومرة بغير تدريج ، فتصير حال الإنسان بما لم يحتسبه ، ولم يتدرج إليه بالمزاولّة / حال ما يصيبه ضربة واحدة مما ضربنا مثاله ، فيكثر إحساسه به وظهور أثره عليه .

لماذا يتداعى البنيان المهجور ويعمر المسكون ؟

لم صار البنيان الكريم^(٤) ، والقصر المشيد إذا لم يسكنه الناس تداعى عن قرب ، وما هكذا هو إذا سكن واختلّف إليه ؟
لملك تظن أن ذلك لأن السكان^(٥) يرثون منه ما استرم ، ويتلافون ما تداعى وتهدم ، ويتمهدونه

(١) في مفاتيح العلوم ص ٨٦ . هيولى كل جسم هو الحامل لصورته . كالخشب للسرير والياب . وكالفضة للخاتم والخلخال . وكالذهب للسوار والدينار . فأما الهيولى إذا أطلقت فإنه يعني بها طينة العالم . أعنى جسم الفلك الأعلى وما يحويه من الأقلاك والكواكب . ثم العناصر الأربعة وما يتركب منها .

(٢) الأسطقس : هو الشيء البسيط الذي منه يتركب المركب . كالحجارة والقراميد والجنوح التي يتركب منها القصر . والحروف التي يتركب منها الكلام . والواحد الذي منه يتركب العدد . وقد سمي الأسطقس الركن . والأسطقسات الأربعة هي النار ، والهواء ، والماء ، والأرض . وتسمى العناصر .

(٣) الصورة : هي هيئة الشيء وشكله . التي تتصور الهيولى بها . وبها يتم الجسم . كالسريرية والبابية في السرير والباب . والصورة تسمى الشكل والهيئة والصفة . كما مفاتيح العلوم ص ٨٦ .

(٤) في الاصل ، الكريمة .

(٥) في الاصل ، الإنسان .

بالتطرية والكس ، فاعلم أن هذا ليس لذاك ؛ لأنك تعلم أنهم يؤثرون في المسكن بالمشي والاستناد وأخذ القلعة^(١) وسائر الحركات المختلفة ما إن لم يضيفه على رمهم ولهم كان يازاته ومقابله . فقد بقيت العلة على هذا ، وستسمعها في عرض الجواب عن جميع مسائل هذا الكتاب .

الجواب

قال أبو علي مسكويه - رحمه الله - :

إن معظم آفات البنيان يكون من تشعيث الأمطار ، وانسداد مجارى المياه بما تحصّله الرياح في وجه المآزيب^(٢) ومسالك المياه التي ترد المياه إلى أصول الحيطان من خارج البناء ودخله ، وبما يتلّم من وجوه البنيان الكريمة بالآفات التي تعرّضها لحركات الهواء والأمطار والبرد والثلوج . وربما كان سبب ذلك قصبه أو هشيم من تبن الطين الذي تطيره^(٣) الأرواح إلى مسلك الماء فتعطف الماء إلى غير جهته ، فيكون به خراب البنيان كله .

فأما ظهور الهواء في أصول الحيطان ، والعناكب في سقوفه . وأخذها من الجميع ما يتبين أثره على الأيام فشيء ظاهر ؛ وذلك أن هذا الضرب من الخراب يبيع الأثر جدا يئو الطرف عنه ، ويسمّع به البناء الشريف . وربما أغفل السكّان بيتا من عرض^(٤) البناء إما بقصد وإما بغير قصد فإذا فُتح عنه يوجد فيه^(٥) من آثار الدبيب من الفار والحيات وضروب الحشرات التي تتخذ لنفسها أكنة بالنقب والبناء ، كالأرضة والنمل وما تجمعه من أقواتها ، ومن نسج العنكبوت وتراكم الغبرة على النقوش ما يمنع من دخوله . هذا إن سليم من الوكف^(٦) وتطرق المياه وهذمها لما تسيل عليه من حائط وسقف ، ورَضِه بما يتقله من طين السطوح ، وتقصف^(٧) جميع الخشب والسّنادات والعمد . وإذا كان فيها السكّان منعوا هذه الأسباب العظيمة في الخراب ، وكان ما يشعّونه بعد هذه الأشياء يسيرا بالإضافة إليها ، فكان البناء إلى العمران أقرب ، ومن الخراب أبعد .

(١) في اللسان . القلاع والقلاعة والقلاعة بالتشديد والتخفيف : قشر الأرض .. والطين الذي يتشق إذا نصب عنه الماء . فكل قطعة منه قلاعة .

(٢) المآزيب : جع مئزاب ، وهو مصب ماء المطر . كما في اللسان .

(٣) في الأصل . تطره ، والأرواح : جمع ريح .

(٤) في اللسان : عرض الشيء . وسطه وناحيته . وقيل نفسه .

(٥) في الأصل : من فيه .

(٦) في اللسان : وكف البيت وكفا ووكيفا ووكوفا ووكفنا . هطل وقطر . وكذلك السطح ومصدره الوكيف والوكف .

(٧) في الأصل . وتقصفه منها جميع .

شطرنج !

قال المأمون : « إني لأعجب من أمرى : أدبر أفاق الأرض وأعجز عن رُقعة » - يعنى الشطرنج - وهذا معنى شائع فى الناس ، فما السبب فيه ؟ فإنه إنما عجب من خفاء السبب .

الجواب

قال أبو على مسكويه - رحمه الله - :

إنَّ الصناعات لا يُكْتَفَى فيها بالعلم المتقدم ، والمعرفة السابقة بها حتى يُضاف إلى ذلك العمل الدائم ، والارتياض الكثير ، وإلا لَمْ يكن الإنسان ماهراً . والصانع هو الماهرُ بصناعته . ومثال ذلك الكتابة فإن العالم بأصولها وإن كان سابق العلم ، غزير المعرفة إذا أخذ العلم ولم تكن له ذُرْبَةٌ انقطع فيها ، ولم ينشعه جميع ما تقدم من علمه بها . وكذلك حال الخياطة والبناء . وبالجمله كل صناعة مهنية كقيادة الجيش ، ولقاء الأقران فى الحروب ليس تكفى فيها الشجاعة ، ولا العلم بكيفيةها حتى يحصل فيها الارتياض والتدرب فحينئذ تصير صناعة .

ولما كان الشطرنج أحد الأشياء الجارية هذا المجرى من الصناعات لم يُكْتَفَ فيه بالتدبير ، ولا حُسْنِ التخيّل ، ولا جودة الرأى حتى تنضاف إلى ذلك مباشرة الأمر ، والدربة فيه ؛ فإن لكل ضربة يتغير بها شكل الشطرنج ضربة من الرسيل (١) مقابلة لها إما على غاية الصواب ، وإما بخلافه . ويُحتاج إلى ضبط جميع ذلك ، وتخيّل تلك الأشكال كلها ضربة بعد ضربة على وجوه تصاريفها ، وليس يمكن ذلك إلا مع ذُرْبَةٍ ورياضة . .

لماذا استيحاش الإنسان من تغيير اسمه ؟

ما السبب فى استيحاش الإنسان من نقل كُنْيته أو اسمه ؟ فقد رأيت رجلاً غير كُنْيته لضرورة لحقته ، وحال دقته ، فكان يتكرّر ويقلق ، وكان يُكنّى أبا حفص فاكنتى أبا جعفر ، وكان سيئه فى ذلك أنه قصّد رجلاً يتشيع فكره أن يفرقه بأبى حفص .

وكيف صار بعض الناس يَمُتُ الشيء لاسمه دون عينه ، أو بلقبه دون جوهره ؟

وما الثُغور الذى يُسرّع إلى النفس من التبرّ واللّقب ؟

وما السُّكون الذى يردّ على النفس من الثمت ؟ وما هما إلا متقاربان فى الظاهر ، متذانيان فى الوهم .

الجواب

قال أبو على مسكويه - رحمه الله - :

إنَّ المعانى تلزمها الأسماء ، ويعتادها أهل اللغات على مرّ الأيام حتى تصير كأنها

(١) (الرسيل) الملاعب الذى يرسل القطع ، او يوجهها .

هى ، وحتى يَشْكُ قوم فيزعمون أنَّ الاسم هو المسمى ، وحتى زعم قوم أفاضل أنَّ
الاسمى بالطباع تصير إلى مُطابَقة المعانى كأنهم يقولون إنَّ الحروف التى تُؤلف
لمعنى القيام أو الجلوس ، أو الكوكب أو الأرض لا يصلح لغيرها من الحروف أن
تسمى به ، لأنَّ تلك بالطبع صارت له .

واضطر لأجل هذه الدعوى أن يشتغل كبار الفلاسفة فى مُناقضتهم ، ووضع
الكتب فى ذلك ، فليس بعجب أن يَألفَ إنسان اسم نفسه حتى إذا غيّر ظنَّ أنه إنما
يُغيّر هو ، وإذا دُعِيَ بغير اسمه فإنما دُعِيَ غيره ، بل يرى كأنما يُدَلُّ به نفسه .
ولقد سمعت بعض المُخَصِّلِينَ يستشير طبيباً ، ويخاف فيما يشكوه أنه قد أصابه
الماليخوليا فقلت له : وما الذى أنكرت من نفسك ؟

قال : يُخَيِّلُ لى أن يمينى قد تحوّل شمالاً ، وشمالى يميناً ، لست أشك فى
ذلك .

فلما امتد بى النظر فى مُساءلتيه وجدته كأن قد تَخَتَّم فى يمينه مدة للتقرب إلى
بعض الرؤساء من أصدقائه ، ثم لما فارقه لسفره اتَّفَقَتْ له إعادة إلى التختُّم فى اليسار
فعرّض له من الإلْف والعادة هذا العارض .

فاعتبر بذلك سهلاً جوابُ مسألتك ، وتعلم ما فى العادة من المُشاكَّلة لما فى
الطبع .

فأما كراهة الناس الشئ لأسمه ، أو للقبه وتبَّزه ، فالجواب عنه قريب من الجواب
عن هذه المسألة ، وذلك أنَّ الأسماء والألقاب أيضاً تكره لكراهة ما تدلُّ عليه للعادة
الأولى ، فلو أنك نقلت اسم الفحم إلى الكافور فيما بينك وبين آخر لكان متى ذكر
الفحم تصور السواد ، ولم يَمَنِّعه ما انتقل فيما بينه وبينك إلى مسمى آخر أبيض طيب
الرائحة ، وذلك لأجل العادة ، اللهم إلا أن يكون تركيب الحروف تركيباً قبيحاً ،
والحروف أنفسها مستهجنة فإنَّ الجواب عن ذلك قد مر فى صور هذه المسائل
مستقصى .

لماذا هذا .. مع الهم ؟

قال أبو حيان :
لم صار صاحب الهم ، ومن غلب عليه الفكر فى ملِّم يولِّع بمسِّ لهيبته وربما نكت الأرض
ياصبه ، وعيبت بالحصى ؟

وقد يختلف الحال فى ذلك حتى إنك لتجد واحداً يحبُّ عند صدمة الهم ، ولوعة الحزن جمعاً
وناساً ومجلساً مُزْدَجِماً ، يُرِيغُ بذلك تفريحاً ، ويجد عنده خفا . وآخر يفرز إلى الخلوة ، ثم
لا يقع إلا بمكان موحش ، ونشر ضيق وطريق غامض . وآخر يؤثر الخلوة ولكنَّ يَجُنُّ إلى بستان
خالٍ وروض مُزهر ، ونهر جار .

ثم تختلف الحال بين هؤلاء حتى إنك لتجد واحداً عند غاشية ذلك الفكر أضفى طبعاً ، وأدكى قلباً ، وأحضر ذهنًا ، وحتى يقول الغافية النادرة ، ويصنف الرسالة الفاخرة ، وحتى يحفظ علماً جما ، ويستقبل آياته نصحاً ، وآخر يذهل ويغله ، ويزول عنه الرأي ويتحير حتى لو هدى ما اهتدى ، ولو أَمَرَ لما فقه ولو نُهِى لما وَبِه .

الجواب

قال أبو علي مسكويه - رحمه الله - :
 إن النفس لا تعطل الجوارح إلا عند النوم لأسباب ليس هذا موضع ذكرها .
 والعقل يستهجن البطالة ، ولا بد من تحريك الأعضاء في اللحظة إما بقصد وإرادة ،
 وبصناعة ولأغراض مقصودة ، وإما بعَبَثٍ ولهو ، وعند غفلة وسهو ؛ ولأجل ذلك نهت
 الشريعة عن الغفلة ، ونهى الأدب عن الكسل ، وأمر الناس وسواس المدني بترك
 العطلة واشتغال الناس بضروب الأعمال .
 ولقباحة العطلة ، ونفور العقل عنها اشتغل الفراغ بلعب الشطرنج والترد على
 سخافتها ، وأخذها من العمر ، وذهابها بالزمان في غير طائل ؛ فإن الجلوس
 بلا شغل ولا حركة بغير ضرورة أمر ياباه الناس كافة لما ذكرناه .
 فصاحب الفكر والهَمُّ لا تتعطل جوارحه ، وإنما ينبغي أن يتعوّد الإنسان بالتأديب
 حركات جميلة مثل القضيبي الذي وُضِعَ للملوك ، وقد كُره ذلك أيضا ونُسب إلى
 التزق ، وجعل في جنس الولع بالخاتم .
 فأما مس اللحية وقلع الزنبر^(١) من الثوب فمعدود من المرض ؛ لأنه حركة غير
 منتظمة ، ولا جارية على سنة الأدب ؛ بل هو عبث يدل على أن صاحبه قد احتمل
 حتى عَزَب عقله ، وذهب تمييزه دفعة . ولا ينبغي ذلك لمن له تمييز ، وبه مسكة أن
 يفعل ؛ بل يُنبه عليه من نفسه ويتركه إن كان عادته .
 فأما اختلاف الحال في الناس فيمن يُحب الاجتماع مع الناس أو يحب الخلوة
 وغير ذلك مما حكيت ، وذكرت أقسامه فإن ذلك تابع للمزاج ؛ وذاك أن صاحب
 السوءاء والفكر السؤداوي يحب الخلوة والتفرّد ، ويأنس بذلك . وأما صاحب الفكر
 اللطيف فإنه يحب الاجتماع والناس ، وربما أثر النزهة والفرجة .
 وأما ما حكيت عمن يصنع الشعر ، ويصنف الرسالة ويشغل نفسه بالعلوم فجميع
 ذلك إنما يكون بحسب عادة من يطرقه الفكر ؛ فإن كان قبل ذلك ممن يرتاض ببعض
 هذه الأشياء ، أو يُكثّر الفكر فيها فإنه بعد وُروِد العارض يلجأ إلى ما كان عليه ، ويعود

(١) الزنبر بكسر الزاء والباء مهموز - ما يعلو الثوب الجديد مثل ما يعلو الخز والقطيفة .

إلى عادته بنفسه ثائرة مضطرة إلى الفكر فبنفذ فيما كان فيه . ولا بد أن يصير ذلك الفكر من جنس ما دهمه ، أعنى أنه يقول الغافية ويصنف في شعر آخر فيرده إلى الأهم الذي يلقفه ويخبره فيجىء كلامه وشعره أحد وأصفى مما كان .
وأما الذي يذهل ويغله ويتحير فهو الذي لم يكن قبل ورود ذلك الشغل عليه ممن لا يرناس بشعر ولا ترسل ، ولا عادته أن يلجأ إلى فكره ويستعمله .

لماذا انتصاب قامة الانسان ؟

على ماذا يدل انتصاب قامة الإنسان من بين هذا الحيوان ؟ فقد قال أبو زيد البلخي الفلسفي (١)
كلاماً ساحكياً .

الجواب

قال أبو علي مسكويه - رحمه الله - :
هذا الرجل الفاضل الذي ذكرته إذا كان يوجده له كلام في هذا المعنى ، فالأولى بنا أن نستعفيك الكلام فيه . وإذا كنت غير معيناً ، فالأولى أن نكتفي بالإيماء إلى المعنى دون الإطالة ، فنقول :
إن الحرارة إذا كانت مادتها لطيفة مؤاتية في الرطوبة والاستجابة إلى الامتداد فهي تمد الجسم الذي تعلقت به إلى جهتها - أعنى العلو - مداً مستقيماً . وإنما يعرض الانكباب والميل إلى جهة الأرض لشيئين : إما لضعف الحرارة ، وإما لقلّة استجابة المادة التي تعلقت بها .
وأنت تتبين ذلك وتأمله في الأشجار التي بعضها ينشعب بشعب مَرَّجَحَةٍ نحو الأرض .

وبعضها ممتدة على جهة الاستقامة إلى فوق .
وبعضها مركبة الحركة بحسب مقاومة المادة ؛ لأن حركة الشيء المركب وما كان من الشجر والنبات ممتداً على وجه الأرض غير متصب فهو لكثرة الأجزاء الأرضية فيه ، ولضعف الحرارة عن مده نحو العلو .
وما كان من الشجر متصباً وقد تشعبت منه شعب نحو الأرض ، ويمينا وشمالاً فلأن حركة النار والأرض قد تركبتا فحدثت منهما هذا الشكل المركب بين الانتصاب

(١) اسمه أحمد بن سهل ذكره أبو حيان التوحيدى في كتاب تفریط الجاحظ كما نقل ياقوت في معجمه ٢٩/٣ فقال : لم يتقدم له شبيه في العصر الأول ، ولا يظن أنه يوجد له نظير في مستانف الدهر ، ومن تصفح كلامه في كتاب : القسام العلوم ، وفي كتاب : أخلاق الأمم ، وفي كتاب : نظم القرآن ، وفي كتاب : اختيار السير ، وفي رسائله إلى إخوانه ، وجوابه عما يسأل عنه ويبدد به وإن القول فيه لكثير . وكانت وفاة أبى زيد في سنة ٣٢٢ هـ . راجع ترجمته في فهرست ابن النديم ص ١٩٨ - ١٩٩ وتاريخ حكماء الإسلام للبيهقى ص ٤٣ - ٤٢ ومعجم الأدباء ٦٤/٣ - ٨٦ .

والأرجحان .

وما كان من الشجر ممتدا كالقصب إلى فوق كالسرو وما أشبهه فلأن أجزاءه الأرضية والرطوبة المائية فيه لطيفة ، والحرارة قوية فلم يمتنع من الحركة المستقيمة التي تحركها النار .
وإذا تأملت حق التأمل هذه الأمثلة لم يعسر عليك نقلها إلى الحيوان إن شاء الله .

لم يضيق الإنسان بالراحة ؟

* لم يضيق الإنسان في الراحة إذا توالى عليه ، وفي النعمة إذا حالفته ؟

وبهذا الضيق إلى المرح والنزوان ، وإلى البطر والطغيان ، وإلى التحكك بالشّر والتمرس به حتى يقع في كل مهوى بعيد ، وفي كل أمر شديد . ثم بعض على أنامله غيظا على نفسه بسوء اختياره ، وأسفا على تركه عمود الرأي ، ومجانبة نصيحة

الناصحين مع ما يجذ من الألم في صدره من شغامة الشامتين . فما السر المتزى والمعنى المؤتب ؟ ولذلك قالت العرب في نوادر كلامها : نَزَتْ به البطنة . أى أطفأه الشبع ، وأبطرته الكفاية ، وأترفته النعمة حتى يطر وأشبر ، واضطرب وانتشر . ومن أجل ذلك قال بعض السلف الصالح : العافية ملك خفى لا يصبر عليها إلا ولي ملهم ، أو نبى مرسل .

هذا ، والناس مع اختلافهم يحبون العافية ، ويميلون إلى الراحة ، ويعودون من الشر ، وما يورث منه ، ويستعقب عنه .

الجواب

قال أبو علي مسكوية - رحمه الله :
السبب في ذلك أن الراحة إنما تكون عن تعب تقدمها لا محالة . وجميع اللذات يظهر فيها أنها راحت من آلام . وإذا كانت الراحة إنما تكون عن تعب فهي إنما تستلذ وتستطاب ساعة يتخلص من الشيء المتعب . فإذا اتصلت الراحة ، وذهب ألم التعب لم تكن الراحة موجودة ، بل بطلت وبطل معناها . ومع بطلانها بطلان اللذة . ومع بطلان اللذة غلط الإنسان في الشوق إلى اللذة التي يجهل حقيقتها . أعنى أنه يشاق إلى معنى اللذة ويجهل أنها راحة من ألم . فصار الإنسان كأنه يشاق إلى تعب ليستريح بعقبه .

وهذا المعنى إذا لآخ للعالم به وتبينته لم يشتق إلى اللذة بته ، وصار قُصاراه إذا آله الجوع أن يُداويه بالدواء الذي يُسمى الشبع لا أنه يقصد اللذة نفسها بل يرى اللذة شيئاً تابعاً لغرضه لا أنها مقصودة الأول ، ولذلك يزهد العالم في الأشياء البدنية ، وهي ما يتصل بالحواس وتسمى لذينة . فأما الجاهل فلأنه يعترض له ما ذكرنا بالضرورة صار يقع فيه دائماً ، فيحصل في هُوم وآلام وأمراض لا نهاية لها . وعاقبة جميع ذلك الندم والأسف .

لماذا يثقل الخطر على الانسان

لم صار الخطر يثقل على الإنسان ؟ وكذا الأمر إذا ورد أخذ بالمختق ، وسد الكظم . وقد علمت أن نظام العالم يقتضي الأمر والنهي ، ولا يتحتم إلا بأمر ونهي ، ومأمور ومنهي . وهذه أركان ودعائم . ولكن ههنا مكتومة بالإشراف عليها يحكم الإنسان فيعرف المتيسر من المتخلص .

الجواب

قال أبوعلی مسكويه .. رحمه الله :
إن الأمر الذي أومأت إليه والخطر إنما يقعان في جنس الشهوات التي تجمع بالإنسان إلى القبائح ، ويلزوم الأعمال التي فيها مشقة وتؤدي إلى المصالح .
ولما كان الإنسان ميلاً بالطبع إلى تعجل الشهوات غير ناظر في أعقاب يومه ، وإلى الهوينى والراحة في عاجل اليوم دون ما يتكسب الراحة طول الدهر - ثقل عليه خطر شهواته ، والأمر الذي يرد عليه بالأعمال التي فيها مشقة .
وهذه حال لازمة للإنسان منذ الطفولة ، فإن أثقل الأشياء عليه منع وإلذته تأربه ، وأخذها إياه بكلف الأعمال النافعة ، ثم إذا كمل صار أثقل الناس عليه طبيبه ومعالجه ، ونصيحه في المشورة ، وسلطانه الذي يأخذه بمنافعه ومصالحه .
وهذه حال الناس المنقادين لشهواتهم ، المتبعين لأهوائهم .
وقد يقع فيه الجيد الطبع ، الصحيح الروية ، القوى العزيمة فلا يأتي من الأمور إلا أجملها ، قاصداً لهواه ، متحملاً ثقل مثونة ذلك ، لما ينتظره من حسن العاقبة وإتمامها .
ومثل هذا قليل ، بل أقل من القليل ، وليس إلى أمثاله يوجه الخطاب بالأمر في النهي ، ولا إياه الخوف بالوعد والوعيد ، وأنذر العذاب الأليم .

لماذا يرتبك الخطيب على المنبر ؟

ما السبب في أن الخطيب على المنبر ، وبين السَّاطِين وفي يوم المحفل - يفتريه من الخصر والتشنع والخجل في شيء قد حَفِظَهُ وَأَنْقَتَهُ ، وَوَبَّقَ بِحَسَنَةِ وَتَقَالِهِ ؟
أَفَرَأَاهُ مَا الَّذِي يَسْتَشِيرُ حَتَّى يَضِلَّ ذَهْنُهُ ، وَيُنْصِبُهُ لِسَانُهُ ، وَيَحْزِرُ بَالُهُ ، وَيَتَلَكَّ عَلَيْهِ أَمْرُهُ .

الجواب

قال أبو علي مسكويه - رحمه الله :
إنَّ انصرافَ النفسِ بالفكرِ إلى جهةٍ من الجهاتِ يَعْرِفُهُ عن التصرفِ في غيرها من الجهاتِ ، ولذلك لا يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَجْمَعَ بين الفكرِ في مسألةٍ هندسيَّةٍ وأخرى نحوِيَّةٍ أو شِعْريَّةٍ . بل لا يَتِمَكَّنُ أَحَدٌ من تدبيرِ أمرٍ دُنْيَوِيٍّ .

السؤال ؟!

لم صارت أبوابُ البَحْثِ عن كلِّ شيءٍ موجودٍ أربعةً ؟ ومي : هل ، والثاني ما ، والثالث أي ، والرابع لم .

الجواب

قال أبو علي مسكويه - رحمه الله :
لأنَّ هذه الأشياءَ الأربعةَ هي مبادئُ جميعِ الموجوداتِ وَعِلَلُهَا الْأَوَّلُ . والشُّكُّوْكَ إِعْظَمُ
تَعْرِضُ فِي هَذِهِ ، فَإِذَا أُحِيطَ بِهَا لَمْ يَبْقَ وَجْهٌ لِدُخُولِ شَكٍّ .

وذلك أنَّ الْمُبْدَأَ الْأَوَّلَ في وجودِ الشيءِ هو ثَبَاتُ ذَاتِهِ ، أعني هُويَّتهُ التي يَبْحَثُ عنها
بَهِلٌ ، فَإِذَا شَكَّ إِنْسَانٌ في هُويَّةِ الشيءِ ، أي في وجودِ ذَاتِهِ لم يَبْحَثُ عن شيءٍ آخرٍ من
أَمْرِهِ .

فإذا زال عنه الشُّكُّ في وجوده ، وأُثْبِتَ له ذاتا وهويةً جاز بعد ذلك أن يَبْحَثَ عن
المبدأ الثاني من وجوده وهو صورتهُ ، أعني نوعه الذي قُوَّاهُ ، وصاربه هو ما هو ، وهذا
هو البَحْثُ بما ، لأنَّ ما هي بَحْثُ عن النوعِ ، والصورةُ المقوَّمةُ .

فإذا حَصَلَ الْإِنْسَانُ في الشيءِ المحجوبِ عنه هذين ، وهما : الوجودُ الْأَوَّلُ والهويةُ
التي بَحَثَ عنها بَهِلٌ ، والوجودُ الثاني وهو النوعيةُ أعني الصورةُ المقوَّمةُ التي بَحَثَ عنها
بَمَا - جاز أن يَبْحَثَ عن الشيءِ الذي يُمَيِّزُهُ من غيره ، أعني الفصلُ ، وهذا هو المبدأ
الثالثُ ، لأنَّ الذي يُمَيِّزُهُ من غيره هو الذي يَبْحَثُ عنه بِأَيٍّ ، أعني الفصلُ الذَّاقيُّ له .

فإذا حَصَلَ من الشيء المبحوث عنه هذه المبادئ الثلاثة لم يبقَ في أمره ما يَعْتَرِضُه شكٌ ، وصَحَّ العِلْمُ بهِ إلا حالَ كماله ، والشيء الذي من أجله وُجِدَ ، وهذه العِلَّةُ الأخيرة التي تسمى الكمالية وهي أشرفُ العلل . وأرسططاليس هو أوَّلُ من نبَّه عليها واستخرجها ، وذلك أنَّ العِللَ الثلاثَ هي كلها نَحْوَادِمُ وأسبابُ لهذه العِلَّةِ الأخيرة ، وكأنها كلها إنما وُجِدَتْ لها ولأجلها . وهذه التي يُبْحَثُ عنها بِلَمٍ .
فإذا عُرِفَ لم وُجِدَ ، وما غرضُه الأخيرُ ، أعني الذي وُجِدَ من أجله - انقطع البحثُ ، وحَصَلَ العِلْمُ التامُّ بالشيء ، وزالت الشكوكُ كلها في أمره ، ولم يبقَ وجه تشوُّقه النفس بالروية فيه ، والشوقُ إلى معرفته ، لأن الإحاطةَ بجميعِ عِلَلِهِ ومبادئه واقعةٌ حاصلةٌ ، وليس للشكِّ وجهٌ يتطرَّقُ إليه ، فلذلك صارت البحوثُ أربعةً لا أقلَّ ولا أكثر .



المقاييسات

حبا للفلسفة ، وبعد أن تقدمت
رؤيته في الحياة ، وبعد طرح الأسئلة
في الهوامل والشوامل ، يضع
أبو حيان المقاييسات . والكتاب
صورة دقيقة ليس لرؤية التوحيدي
فقط ، ولكن للحالة الفكرية في
عصره .

اعتمدنا على طبعتين ، الأولى
لحسن السندوي سنة ١٩٢٩ ،
وطبعة محمد توفيق حسين الثانية
الصادرة عن دار الآداب في بيروت
سنة ١٩٨٩ .

بسم الله الرحمن الرحيم وما توفيقى إلا بالله . اللهم إليك نرغب فيما أنت أهله ، ومظنته ، ومعروف به . ولنلتبس منك ما أنت واجده ، وقادر عليه ، ومأمول فيه . فهب لنا بجودك ومجدك روح القلب بنور العقل ، وسكون البال ببصيرة النفس ، ورخاء العيش بدرور الرزق ، وصلاح الحال بفائض الخير ، وصواب الفضل بثبات العقل ، ويلوغ الغاية بصحة العزم ، ونيل المراد بدوام الصبر ، وبعد الصيت بحسن السيرة ، وتتابع الثناء بمرضى الطريقة ، وفاشى النعمة براتب العز ، وسلامة العاقبة بحيازة الفوز . واكفنا من اللسان فلتته ، ومن الهوى فتنته ، ومن الشر خطرتة ، ومن الرأى غلظته ، ومن الظن خبطته ، ومن الطبع سورته ، ومن الثقة غدرتة ، ومن الأمين روعته ، ومن العدو سطوته . وجنبنا معاندة الحق ، ومجانبة الصدق ، وشراسة الخلق ، ومذمة الخلق ، والعجب بالعلم ، واليهت بالجهل ، والاستعانة باللجاج ، والاخلاد إلى العاجلة ، والخفوق مع كل ربح ، واتباع كل ناعق . حتى نوحذك بسرائر سليمة من الشرك ، ونقدسك بالسنة نقية من الهجر ، ونتوجه إليك بقلوب صافية من الدغل ، ونعبدك عبادة بريئة من الرياء خالصة باليقين ، ونستجيب لك فى كل سهل وعسير ، ونستريح اليك فى كل قليل وكثير ، وحتى نرى أن ما حرمتنا من المال والثروة تخفيف عنا ، وما رزقنا من العلم والحكمة تشريف لنا ، وحتى نعتقد أنك لم تسد إلى إحد من خلقك إلا ما هو لائق بالاهيتك ، والا ما هو أخذ بأوفر الأنصاء من غامر جودك وسابغ نعمتك وحاضر صنعتك ، لانك الله العزيز الحكيم ، الجواد الكريم ، الرؤوف الرحيم .

أطال الله حياتك ، وأعز قدرتك ، وأكرم مثواك ، وقرن النجح بسعيك ، وضاعف منائحه قبلك وأدامها [لك] ، وذبح عنها ما يكدرها عليك . لم يذهب على حظى فى البدار إلى رسمك ، والسرع الى طاعتك ، فيما أشرت اليه ، وحضضت عليه ، من تصنيف أشياء من الفلسفة رويتها لك ، ونشرتها عليك ، وحطت بها رغبتك فيها ونشاطك لاقتنائها ، وإضافة أشياء أخر ، تجرى معها وتدخل فى طرازها وتقوى عمدتها وتدل على شرف جوهرها واناقة محلها ، عن مشائخ العصر الذى أدركته والزمان الذى لحقتهم فيه . ووالله ما تلومت على جمعها فى كتاب ، واهدائها إليك فى أقرب وقت على أيسر وجه ، الا لغمرات هذه الدنيا ، واختلاف أحوال أهلها ، وتقلب ظلالها وأقيائها ووجى نجومها وأنوائها ، وقلة يقظة آبائها وأبنائها ، وانحطاط

رتبة بعد رتبة بأهلها ، (وفساد) حال بعد حال على المتعلقين بحبائنها ، الحالين
لضرعها ، النادمين في عواقبها . فقد أصبحنا في هذه الدار وكأنما هي قاع أملس توير
أخرس . لم يبق من يرضى هديه ، أو يقتبس علمه ، أو يخطب عرفه ، أو يعتفى
جوده ، أو يقدح زنده ، أو يستفاد لفظه ، أو يتوخى معانه ، أو يعرف حده ، أو يعرض
أدب من الآداب عليه ، أو يبش بوجه من الوجوه إليه . وما ذاك إلا لتغل انقلوب ،
ودخل الأعراق ، وخلوقة الدين ، وغلبة الفحمة ، وارتفاع المراقبة ، وسقوط الهيبة ،
ورفض السياسة ، والتبجح بالفحشاء والمنكر . ولعمري مازالت الدنيا على سجيته
المعروفة وعاداتها المألوفة ، ولكن اشتدت مؤنتها ، وتضاعفت رزيتها اليوم ، بفقد
السائس الصارم ، وبعدم العابد العالم ، وبانقراض أهل الحياء والتكرم ، وبتصالح
الناس على التعادى والتظالم . ولله جل وجهه وتقدس اسمه في هذا الخلق غيب
لا يعرف قابه ، ولا يفتح بابه ، ولا يقع القياس عليه ، ولا يهتدى الاحساس إليه ،
ومن أجله سقط الاعتراض ، ووجب التسليم والانقياد . وأدع هذا فإنه سلم طويل ،
وفضاء عريض .

بل ما أخرت حاجتك إلى هذه الغاية ، مع تقاضيك بالتعريض والتصريح ،
وإلحاحك بالغداة والعشى ، وتلطفك بالشفيع بعد الشفيع ، إلا لظنى بأنها تزييف على
نقدك ، وتبهرج بتقليبك ، ويبدو عوارها لعينك ، ويتجه عليها وعلى من أجلها
ما شئت من طعنك ولائمتك . وفي السكوت ، أبقاك الله ، أمان من هذا كله . وليس
القلم كاللسان ، ولا الخط كالبيان ، ولا ما يذهب مع الانفاس كما يبقى وسمه بين
الناس . فهذا وأشباهه كان يقصّ جناح العزم ، ويغض طرف النشاط ، ويغطي وجه
الهمة ، ويكذب رائد الطمع ، ويلجلج لسان الرأي ، إلى أن قال بعض من أثق
بخلته ، وأستنير بمشورته ، وأستقبل مقاصدى برأيه ، ينبغى أن تنأتى لعمل ما أهلك
فلان له وشرفك به ، وتخفّ إلى مراده ، وتعلم أن ائتمارك لأمره رشد وأثرة وجمال
وزينة . وليس في فرش فضائل هؤلاء المشايخ ، وتحبير كلامهم ، عليك مؤونة
غليظة ، ولا مشقة فادحة ، ولا كلفة شديدة . ولأنك ان لم تبلغ منها ذروة الخاصة
لا تقع منها إلى حضيض العامة ، بل ان لم تزد ما تحكيه عنهم روتق لفظ ، وبهاء
رصف ، وتقريب بعيد ، وإيضاح مشكل ، لم تبخسه حظه من الحقيقة التي إليها
انتهت المطالبة وعليها وقعت الارادة . فخفض عليك ، وخفف عنك ، فما بالأمر كل

هذه الصعوبة ، ولابك كل هذا العجز ، وقال أيضا : قد علم الصغير والكبير أن كلا يتنفس برثته ، وينشى بأنفه ، وينبأع بساعده ، ويسبق الى غايته ، ويعمل على شاكلته ، ويجزئى على قدر عمله ونيته واجتهاده . فوهب الى هذا الكلام قوة ولكن مدخولة ، وأفاء على نشاطاً ولكن ضعيفاً . فأقبلت على ما عرفتك من حالى ، فى ضيق صدرى ، وفقد أنسى ، وانسداد مذهبى ، أتألف ما شرد منها ، وأنظم ما انثر منها ، وأرقع بجهدى وطاقتى شملها ، وأحلّى بوسعى عطلها . ومن بذل لك مجهوده فقد حرم عليك ذمه ، ومن سعى الى مرادك شوطه فقد استحق منك ثوابه . هذا فى أوائل التعارف ، وفواتح التناصف . وارجو أن لا اخيس بين إرادتى الخير لك وبين اشتمالك بالكرم على ، إن شاء الله تعالى .

المقابلة الأولى

نساء قريب

سمعت أبا سليمان المنطقى يقول : بالاعتبار تظهر الاسرار ، ويتقديم الاختبار يصح الاختيار ، ومن ساء نظره لنفسه قل نصحه لغيره . وكما تنظف الأنية من وسخ ما جاورها ولابسها ، ووضر ما خالطها ودنسها ، لتشرب فيها ، أو لتنظر اليها ، وتستصحبها ، وتحفظها ، وتكون غنياً بها ، ولا تريد الا طاهرة نقية صافية مجلوة . ومتى لم تجد لها كذلك عفتها وكرهتها ونفرت عنها وطرحتها ، لأن طبيعتك لا تساعدك عليها ، ونفرتك لا تزول منها ، وإياؤك لا يفارقك من أجلها ، وقشعيرتكم لا تذهب من بشاعة منظرها ، كذلك فاعلم أنك لا تصل الى سعادة نفسك ، وكمال حقيقتك ، وتصفية ذاتك ، الا بتنقيتها من درن بدنك ، وصقالها من كدر جبلتك ، وصرفها عن ظلمة هواك ، وفطامها عن رضاع شهوتك ، وحسمها عن الضراوة على سوء عادتكم ، وردها عن سلوك الطريق الى هلكتك وتلفك ونبوذك واضمحلالك . فاسعد أيها الانسان بما تسمع وتبصر وتحس وتعقل ، فقد أردت لحال نفيسة ، ودعيت الى غاية شريفة ، وهيئت للدرجة رفيعة ، وحليت بحلية رائعة ، ونوجيت بكلمة جامعة ، ونوديت من ناحية قريبة .

مثال الملك^(١)

ثم قيل : وهذا يوضح بمثال . وليكن ذلك المثال ملكاً في زمانك وبلادك . واسع الملك ، عظيم الشأن ، بعيد الصيت ، شائع الهيبة ، معروفاً بالحكمة ، مشهوراً بالحزامة ، متصل اليقظة ، قد صَحَّ عنه أنه يضع الخير في موضعه ، ويوقع الشر في موقعه ، عنده جزاء كل سيئة وثواب كل حسنة ، قد رتب لبريده أصلح الأولياء له ، وكذلك نصب لجباية أمواله أقوم الناس به ، وكذلك عمارة الأرض أنهض الناس بها وانصحهم فيها ، وشرف آخر بكتابته بحضرته ، وآخر بخلافته ووزارته في حضرته وسفروه . اذا نظرت الى ملكه وجدته موزوناً بسداد الرأي ومحمود التدبير ، وأولياؤه حواليه ، وحاشيته بين يديه ، وكل يخف الى ما هو منوط به ، ويستقصى طاقته فيه ويبدل وسعه دونه . والملك يأمر وينهى ، ويصدر ويورد ، ويحل ويعقد ، وينظم ويبدد ، ويعد ويوعد ، ويرق ويرعد ، ويعدم ويوجد ، ويخلع ويهب ، ويعاقب ويشيب ، ويفقر ويغنى ، ويحسن ويسىء . فقد علم صغير أوليائه وكبيرهم ، ووضع رعاياه وشريفهم ، ونبيه الناس وخاملهم ، أن الرأي الذى تعلق بأمر كذا صدر من الملك الى كاتبه لأنه من جنس الكتابة وعلائقها وما يدخل فى شرائطها ووثائقها ، والرأى الآخر صدر الى صاحب بريدته لأنه من جنس أحكام البريد وفنونه وما يجرى فى حلبته ، والأمر الآخر ألقى الى صاحب المعونة لأنه من جنس ما هو مرتب له ومنسوب من أجله ، والحديث الآخر صدر الى القاضى لأنه من باب الدين والحكم والفصل ، وكل هذا مسلم إليه ومعصوب به لا يفتات عليه فى شيء ، ولا يستبد بشيء دونه . فالأحوال على هذا كلها جارية على إدلالها وقواعدها فى مجاريها لا يزل منها شيء الى غير شكله ، ولا يرتقى الى ما ليس من طبقته وهكذا ما عدا جميع ما حددناه باسمه وحليته برسمه . فلو وقف رجل له من الحزم نصيب ، ومن اليقظة قسط ، على هذا الملك العظيم ، وعلى هذا الملك الجسيم ، وسدد فكره ، وحدد وهمه ، وصرف ذهنه ، وتصفح حالاً [حالاً] وحسب شيئاً شيئاً ، وقدر أمراً أمراً ، وتأمل باباً باباً ، وتخلل بيتاً بيتاً ، ورفع سجفاً سجفاً ، ونقض وجهاً وجهاً ، لامكنه أن يعلم بما يشمر له هذا النظر ، ويشير هذا القياس ، ويصيده هذا الحدس ، ويقع عليه

(١) من المقابلة الثانية .

هذا الامكان ، ما يستعمله هذا الملك غدا ، ويبتديه بعد غد ، وما يتقدم به الى شهر ، وما كاد يكون منه الى سنة وسنين ، لأنه يلقى الأحوال قلياً ، ويجلوها جلواً ، فيقياس بينها قياساً ، ويلتقط من الناس لفظاً لفظاً ، ولحظاً لحظاً ، ويقول في بعضها رأيت الملك يقول كذا وكذا ، وهذا يدل بعد على كذا وكذا . وإنما جرأه هذه الجرأة على هذا الحكم والبت لأنه قد ملك لحظ الملك ولفظه ، وحركته وشكله ، وتعريضه وتصريحه ، وجده وهزله ، وشكله وسخنته ، وتبعده واسترساله ، ووجومه ونشاطه ، وانقباضه وانبساطه ، وغضبه ومرضاته ، وناديه ومعنائه ، وسفره وحضره ، وبشره وقطوبه . ثم يهجس في نفس هذا الملك يوماً هاجس ، ويخطر بباله خاطر ، فيقول : أريد أن أعمل عملاً ، وأؤثر أثراً ، وأحدث حالاً ، لا يقف عليها أوليائي ولا المطيفون بي ولا المختصون بقربي ولا المتعلقون بحبالي ولا أحد من أعدائي والمتبعين لأمرى والمحصين لأنفاسي والمترقيين لعطاسي ، ولا أدري كيف افتتحه واقترحه ، لأنى متى تقدمت فى ذلك بشيء الى كل من يلوذ بى ويظيف بناحيتى ، كان الأمر فى ذلك نظير جميع أمورى ، وهذا هو الفساد الذى يلزمنى تجنبه ويجب على التيقظ فيه . فيقدح له الفكر الثاقب ، والذكاء اللاهب ، أنه ينبغي أن يتأهب للصيد ذات يوم . فيتقدم بذلك ويذيعه ويطلب به . فيأخذ أصحابه فى أهبة ذلك واعداد الآلة . فاذا تكامل ذلك له اصحر للصيد ، وتشوف له ، وتقلب له فى البيداء ، وصمم على بعض ما يلوح له ، وامعن وراءه وركض خلفه جواده ، وبدد فى طلبه بدده ، ونهى من معه ان يتبعه . حتى اذا أوغل فى تلك الفجاج الخاوية والمدارج المتباينة ، وتباعد عن متن الجادة وواضح المحجة ، صادف انساناً فوقف عليه وحاوره وفاوضه فوجده حصيفاً محصلاً يتقد فهماً ويتقد إفهاماً . فقال له أفيك خير ؟ فقال نعم ! وهل الخير إلا فى ، وعندى ، والامعى ؟ ألقى الى ما بدا لك ، وخلنى وذلك . فقال : ان الواقف عليك ، المكلم لك ، ملك هذا الأقليم ، فلا ترع واحداً ولا تقلق فيكفر له عند سماع هذا ، ويقول : لسعادة قيضتنى لك ، والجد اطلعك على . فيقول له الملك : انى أريد أن اصطنعك لأرب فى نفسى ، وأبلغ بك ان بلغت ذاك لى ، وأريد منك ان تكون عيناً على نفسك ذكية ، وصاحباً لى نصوحاً ، فقم لى بذلك جهدك ووسعك ، واطو سرى هذا عن سانح فؤادك فضلاً عما سوى ذلك . فاذا بلغ منه غاية الوثيقة

والتوكد ألقى إليه عجرته وبجرتة ، وبعثه على السعى والنصح وتحرى الرضى .
ووصاه بما أحب وأحكمه ، وأزاح عنه فى جميع ما تعلق المراد به ولا يتم
الا بحضوره . ثم ثنى عنان دابته إلى وجهه عسكريه وأوليائه ، ولحق بهم . وتعلل بقية
نهاره فى قضاء وطره من صيده . ثم عاد إلى سريره فى داره ومقره فى ملكه . وليس
عند أحد من رهطه وبطانته وغاشيته وحاشيته وخاصته وعامته علم بما قد أسره إلى
ذلك الكهل الصحراوى وبما حادثه فيه . والناس على سكتاتهم وغفلاتهم حتى
أصبحوا ذات يوم عن حادث عظيم ، وأمر جسيم ، وشأن هائل ، وعارض محير .
فكل عند ذلك يقول : ما أعجب هذا ! من انتصب لهذا ؟ وكيف تم هذا ؟ هذا
صاحب البريد وليس عنده منه أثر ، وهذا صاحب المعونة وهو عن الخبرة به بمعزل ،
وهذا الوزير الأكبر وهو متحير ، وهذا القاضى وهو متفكر ، وهذا حاجبه وهو ذاهل .
وكل عن الأمر الذى دهم مشدوه ، ومنه متعجب . وقد قضى الملك مأربته ، وأدرك
حاجته ، وأصاب طلبته ، وبلغ غايته ، ونال أربه . كذلك ينظر هذا المنجم إلى زحل
والمشتري والمريخ والشمس والزهرة وعطارد والقمر ، وإلى البروج وطبائعها ،
والرأس والذنب وتقاطعهما ، والهلال والكخداه ، وإلى جميع ما دانى هذا وقارب
وكان له فيه نتيجة وثمره ، فيحسب ويمزج ويرسم ، وتنقلب عنه أشياء كثيرة من سائر
الكواكب التى لها حركات بطيئة وآثار مطوية ، فينبعث مما أغفله وأهمله وأضرب عنه
ولم يتسع له ما يملك عليه حسه وعقله وفكره ورويته ، حتى لا يدري من أين أتى ،
ومن أين دهمى ، وكيف انفرج عليه الأمر ، وانسد دونه المطلب ، وفاته المطلوب ،
وعزب عنه رأى . هذا ولا خطأ فى الحساب ، ولا تقصير فى قصد الحق . وهذا كى
يلاذ بالله عز وجل فى الأمور ، ويعلم أن الله مالك الدهور ، ومدبر الخلائق ،
وصاحب الدواعى والعوائق ، والقائم على كل نفس ، والحاضر عند كل نفس ، وأنه
إذا شاء نفع وإن شاء ضر ، وإذا شاء عافى وإذا شاء أسقم وإذا شاء أغنى وإذا شاء
أفقر ، وإذا شاء أحيا وإذا شاء أمات ، وأنه كاشف الكربة والمؤنس فى الغربة ، وأنه
مجلى الغمة وصارف الأزمة ، ليس فوق يده يد ، وهو الأحد الصمد على الأبد
والسرمد .

المقايسة الخامسة الزمان والمكان

قلت لأبي بكر القومسي ، وكان كبيراً في علم الأوائل : بأى معنى يكون هذا الزمان أشرف من هذا الزمان ، وهذا المكان أفضل من هذا المكان ، وهذا الإنسان أشرف من هذا الإنسان ؟ فقال : هذا يسوغ بإضافة الزمان إلى سعادة سابعة ، وخير غامر ، وبركة فائضة ، وخصب عام ، وشريعة مقبولة ، وخيرات مفعولة ، ومكارم مؤثرة ، من جهة شكل الفلك بما يقتضيه بعض أدواره . وكذلك المكان إذا قابله أثر من هذه الأجرام الشريفة والأعلام المنيفة . فأما الزمان ، الذى هو رسم الفلك بحركته الخاصة ، فليس فيه جزء أشرف من جزء وكذلك المكان لأنه رديف الزمان . ولا سبيل فى مثل هذه المسائل إلى معرفة الحقائق الا بالاضافة التى هى شاملة للعالم ، غالبية عليه ، من محيطه إلى مركزه . فأما الإنسان فلا شرف له أيضا على إنسان آخر من جهة حده الذى هو الحياة والنطق والموت ، لأن الحد فى كل واحد واحد . فاذن لا شرف من هذا الوجه . فان اعتبر بعد هذا فعل هذا ، وفعل هذا ، من جهة الاختيار والايثار والاكساب والاجتلاب ، فذاك يقف على الاشرف فالاشرف ، والأعلى فالأعلى ، بحسب ما يوجد منظوما فيه ، نافعا لغيره ، واقعا موقعه الأنصر به .

المقايسة السادسة اختلاف الألفاظ .. لماذا أحلى ؟

قلت لأبي بكر القومسي - وكان كبير الطبقة فى الفلسفة ، لزم يحيى بن عدى زمانا ، وكتب لنصر الدولة ، وكان حلو الكتابة ، مقبول الجملة : ما معنى قول بعض الحكماء : الألفاظ تقع فى السمع فكلمة اختلفت كانت أحلى ؟ [والمعانى تقع فى النفس فكلمة اتفقت كانت أحلى] . فقال : هذا كلام مليح ، وله قسط من الصواب والحق . ان الألفاظ يستعملها السمع ، والسمع حس ، ومن شأن الحس التبدد فى نفسه والتبدد فى نفسه . والمعانى تستفيدها النفس ، ومن شأنها التوحد بها ، والتوحيد لها ، ولهذا تبقى الصورة عند النفس قوية وملكة ، وتبطل عند الحس بطولا ، وتمحى امحاء . والحس تابع للطبيعة ، والنفس متقبلة للعقل . فكأن الألفاظ

على هذا التدرج والتنسيق من أمة الحسن ، والمعاني المعقولة له من أمة انعقد .
 فالاختلاف فى الأول بالواجب ، والاتفاق فى الثانى بالواجب . وبالجملة الانفاذ
 وسائط بين الناطق والسامع ، فكلما اختلفت مراتبها على عادة أهلها كان وشيها أروع
 وأجهر . والمعانى جواهر النفس ، فكلما اختلفت حقائقها على شهادة العقل كانت
 صورتها انصع وأبهر . وإذا وفيت البحث حقه فان اللفظ يجرى نارة ويرق أخرى ،
 ويتوسط نارة ، بحسب ملاسته التى له من نور النفس ، وفيض العقل ، وشهادة
 الحق ، وبراعة النظم . وقد يتفق هذا التعديل لانسان بمزاجه الصحيح ، وطبيعته
 الجيدة ، واختياره المحمود ، وقد يفوته من هذا الوجه فيتلافاه بحسن الاقتداء بمن
 سبق بهذه المعانى اليه ، فيكون اقتداؤه حافظا عليه نسبة البيان على شكله المعجب
 وصورته المعشوقة . ومدار البيان على صحة التقسيم ، وتخير اللفظ ، وزينة النظم ،
 وتقريب المراد ، ومعرفة الوصل والفصل ، وتوخى المكان والزمان ، ومجانبة العسف
 والاستكراه ، وطلب العفو كيف كان .

المقابلة السابعة

لماذا لا ينكتم السر؟

قيل لأبى سليمان ، وقد جرى كلام فى السر وطيه والبوح به ، ما السبب فى أن
 السر لا ينكتم البتة ؟ فقال : لأن السر اسم لأمر موجود قد ضرب دونه حجاب ،
 وأغلق عليه باب ، فعليه بالكتمان والطفى والخفاء والستر مسح من العلم ، وهو مع
 ذلك موجود العين ثابت الذات محصل الجوهر ، فباتصال الزمان وامتداد حركة الفلك
 يتوجه نحو غاية هى كماله ، فلا بد له اذا من النمو والظهور ، لأن انتهاء اليهما ووقوفه
 عليهما ، ولو بقى مكتوما خافيا أبدا لكان والمعدوم سواء ، وهذا غير سائغ ، أعنى أن
 يكون الموجود معدوما ، ولو قبل الوهم هذا لقبل أن يكون المعدوم موجودا . وهذه
 مسألة فى الهوامل ولها جواب فى الشوامل . لكن هذا القدر مستفاد من هذا الشيخ
 الفاضل . ومراً أيضا فى كلامه أن الحجاب المضروب على هذا السر يرث ويخلق ،
 لأنه لا يبقى على هيئته الأولى يوم يقع سرا ، ويحدث مكتوما . ثم قال : هذه
 الخواطر والسوانح ، على لطفها ودقتها وشدة خفائها وغموض مشاربها ، تبدو وتظهر
 وتقوى وتكثر ، حتى يعرف منها الشيء بعد الشيء ، باللحظ والسحنة والتلف

وضروب شكل الوجه ، فكيف ما ابتذله اللسان ، ونسخته العبارة ، وظعن من مكان إلى مكان .

المقايسة الثامنة

الموت والحياة

سمعت الأنطاكي أبا القاسم ، وكان يعرف بالمجتبي ، يقول : الأسباب التي هي مادة الحياة هي في وزن الأسباب التي هي جالبة للموت . قيل له : فلم كان الموت على هذا أولى بالإنسان من الحياة ؟ فقال : لأن الموت طبيعي ، وكل طبيعي لا محيص عنه . وإنما أطلقنا الكلام الأول لأنك ترى من نجا من الموت بشيء وقع به غيره في الموت ، وتجد من تخلص إلى الحياة بشيء وقع به غيره إلى الموت . فلو استطيع حصر هذه الأبواب لوجد ما به يموت من يموت في عدد ما به يحيى من يحيى .

ثم قال : وها هنا موت طبيعي معترف به في مقابلته حياة طبيعية . وهكذا أيضا ها هنا موت عرضي وفي مواجهته حياة عرضية . فالموت الطبيعي قد قامت به الشهادة من الكافة . فأما الحياة الطبيعية فحياة العقل بالعقل . والموت العرضي الجهل الشائع في الإنسان . فأما الحياة العرضية فحس الإنسان وحركته بسلامة بدنه ، وسكون أخلاطه ، وقوة طبيعته ، ونصرف سائر ما هو مركب من جهته .

ثم قال : ومن فتح الله بصر عقله ولحظ هذه الحقائق ، ترقى في درجات المعارف وسلايم الفضائل ، وانتهى إلى أفق الروح والراحة ، ونجا من هذه المعادن التي هي معادن العطب والتلف ومساكن الآفات والهلاك ، وتفجر في هذا الفصل بكل كلام شريف وبكل موعظة حسنة . وكان من القادرين على أمثاله ، وممن قد أيده الله تعالى بتوفيقه ومعونته .

المقايسة التاسعة

لماذا يتعصب صاحب العلم لعلمه ؟

سأل أبو محمد الأندلسي النحوي عيسى بن علي الوزير ، وأنا عنده ، فقال : لم قال صاحب كل علم ليس في الدنيا أشرف من علمي الذي أنظر فيه ؟ هكذا نجد

الطبيب والمنجم والنحوى والفقيه والمتكلم والمهندس والكاتب والشاعر . قال :
وأنا . لمكانى من النحو ، أقول هذا القول ، وهكذا أجد من سميت . فقال الشيخ
عيسى بن على : هذا لأن صورة العلم فى كل نفس واحدة ، فكل أحد يجد تلك
الصورة بعينها ، فيمدح العلم بها ، ويظن أن تلك الصورة إنما هى لعلمه وحده ،
وكذلك صاحبه . وتلك ، أطال الله بقاءك ، صورة العلم الأول . فأما إذا قسمت
العلم ، كما قسمه أبوزيد أحمد بن سهل البلخى الفيلسوف فى كتابه المسمى أقسام
العلوم ، وتتبع مراتبه ، فأنك تجد حيثنذا علما فوق علم ، بالموضوع أو بالصورة ،
وعلما دون علم ، بالفائدة والثمرة . وهذا المعنى الذى أشير إليه يصح لك لو فرضت
نفسك عالمة بكل شيء ، فكنت حيثنذا لا يحضرك علم دون علم بل كنت تطلع على
جميعه بنوع الوحدة مع اختلاف مراتبه من نواحى مواده وصوره وفوائده وثمره ، وكنت
تجدها كلها واحدة . لأن حد العلم كان يشتق من كل فن منها على ما هو به من غير
خلل عارض ولافساد واقع .

قال الأندلسى : قد كنا ، أيها السيد ، نترامى بهذه المسألة تحقيقا لها ، وامتهانا
لقدرها ، وفيها هذا الجواب الذى لو رحل إليه من قطر شاسع ، أو غرم عليه مال
دثر ، لكان ذلك دون حقه . وما أكثر ما يحقر الشيء فيصير صلة لشيء لا يحقر .
لولا أن عمرى استهلكه النحو لكنت ألبس لهذا العلم صدار المنكمشين ، واصبغ به
نفسى صبغة المتحققين .

المقايسة العاشرة

الأفعال الالهية

قال أبوزكريا الصيمرى لأبى سليمان : إذا كان البارئ تعالى لا يفعل ما يفعل
ضرورة ولا اختيارا ، فعلى أى نحو يكون فعله ؟ فانه ان كان كاستتارة الهواء عن
الشمس فهو ضرورى ، وان كان كفعل احدنا فهو اختيارى ، وماخلا هذين فغير
معقول ، وما لايعقل فغير مقبول .

فقال ابوسليمان : قد قال كبار الأوائل أنه تعالى يفعل بنوع اشرف من الاختيار .
وذلك النوع لا اسم له عندنا ، لأننا إنما نعرف الأسماء التى قد عهدنا أعيانها ، وشبهنا

بها . والناس إذا عدموا شيئا عدموا اسمه ، لأن اسمه فرع عليه ، وعينه أصل له ، وإذا ارتفع الأصل ارتفع الفرع ، هذا مالا دفاع له ، ولا امتناع منه . وخواص الخواص معدومة الأسماء . ونحن نحس بمعان جمّة ، وفوائد كثيرة ، لا نستطيع صرفها عن أنفسنا ، وقد التبست بها ، وقرت في أثنائها . ومع ذلك إذا حاولنا أسماءها عجزنا . بلى قد نعتاض من الأسماء الفائتة إشارات بصفات وتشبيهات تقوم لنا من بعد مقام الأسماء الفائتة ، ولكن لها فينا أعمال رديئة وإيهامات عندنا فاسدة ، ولكن ليس لنا في هذا بوجه من الوجوه حيلة . فمن جملة ذلك هذا الذى نحن فيه ، أعنى أنه قد صحح بالبرهان أن فعل الله تقدس وعلا ليس باضطرار ، لأن هذا فعل عاجز ، ولا دافع لهذا القول . وليس باختيار أيضا لأن فى الاختيار معنى قويا من الانفعال . وهذا مسلم عند من ألف شيئا من الفلسفة ، وشدا بعض علم الأوائل . فلم يبق بعد هذا الا انه بنحو عال شريف يضيق عنه الاسم مشارا إليه ، والرسم مدلولاً به عليه . ولو قال لك رجل لم خبرت عن الله بالتذكير دون التأنيث ؟ لم يكن عندك الا أن تقول هذا ما أقدر عليه وليس عندى لما هو حقه فى الخبر عنه اسم يخصه ، وأكثر ما أمكنتنى أنى لم أنعته بما أنعت به الأنثى . وهذا لأن التذكير والتأنيث معيان يوجدان فينا وفيما أشبهنا من سائر الحيوان وهما متفيان عن الله تعالى من كل وجه وبكل وهم .

ثم قال : بعد هذا الذى أقدم من القول ، والذى أخترته فى هذا الجواب ، مع هذا التضييق الواقع ، أن قولنا يفعل لا يصح معناه فى البارى البتة . بل قولنا يفعل عبارة عن انفعال الأشياء له ، لأن الأشياء كلها مشتاقة إليه ، متوجهة نحوه ، مستأنسة به ، مقتبسة منه . وذلك أيضا لأن وجوده قد حرك الأشياء إلى ذاته ، وشوقها إلى قربه ، وبث الوسائط بينها وبينه . ثم ضرب مثلا يقال : ألا ترى إلى الطبل يضرب عند الرحيل من قبل الملك ، فترى كل احد قد تحرك حركة لائقة به موقوفة عليه نحو الملك ، من غير أن يكون قد تقدم إلى واحد واحد منهم بما هو إليه بل هو على سكونه وحاله السالفة . وانما لاح لهم لائح فتحركوا مشتاقين متشبهين .

ثم قال : وينبغى أن يعلم أنه لا فاعل الا وهو يعتريه نوع من أنواع الانفعال فى فعله ، كما أنه لا متفعل الا وهو يعتريه نوع من أنواع الفعل فى انفعاله ، الا أن

الانفعال فى الفاعل خفى جدا ، والفعل فى المتفعل خفى جدا ، فلهذا لا يطلق على الفاعل الا الاسم الأخص له ، الأعم لجملته . وهذا وان كان الاطلاق والاستعمال على حد ما حقق القول فيه ، وأن المعقول لا سبيل إلى إنكاره ، وما عرف بالحقيقة لا طريق إلى جحوده . فقد بان أن قولنا يفعل ولا يفعل ، وفاعل وغير فاعل ، كلمات مطلقة على حد المجاز والعادة .

المقابلة العشرون بعد الموت

قال المجوسى ، وكان ذا حظ وافر من الحكمة ، لأبى الحسن محمد بن يوسف العامرى ، وكان من أعلام عصره : أيها الشيخ ! إن أجد النظر فى حال النفس بعد الموت مبنا على الظن والتوهم . وذلك ان الإنسان كما يستحيل منه أن يعلم حاله قبل كونه ، [كذلك يستحيل أن يعلم حاله بعد كونه] لأنه يصير مستقى علمه ومستبظ مراده عدما ، والعدم لا يقتبس منه علم شىء . بوجه ، ولا يستفاد منه معرفة حال ، لا فيها يتعلق بالحق ، ولا فيها يتعلق بالباطل .

فقال فى الجواب : ليس النظر فى حال النفس بعد الموت مبنا على الظن ، وإن كان شبيها به . وليس يجب أن يثبت القضاء فى هذا المعنى بالظن للمشابهة القائمة بينه وبين غيره ، لأن الفصل حاضر والفرق ظاهر . وذلك أن الإنسان لم يجهل حاله قط فيما سلف ، لأن الطريق إلى تبين ذلك وتحصيله مسلك ، والشاهد على ثمره المطلوب قائم ، والتقريب يدل على ذلك فى هذا الوقت . وإن كان البرهان فى الصناعة موجودا إذا أخذت على ترتيبها الخاص لها فى معرفة المنطق ، الذى هو آلة فى استقراء الطبيعات التى هى مراق ، وفى معرفة النفس التى هى طلبة كل ناظر فى علم ، وتحقيق بنحلة . كان الإنسان أجزاء مبنوثة فى هذا العالم ، فلما صمدت النفس لها ، حركت الطبيعة على تأليفها ، وتوزيع الحالات المختلفة فيها ، وأعطتها النفس بوساطة الطبيعة صورة خصتها بها ، ودبرت أخلاطها ، وهيات مزاجها ، فظهر الإنسان فى الثانى بشكل غير الشكل الذى كان لأجزائه ، التى مردها فى آخر البحث إلى الهيولى ، بالقول المجمل . والكلام فى هذا ذو شعب وذوائب . ثم ان الإنسان ، فى معارفه التى يترقى فى درجاتها ، يجد لنفسه قنية ليست كسائر القنيات ، وهياة ليست كجميع الهيئات ، أعنى الحكمة التى هى علم الحق والعمل بالحق . فيجول طالبا لبقائها ، ناظرا وباحثا عن حقيقة ذلك ، حائرا إلى أن يبلغ بفرط العناية ، وجودة الفحص ، وحسن مشاورة

العقل ، إلى الحد الذى يفصح له بأن النفس ليست تابعة للمزاج ، ولا حادثة بالأخلاق ، بل هى مستتعبة للمزاج ومقومة للأخلاق ، بوكالة الطبيعية التى هى ظل لها ، وقوة من قواها ، وأن النفس ليس لها استعانة بالبدن ، ولا بشيء منه ، وأنها خالصة لا شوب فيها ، وقائمة بجوهرها ، غنية بعينها عما يفسدها ويحللها ويتخونها ويؤثر فيها . وكيف يكون ذلك وهى لا تتفعل البتة ؟ فهذا وأشباهه يفتح للانسان إن النفس يمكن أن يطلب علم حالها ، بعد مفارقة البدن ، بالأمر الطبيعى ، والسبب الضرورى . فقد تجل وانكشف ان البحث عن ذلك ليس بحثا عن عدم مطلق ، بل هو بحث عن أحوال منزلة مشهورة مرتبة محدودة . بل هو بحث عما تتصور غايته ، ويطمأن اليه ، تارة بالبرهان المنطقى ، وتارة بالدليل العقلى ، وتارة بالأيماء الحسى ، والأمر الالهى .

وقال أيضا فى هذا الموضع ما يجب إيراد ، وإن طال الفصل ، واسأم ذكر ، رضى الله عنه ، ان الحسيات معابر إلى العقليات ، ولا بد لنا ، مادنا باحثين عن حقائق العقل ولا نقدر على أن نخلص إلى عالمه دفعة واحدة ، من سبل نسلكتها ، ومثل نستصحبها ، وشواهد نستنتقها ونثق بها . ولو أمكننا الخلوص إلى عرصات العقل ويلاذه ، لكان التفاتنا إلى الخواس فضلا . الا أننا متى أخذنا الأمثلة من الخواس فليس يجب أن نتشبه بها كل التشبه ، بل الذى يحكم به العقل ويقتضيه الحزم أن نأخذ الأمثلة من الحس ، فإذا وصلنا إلى العقل حيثئذ فارقناها أغنياء عنها ، مستريحين منها ، ومن تموجها واضطرابها . ولما كنا بالحس فى أصل الطبيعة ، لم نفك منه ، ولما كنا بالفعل فى أول الجوهر لم نجعل فضله ، فلهذا ما استغنى بالحس ولم يقض به ، ووصلنا إلى العقل ولم نثر عليه .

وهذا اقتضاه قول عرض فى جملة كلامه ، وذلك أنه قال : فى كل محسوس ظل من المعقول ، وليس فى كل معقول ظل من الحس . ومتى وجدنا شيئا فى الحس فله أثر عند العقل ، به وقع التشبه ، وإليه كان التشوق ، وبه حدث القرار . والإنسان متى لم يخلع آثار الحس خلعا ، لم يتحل بلبوس العقل تحليا . وإنما شق الاقرار بمعرفة حال النفس بعد الموت ، لأن الحس لم يساعد فى تسليم ذلك بشهادة يسكن إليها ، وإن كان العقل قد استوضح ذلك بالأمثلة المضروبة فى إقامة البيته عليها .

المقابلة السادسة والعشرون

النوم واليقظة

سمعت أبا إسحاق الصابي يقول : رأيت ثابت بن قرة الحرائي في المنام ، قاعداً على سرير في وسط دحلتنا ، وحوله ناس كثيرون كان كل واحد منهم من قطر وهم على خلق مختلفة ، وهو يعظهم ويبتسم في خلال وعظه وكلامه . وحصلت عنه نكتة شريفة ، ذهبت عنى في اليقظة ، وسأني ذلك . وكنت اسرح بفكري كثيراً في الظفر به والوقوع عليه ، فلا يعود بطائل . فلما كان بعد دهر ، وبعد اختلاف أحوال ، ذكرت أنه قال لي : خذ يا إبراهيم نمرة الفلسفة من هذه الكلمات الشافيات ، التي هي خير لك من أهلك وولدك ومالك وربتك . أعلم أن اليقظة التي لنا بالحس هي النوم ، والحلم الذي لنا بالعقل هو اليقظة . ولغلبة الحس علينا قد اتفقنا أن الأمر بخلاف هذا . وإلا فعَلَبَ العقل مكان الحس ينصدع لك الحق في هذا الحكم . فإذا وضع هذا فبالواجب ينبغي أن يتقص من الحس وإن ظننا أن اليقظة من ناحيته ، ويلتبس بالعقل وإن ظننا أن الحلم من ناحيته . فكان يقول أبو إسحاق : وهذه النكتة مفروشاها واسع ، ولكن بقي أن تفهم متنعاً بها ، وتسمع على وجه التقبل لها لا على معنى الاعتراض عليها . الفلسفة هي لطائف العقل . فكل من لطف وصل إليها . ولطف الإنسان في طلبها هو تأتية عند التفهم ، وصبره عند الطلب ، وثباته على السيرة التي ندب إليها المشفقون الناصحون . فإن النفس تزكو عند ذلك ، والصدر ينشرح ، والمخاطر يتوالى ، فلا يبقى حينئذ باب إلا انفتح ، ولا مشكل إلا وضع .

المقابلة السابعة والعشرون

نفس الانسان

سئل أبو سليمان : هل يجوز أن يقال الإنسان ذو نفس ، كما يقال : هو ذو ثوب ، وذو مال ؟ قال : أما على التحقيق فلا . وذلك أن الإنسان قد يكون ذا ثوب وذو مال . وقد لا يكون ، ويستحيل أن يكون إنساناً إلا وهو ذو نفس ، لأنه بالنفس ما هو إنسان ، ولولا النفس لم يكن إنساناً ، فكيف يكون على هذا ذا نفس إلا على السعة والمجاز ؟ ..

قيل له : فهل تقول : إن النفس ذات إنسان ؟ قال : لا ، لأنها غنية عن الإضافة .
ألا ترى أنه لا يقال : إن الثوب ذو إنسان ، وإن اليد ذات إنسان ، كما يقال أن
الإنسان ذو ثوب ، والإنسان ذو يد ، لأنه لا حاجة بالثوب للإنسان ، وإنما الحاجة
بالإنسان إلى الثوب واليد .

ثم قال : واعلم أنه ينبغي أن تفهم من قولنا الإنسان ذو نفس أنه بالنفس إنسان ،
لأن الإنسان عرف بالنفس أنه إنسان . ومما يزيدك بياناً أنك إذا قلت الإنسان ذو
نفس ، فقد اضمرت في الإنسان نفساً في الأول ، ثم ميزته بعد بقولك ذو نفس ، وإذا
رجوع فيما أعطيت . ألا ترى أنك إذا قلت : الإنسان ذو ثوب ، لم تضمّر الثوب في
الإنسان ، بل تميزه منه حتى تكون اشارتك إلى هذا غير اشارتك إلى هذا . فقد
انكشف أن الإنسان لا يقال هو ذو نفس إلا على سعة وتجاوز . ومما يزيدك أيضاً
استبانة أن معنى الملك يستحيل في هذا الكلام . وقولك الإنسان ذو ثوب إيضاح
للملك ، والمالك غير المملوك . وليس كذلك الإنسان مع النفس ، فإنه لا يملك
النفس ، بل النفس تملكه . ألا ترى أنها تصرفه ، وتكلفه ، وتستعمله ، وتستكملها .
فأين معنى الملك ، الذي يقتضيه اللفظ ، في جميع نظائر هذا القول ؟ هذا يكون من
أمرين مختلفين . أحد الأمرين كدر النفس بالجهل ، وظلمتها بالغبوة ، وانمحاء
صورتها بصدا الدهر ، وقلة اقتناء المعارف ، وشدة انجرادها من العبر . وهذه حال
دهماء الناس . وأما الآخر فهو أن تعلو النفس في مراتب المعارف ، وترتعى رياض
العلم ، حتى تصبح حالها في الحلم قسيمة حالها في اليقظة ، فلا يستفيد صاحب هذه
النفس شيئاً بالمثال والتشبيه من ناحية الرؤيا ، لا سواء حاله في المنام واليقظة .
وربما تحولت تلك القوة من المنام إلى الفراسة في اليقظة ، وإلى الكهانة ، حتى إذا
حدس قرطس ، وإذا طنّ طن ، وإذا وهم هجم ، وإذا اعتبر عبّر . وربما تحولت إلى
ما يرفد العقل فقط ، باستخراج الدقائق ، وتأليف المقدمات ، واستنباط النتائج ،
والوصول إلى سرارة الحق ، وبحبوحه الصواب . وربما صارت الحال مصادفة
للحقائق ، بزوال الوسائط ، من غير إعمال أداة ، وإحضار آلة . قال : وهذه كلها
درجات النفس ، تارة من ناحيتها بالبحث والتنقيب والنظر والتقليب ، وتارة بالوحي
والإلهام والإلقاء والسنوح والموافقة والمصادفة ، وما جرى في نظائر هذه المعاني ،
والتبس بما يكون شكلاً لها . وهذه حال تقع أولاً في مزاج مهيب ، وتركيب معدل ،

وطينة حرة ، ثم تظهر ثانياً بتهذيب النفس ، وتطهير الأخلاق ، وتصفية الأعمال ، وقمع الشهوات . وكل من كان قسطه من الحال الفلكية أوفر . كان مضاهيه في الحال البشرية أظهر . وهذا باب طويل الذيل ، مياس . وفيما وقع النص عليه . ووصلت الإشارة إليه ، بلاغ لمن أثر رشده ، وقصد حفظه ، وبذل سعيه ، وأم غايته . وفقنا الله لما نحب ، واستعملنا فيما يرضى ، إنه قريب مجيب .

المقايسة الثالثة والثلاثون

الحركة والسكون

سئل أبو محمد العروضي مرة عن الحركة والسكون أيهما أقدم ؟ فقال : أما عند الحس فالحركة أقدم ، وأما عند العقل فالسكون أقدم . وبعد : فالسكون عدم الحركة . وكل حس فقوامه بالحركة ، وكل عقل فصورته بالسكون ، ونظامه بالهدوء ، وخاصته بالطمأنينة ، وأثره بالقرار ، وقوته باليقين . وكأنه من فيض العلة الأولى وجوده ، لأن هذا النعت لكل ما دونه بالاستعارة ، وله بالواجب والحقيقة . والسكون عند العقل عدم الحس ، والحركة عند الحس تأثير العقل . وأطال إطالة شدَّ بها عني أكثر قوله .

وسمعت أبا سليمان يقول ، ما هو جار مع هذا القول ورقد له ، قال : سكون العقل في نوع الحركة ، وحركة الحس في نوع السكون ، لأن حركة الحس إلى الاضمحلال والنكود ، وسكون العقل إلى الكمال والمحصول . وقال أيضا : إن الحركة التي يعتقد لها ضد ، أعنى السكون ، هي الحركة التي في بلاد الحس . فأما الحركة التي للعقل بنوع السكون فلا ضد لها بوجه ، لأن العقل كل بمعنى واحد ، وواحد بمعنى كل ، وله هذا باشتمال العلة الأولى عليه ، واقتباسه منه . وقد وضع أن السكون عدم ما ، فكيف يكون هناك عدم ؟ كما وضع أن الحركة ها هنا عدم ما ، فكيف يكون ها هنا وجود ؟

قيل له في هذا المكان : فالعالم ساكن أو متحرك ؟ قال : لو كان متحركاً الحركة المعروفة لقلق ، وارجحن ، ومال ، ونهافت . ولو كان ساكناً لبقى كذلك على حال . ولكنه متحرك حركة استدارة ، فلذلك ما يظن به السكون ، وساكن سكون

قابل للفيض ، ولذلك ما يظن به الحركة . فالتشوق حركة ما ولكن عقلية ، والدوام على التشوق سكون ما ولكن عقلى . فكل ما قد فاض من العلة الأولى ، وتقبله المعلول الثانى ، هو موجود على مراتبه المتباينة ، ودرجاته المختلفة ، بين الطرفين الأدنى والأقصى . ومع ذلك فقد وقف الجميع تجاه كل متصفح ، وقبالة كل باحث ، فليس يذهب من جميع ذلك شىء إلا سوء الاختيار ، وقلة الاقتداء بالأفاضل الأخيار . حفظك الله ، لو انتفعنا ببعض هذه الفقر الكريمة ، سعدنا ، ونلنا منيتنا ، فسل ربك ذلك بالتضرع إليه ، والخضوع بين يديه ، مع العبادة الدائمة ، والبحث اللطيف ، والتؤدة المعتادة ، والإحسان إلى البرية ، فإنك تعطى بغيتك ، وتبلغ غايتك ، وتنال سعادتك .

المقابلة الرابعة والثلاثون

الموجود !

سمعت البديهى يقول - وكان صاحب يحيى بن عدى دهرأ ، وهو حملنى بدعوته اللطيفة إلى مجلسه - : من اليّن أن الموجود على ضربين : موجود بالحس ، وموجود بالعقل . ولكل واحد من هذين الموجودين وجود ، بحسب ما هو به موجود ، إما حسى ، وإما عقلى ، فعلى هذا ، النفس لها عدم فى أحد الموجودين وهو الحسى ، ولها وجود فى القسم الآخر وهو عقلى . وقد كان الدليل على هذه الحال حاضراً فى هذا العالم ، وذلك أنها كانت تتفكر ، وتبسط ، وتعقل ، وتستبطن ، وتنظم المقدمات ، وتدل على يتابع المعلومات ، وتعلو إلى غاية الغايات . وليس للحس معها شركة ، ولا له عندها معونة ومادة . فكيف لا تكون النفس التى هذا عنوان كتابتها ، وصريح كنايتها ، وفاضل عنايتها ، بعد مفارقة القشور والحواجز والحيطان والحواجب والغواشى والملابس ، عن الحس أغنى ، وبجوهرها أغلى ، وبخاصتها اسنى ، وهذه الأشياء عنها أبعد ، وعن شرفها أهبط ؟ وهل هذه الشهادة إلا عادلة ، وهذه البينة إلا مقبولة ، وهذا الحكم إلا مرضى ، وهذا المثال إلا بين ؟ ثم قال : ولطائف الحكمة لا يصل إليها الجبس الجافى ، والغليظ الجلف ، والقَدَم العَبَام ، والهَلْبَاجَة العُلْفُوف . وإنما هى تعرض لمن صح ذهنه ، واتسع

فكره ، ودق بحثه ، ورق تصفحه ، واستقامت عادته ، واستنار عقله ، وحسن خلقه ، وعلت همته ، وخمد شره ، وغلب خيره ، وأصل رأيه ، وجاد تمييزه ، وعذب بيانه ، وقرب إيقانه .

قيل له : هذا عزيز جداً ؟ فقال : كما أن المتشبه به في هذا عزيز جداً ، واتباع في هذا الفن وتمطى ، وجاز كل غاية وتخطى . ومحصولي من ذلك ما سمعته الآن . وترى . نفعنا الله به وحلأنا بأزيته ، واسعدنا بقوله .

المقابلة الخامسة والخمسون والثلاثون

نعيم أهل الجنة

سمعت أبا إسحاق النصيبى المتكلم ، وكان من غلمان جعل ، يقول : ما اعجب أمر أهل الجنة ! قيل : وكيف ؟ قال : لانهم يبقون هناك لا عمل لهم إلا الأكل والشرب والنكاح . أما تضيق صدورهم ؟ أما يملون ؟ أما يكلون ؟ أما يربزون بأنفسهم عن هذه الحال الخسيسة ، التى هى مشاكلة لأحوال البهيمة ؟ أما يأنفون ؟ أما يضجرون ، وأخذ فى هذا وشبهه ، يوج متعجباً ، مستعظماً . وكان يقول بتكافؤ الأدلة ، ويخفيه عن أكثر الناس ، ويفتح فيه ابن الخليل ويناقله عليه . ولمعمرى من طلب طمأنينة النفس ، ويقين القلب ، [ونعمة البال ، بطريقة أصحاب الجدل وأهل البلاء حل به البلاء ، وأحاط به الشقاء . والكلام كله جدل ، ودفاع ، وحيلة ، وإيهام ، وتشبيه ، وتمويه ، وترقيق ، وتزويق ، ومخاتلة ، وتورية ، وقشر بلا لب ، وأرض بلا ريع ، وطريق بلا منار ، وإسناد بلا متن ، وورق بلا ثمر . والمبتدئ فيه سفیه ، والمتوسط شاك ، والحادق فيهم متهم . وفى الجملة : آفته عظيمة ، وفائدته قليلة .

نعم ، فأعدت على أبى سليمان قوله بنصه ، وحكى له شمائله فيه . فقال فى الجواب : إنما غلب عليه هذا التعجب من جهة الحس ، لا من جهة شئ آخر . وهكذا كل ما فرض بالحس ، أو لحظ بالحس ، لأنه قد صح أن شأن الحس أن يورث الملل والكلال ، ويحمل على الضجر والانقطاع ، وعلى السامة والارتداع ، وهذا منه فى ذوى الإحساس ظاهر معروف ، وقائم موجود . وليس كذلك الأمر فى

المعاد ، إذا فرض من جهة العقل ، لأن العقل لا يعتريه الملل ، ولا تصيبه الكلفة ، ولا يمسسه اللغوب ، ولا يناله الصمت ، ولا يتحيفه الضجر ، وهكذا حكمه في الشاهد الحاضر ، والعيان القاهر ، لولا عقل النصيبى ونظرائه . ألم يعلم أنه كان في هذه الدار ، على شوبها وفسادها وكدرها وتبورها ، كان العقل لا يكل معقوله أبداً ، ولا ينقضى منه أبداً البتة ، ولا يطلب الراحة عنه بوجه ، بل كان العقل إذا وجد معقوله ، وتوحد به ، صار هذا قد احيى ، لا يوجد بينهما بين بحال . فكيف إذا كان المنقلب إلى عالمه الصرف ، الذى لا حيلولة ولا تغير له ، وهو الوجود المحض ، ولأمر الصرف ، والشئ الذى كلما عرفته بالصفة بعد الصفة كان عنها أعلى ، وكلما أوضحت به العبارة (بعد العبارة) كان عنها أخفى .

وأطال في هذا الفصل ، وعلقت من جميعه قدر ما قررته في هذا المكان . ولعلك تجد به ما أكون منصوفاً فيه عندك ، غير ملوم على إساءتك . وفى الجملة القول فى حصول النفس بعد خلع الحد الذى خص به الإنسان صعب . ولولا أمثلة توضح إيضاحاً يثق به الإنسان مرة بعد مرة لكان باب معرفة حالها قد ارتج ، والطريق قد سد . وقد بين هذا كله بالبرهان المنطقى فى مواضعه المعروفة إن كانت الثقة تقع كذلك . فأما هذا المقدار فإنه جرى فى عرض مقابسة هؤلاء المشائخ بينهم ، بالحديث والاسترسال . فليكن العذر فيه مقبولاً عندك بحسب الحال التى قلبت ظهرها لبطنها لك مرة بعد أخرى . فهذا الولوع منى بالاعتذار إحساس بالتقصير ، أما من جهتي فلسوء الرواية ، وأما من جهتك فلقللة الدراية . وأنا أسأل الله رب العالمين أن يفرغنى لبلوغ غاية هذا الأمر بقية عمرى ، فإنها فيما أخال قليلة . وماذا يرجو المرء بعد الالتفات إلى خمسين حجة ، قد أضاع أكثرها ، وقصر فى باقيها . فإذا أراد الله نجاته عبده تولاه بلطف من عنده .

المقابسة السابعة والثلاثون

الانسانية أفق

قال ارسطاطاليس ، فيما ترجم من كلامه عيسى بن زرعة المنطقى البغدادى أبو على : الإنسانية أفق ، والإنسان متحرك إلى أفقه بالطبع ، ودائر على مركزه ، إلا أن يكون موقوفاً بطبيعته مخلوطاً بأخلاق بهيمية . ومن رفع عصاه عن نفسه ، وألقى حبله

على غاربه ، وشتت هواه فى مرعاه ، ولم يضبط نفسه عما تدعو إليه بطبعه ، وكان
لئن العريكة لاتباع الشهوات الردية ، فقد خرج عن أفقه ، وصار اذذل من البهيمة ،
بسوء إشاره .

هذا آخر ما ترجمه من هذا الفصل . وهو كما ترى وعظ بحكمة ، وإيقاظ برأفة ،
وتعليم بنصيحة ، وإرشاد ببيان . كوروى هذا للحسن البصرى ، ومنصور بن عمار ،
وضربائهما ، ما زاد على ذلك .

المقابلة الثامنة والخمسون

سمعت أبا سليمان يقول : نحن نساق بالطبيعة إلى الموت ، ونساق بالعقل إلى
الحياة . لان الذى هو بالطبيعة قد أحاطت به الضرورة ، والذى بالعقل قد أطاف به
الاختيار ، ولهذا الفرق الذى استبان ، وجب أن نستسلم لأحدهما ، ونتحزم للآخر .
ولا يصح الاستسلام إلا بطيب النفس فيما لا حيلة فى دفعه ، ولا يتم التحزم إلا بإيثار
الجد فيما لا ينال به . والضرورى لا يسعى إليه ، لانه واصل إليك . والاختيار
لا يكسل عنه ، لانه غير حاصل لديك . فانظر أين تضع توكلك فيما ليس إليك ، ومن
أين تطلب ثمرة اجتهادك فيما هو متعلق بك . ثم قال : نحن نقضى ما علينا ،
ونجتهد بما لدينا ، ويجرى الدهر بما شئنا أو أئينا .

وقال أيضا فى هذا الفصل ، على تقطع علائق الحديث ومجادبة بعض
الحاضرين : الانسان مسجون بالضرورة والاختيار . ومع ذاك فمعاده إلى غايته التى
هو متوجه إليها من جهة اختياره ، ومتوجه نحوها من جهة اضطراره ، وهذه كالحيرة
لا سبيل إلى محوها واستبانة كنهها . وبحق ما عرض لان الصورة عنونت الاختيار ،
والهوى رسمت الاضطرار ، والذى يكون بهما يصرف على جديتهما وتبترتهما .
وإنما كان الاختيار منسوباً إلى الصورة بحق الشرف . وإنما كان الاضطرار منسوباً إلى
الهوى بحق الخسة . والإنسان كالاناء لهما ، ولالتباسهما به عرض هذا الصراخ
والعويل ، واحتيج فيه إلى القال والقليل . والله المستعان ، فى كل ما عز وهان .
فليكن هذا مقنعاً ، إن لم يكن شافياً .

المقايسة الرابعة بعد المائة

المحرك والمسكن

حضرت أبا سليمان يوماً ، فقليل له : إذا كان للأشياء محرك أول ، فلم لا يكون لها مسكن أول ، لان الأشياء تسكن تارة وتتحرك تارة أخرى ؟ فقال : الأشياء تتحرك ، كما قلت ، وتسكن . ومعنى تسكن أنها لا تتحرك ، فمحركها في الحقيقة هو مسكنها ، لأنها إليه تتحرك إذا تحركت ، وبه تسكن إذا سكنت ، ولو سكنت لغيره ، لتحركت بغيره ، ولو احتاجت في التحريك إلى محرك وفي التسكين إلى مسكن غيره ، لكانت إما أن تألف السكون من جهة المسكن ، أو تألف الحركة من جهة المحرك ، فكانت تستمر على الحركة أو على السكون ، أو كان المسكن لا يخليها تتحرك بالمحرك ، أو كان المحرك لا يدعها تسكن بالمسكن . والوحدة ، التي تكرر الإيماء إليها ، وترددت العبارة على اللفظ الوجه عنها في هذا الكتاب ، تأبى الوصف ، وتمتنع من هذه القسمة . وذلك أن المحرك هو المسكن ، والمسكن هو المحرك ، لا لانقسام الواحد الأول بين حالين مختلفين ، ولكن لانقسام الموجودات التي من شأنها الانفعال بالحركة مرة وبالسكون مرة . ولو كانت الأشياء تحتاج في كل عرض إلى من ينسب إليه لبطل التوحيد رأساً ، أعنى أنها كانت إذا تضاممت تحتاج إلى ضام لها ، وإذا تبددت تحتاج إلى مبدد لها ، وعلى هذا سائر السمات . وليس يطرد هذا البحث ، ولا يلزم هذا الاعتراض ، بل المحرك الأول بالتحريك الأول على ما يليق به ، وهو الذي جمع وفرق ، وحرك وسكن ، وأعاد وأبدى ، وأفاد كل شيء ما كان محتملاً له غير باخس ولا ناقص ، وهذا كلام من سره التوحيد ، فليكن اكتارك له على قدره وقدر حفظك منه .

ثم قال : وعلى أن الأشياء ، بنظر آخر ، تنقسم انقساماً آخر ، وذلك أن منها ما سكونه طبيعة له . ومنها ما حركته طبيعة له . ومنها ما هو مهياً للسكون في وقت ، وللتحريك في وقت ، فلا يتحرك في وقت السكون ، ولا يسكن في وقت الحركة . فلو أن مجموع هذا الباب راجع إلى واحد متى تحرك شيء فإليه يتحرك ، ومتى سكن شيء ففيه يسكن ، ومتى لزم شيء نهجاً واحداً فله يلزم ، لكن الخلل يدخل ،

والنظام يزول ، والفساد يقع . فان ظن من لا إدراك له ، ولا معقول عنده ، مع هذا ، ان الخلل والفساد قد وقعا بما نشاهد من تغير الأمور ، وتصرف الدهور ، وتلف الانفس ، وزوال النعم ، وتنقص المراتب ، واعتراض الآفات والعلل . فليعلم ان هذا ليس من قبيل ما كنا فيه . وذلك ان كل من أوجب الحركة العلوية بالفعل ، أوجب الحركة السفلية بالانفعال . فبحسب ذلك تمزج هذه الاركان ، ويوجد منها اختلاف الشأن . ولو كان هذا العالم السفلى ثابتاً على صورة واحدة ، كالعالم العلوى الذى هو على صورة واحدة ، لكان لا خوف بين العالمين وكان لا يكون احد العالمين أولى بتحريك الآخر من العالم الآخر بتحريكه . فحينئذ كان يسقط العلوى والسفلى ، فلا يبين الفاعل من المنفعل ، ولا المؤثر من القابل ، ولا البسيط من المركب ، ولا البائد من الدائم ، ولا الصافى من المكدر ، ولا الطرى من الدائر . وهذا كلام مردول ، ليس عليه بهجة ولا نور . فبالواجب تحرك ما تحرك إلى واحد ، وسكن ما سكن بذلك الواحد ، لان هذه الفروع جارية على أصولها ، وهذه الأواخر تابعة لتلك الأوائل ، أعنى أن كل هوى مهية لصورتها الخاصة لها ، وكل صورة مهية لهيولها الخاصة لها ، فلا تعادى ولا فساد ، ولا تظالم ولا عناد ، فى هذه العناصر والجواهر ، ما دامت سالكة نحو غاياتها ، ساحبة لقوامها إلى مآلها .

قال : ومن ظن فى هذين العالمين غير ما هما عليه فهو فى وادى الوهم ، وأسر الحسبان ، أو به غلبة من مرة ، أو فساد من خلط ، أو لعل تقليد من تقدمه قد اضله وأعماه وأصمه ، لان الحكمة بارزة ، والاساس محكم ، والقدرة ظاهرة ، والمعائب منتشرة ، والنظر مستخرج ، والعقل ممجد ، والنفس بحاث ، والطبيعة منصرفة ، والأمور موروثة ، والاسرار مكتومة ، والشواهد ناطقة ، والادلة حاضرة ، والاعلام منصوبة . انظر إلى الشمس فى اشراقها ، والنار فى احراقها ، والنجوم فى اثلافها ، والبحور فى أعماقها ، والأرض فى نباتها والجبال فى انتصابها ، والادوية فى انسكابها ، وإلى الغرائب فى اضعافها واثنائها ، تعلم أن الذى هو واحد فى الحقيقة هو مالك لها ، وأولى بها ، وأقدر عليها ، وأعلن عنها . وما أحسن ما قال بعض بلغاء الحكماء ، فإنه قال : لامر ما ربطت الجواهر بالاعراض ، ولامر ما تحركت الكواكب والافلاك ، ولامر ما تباينت العقول والازمان ، ولامر ما تصرفت الليالى والأيام ، ولامر

ما وضع هذا المهاد مركزاً لهذه الاوتاد ولأمر ما لا يحجز المعاني المحرك عن تقديره أحد . صدق هذا الحكيم الفاضل . الأمر كما ترى على سنن لا حب ، ودليل إما شاهد أو غائب ، إما من جهة الحس وإما من جهة العقل . وقد بان بما تشقق القول فيه من هذه المقابلة ان المتحرك متى سلب الحركة ما حركة بقى ساكناً ، فليس يحتاج المتحرك الذى سكن فى الثانى إلى مسكن غير من سلبه الحركة التى سكن بعدها ، وليس المحرك مجبراً على التحريك فيحرك ولا يسكن ، بل هو واهب لحركة المتحرك ونازعها من الساكن ، فالمحرك هو بعينه المسكن ، والمتحرك بعينه هو الساكن . ومن كان طاهر النفس ، صافى القريحة ، صائب النظر ، قصد الجواب ، ولحظ الحق ، بدون ما التأم ها هنا من البيان ، ولم يحوج نفسه إلى شك مؤد إلى وحشة ، فالحق أنس كل عقل ، والباطل وحشة كل نفس .

المقابلة الخامسة بعد المائة

سمعت أبا سليمان يقول : لو لم يكن فى النوم من الحكمة إلا أنه شاهد على المعاد لكفى ، دع ما فيه من راحة الاعضاء ، وسكون الجرم ، واستجلاب القوة إليها بعد العياء والكدر . ولو كان النوم حالاً مصمتة ، لا شعور لصاحبها من أولها إلى آخرها ، لكانت الوحشة داخلية ، والشك قائماً ، والتهمة واقعة ، ولكنها حال يتزود الإنسان منها أموراً غريبة ، وأحوالاً عجيبة ، ويتلقف منها غيباً كثيراً ، ويستقبل منها عياناً ظاهراً ، فهل هذا الرمز إلا على ما سلف القول فيه من ثبات النفس على حال واحد لا تنام ، والنوم شبيه بالموت ، فاذن لا تموت ، لان الموت شبيه بالنوم . فالحالان جميعاً قد زلنا عنها ، وحطنا دونها .

وفاتحة هذه المقابلة مدخولة ، ولكن الشيخ كذا قال ، والاعتراض عليه مع علو رتبته فى الحكمة ، وجميل ظننا به فى الاجابة والإصابة ، ليس من حقه علينا ، ولا مما يحمد فى الحال التى تجمعننا . أعنى أنه كان الأولى أن يقول : لو لم يكن فى النوم من الحكمة إلا أنه راحة لأبداننا ، وجمام لأرواحنا ، وتخفيف عنا أثقال ما عملنا فى اليقظة بضروب التصرف وأصناف الحركة ، لكفى . دع ما فيه من الشاهد على المعاد الذى عنه نبحت مجتهدين ، وعليه نكون مضطرين ، ومن أجله نفث ما فى صدورنا متروحين .

وما أحق ، أكرمك الله ، هذه الغاية بالسعى إليها ، والتشمير لها . وذن كل موجود ومذخور دونها ، والاستعانة بكل صاحب وقريب فيها . واستخلاص الروية في تحصيل حقيقتها ، ورفض الراحة والدعة عند فرصة تلوح من ناحيتها . وبالحق وحب هذا الاجتهاد والاحتشاد ، وهذا التحفظ والتيقظ ، وهذا التنادي والتحارس . وهذا التبارى والتنافس ، وهذا الغدو والرواح ، وهذا الثبوت والسياح . لأن الإنسان في هذا العالم ، وإن بلغ المنتهى في أمانى نفسه من كل علم كالمهندسة والحاسب والنجوم والطب وسائر أجزاء الفلسفة وكذلك إن أشرف على غاية كل علم يتعلق بالأديان والآراء والمقالات والنحل ، فإن آخر مطالبه أن يعلم معاده ، ويعرف منقلبه . وكذلك أيضاً إذا بلغ في الدنيا كل حال عليّة ، وكل دولة سنية ، من المال والشرية واليسار والعزة والأمر والنهى والتأييد على أصناف البرية ، ونيل كل شهوة ولذة . وبلوغ كل إرادة وأمنية ، فإن آخر ما يقترحه أن يقف على ما يتحول إليه ، ويصير مرتهاً به ، ومفكوكاً منه . فقد صار النظر في هذه الخاصة والخالصة من أشرف ما فى قوة الإنسان ، وأعلى ما فى همته ، وأعظم فوائده . ولغلبة هذا المطلوب على جميع الخلائق حاموا حومه ، وأرادوا مراده ، ووردوا شرائعه ، وسلخوا شوارعه ، وعلوا روايه ، وخاضوا سوايه وروايه ، حتى اتفقوا على إثبات هذه الغاية لشدة حاجتهم إليها ، وتوقد حسرتهم عليها . هذا مع اختلافهم فى تحقيقها على ما ينبغي لها ، حتى هتف قوم بما ألقى على ألسنة الأنبياء . وهينم قوم بما رأوه من التناسخ فى الأدوار ، وتخافت قوم آخرون بأمور تبهرجها معوز ، والإطنا ب فى احصائها متعب . فاستخلص ، أكرمك الله ، نيتك وعزيمتك فى البحث عن هذه الغاية ، مع الرفق الذى كل من لابسه ويصير صلة إلى ما طلب منه فإن المكث تحت هذا السقف ، على هذا الظهر ، يسير ، والتنقل وشيك ، والحاجة إلى العناد ماسة ، والعائق ، مع هذا كله ، عظيم ، .

الإشارات الإلهية

أخيرا ، يقترب طرفا الدائرة ،
توشك الرحلة على الاكتمال ،
ويطلق التوحيدى زفراته الحرة فى
هذا النص الرائع الذى لا أجد له
مثيلا فى النثر العربى ، ومن أصعب
الأمور اقتطاع جزء منه ، وفصل فقرة
عن سياقها ، وأعترف اننى حرت
طويلا ، ماذا أنا صانع بهذه الذروة ؟
وأخيرا استقر أمرى على أن أرسل
إشارة تدل على الإشارات ، إشارة
تتكون من ومضتين ، الأولى تتضمن
المفتتح ، والثانية رسالة الغربية
كاملة . وآمل فى إصدار طبعة شعبية
ميسرة من هذا النص الكامل .

بسم الله الرحمن الرحيم

ميمون الابتداء مبارك الانتهاء

رسالة (١)

اللَّهُمَّ أَنَا نَسْأَلُكَ ، مَا نَسْأَلُ ، لَا عَنْ ثَقَةٍ بِيَاضٍ وَجُوهِنَا عِنْدَكَ ، وَحُسْنِ أفعالنا مَعَكَ ، وَسَوَالِفِ إِحْسَانِنَا قِبَلَكَ ؛ وَلَكِنْ عَنْ ثَقَةٍ بِكَرَمِكَ الْفَائِضِ ، وَطَمَعاً فِي رَحْمَتِكَ الْوَاسِعَةِ . نَعَمْ ، وَعَنْ تَوْحِيدٍ لَا يَشُوْبُهُ إِشْرَاكَ ، وَمَعْرِفَةٍ لَا يَخَالِطُهَا إِنْكَارٌ . وَإِنْ كَانَتْ أَعْمَارُنَا قَاصِرَةً عَنْ غَايَاتِ حَقَائِقِ التَّوْحِيدِ وَالْمَعْرِفَةِ ، فَنَسْأَلُكَ أَنْ لَا تَرُدَّ عَلَيْنَا هَذِهِ الثَّقَةَ بِكَ ، فَتُشَيِّمَ بِنَا مِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ هَذِهِ الْوَسِيلَةَ إِلَيْكَ . يَا حَافِظَ الْأَسْرَارِ ، وَيَا مُسْتَبِيلَ الْأَسْتَارِ ، وَيَا وَاهِبَ الْأَعْمَارِ ، وَيَا مَنْشِئَ الْأَخْبَارِ ، وَيَا مُوَلِّجَ اللَّيْلِ فِي النَّهَارِ ، وَيَا مُصَافِيَّ الْأَخْيَارِ ، وَيَا مُدَارِيَّ الْأَشْرَارِ ، وَيَا مُنْقِذَ الْأَبْرَارِ مِنَ النَّارِ وَالْعَارِ ! عُدَّ عَلَيْنَا بِصَفْحِكَ عَنْ زَلَّاتِنَا ، وَأَتَعِشْنَا عِنْدَ تَتَابُعِ صَرَغَاتِنَا ، وَحِطَّ (١) حَالُنَا مَعَكَ فِي اخْتِلَافِ سَكْرَاتِنَا وَضَحَوَاتِنَا . وَكُنْ لَنَا ، وَإِنْ لَمْ نَكُنْ لِنَفْسِنَا ، لَأَنْكَ أَوْلَى مِنَّا . وَإِذَا خِفْنَا مِنْكَ ، فَأَمْرِجْ خَوْفَنَا مِنْكَ بِرَجَائِنَا فِيكَ . وَإِذَا غَلَبَ عَلَيْنَا يَأْسُنَا مِنْكَ ، فَتَلَقَّهِ بِالْأَمَلِ فِيكَ . بَشِّرْنَا ، عِنْدَ تَوَجُّهِنَا نَحْوَكَ ، بِالْوَصُولِ إِلَيْكَ . مَتَّعْنَا بِالنَّظَرِ إِلَى نُورِ وَجْهِكَ . أَسْبِغْ عَلَيْنَا نِعْمَتَكَ بِمَا وَهَبْتَ لَنَا مِنْ تَوْحِيدِكَ . وَلَا تَهْجُرْنَا بَعْدَ وَصْلِكَ ، وَلَا تُبْعِدْنَا بَعْدَ قُرْبِكَ ، وَلَا تُكْرِئْنَا بَعْدَ رَوْحِكَ (٢) . قَدْ عَادَيْنَا أَعْدَاءَكَ فِيكَ ، فَلَا تُشْمِتْهُمْ بِنَا لِنَقْصِيرِنَا فِي حَقِّكَ ؛ وَوَالَيْنَا أَصْفِيَاءَكَ لَكَ ، فَلَا تُوَحِّشْنَا مِنْهُمْ لِسَهْوِنَا عَنْ وَاجِبِكَ قَدْ كَدَرْنَا (٣) لَكَ فَأَرْخُنَا بِكَ ؛ وَرَفَعْنَا أَيْدِيَنَا إِلَيْكَ فَاْمْلَأْهَا مِنْ بَرِّكَ وَلَطْفِكَ . ا هـ

إِذَا زَخَرَ بِكَ وَادِي الدَّعَاءِ فَاعْلَمْ أَنَّكَ مُرَادٌ بِالْإِجَابَةِ وَإِذَا تَابَعَ لَكَ الْمَزِيدُ فِي النِّعْمَةِ فَاعْلَمْ أَنَّكَ مُعَرَّضٌ لِلشُّكْرِ وَإِذَا اكْتَنَفَكَ الْكَرْبُ (٤) مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ ، فَاعْلَمْ أَنَّكَ مُطَالِبٌ بِالتَّصْفِيَةِ . وَإِذَا تَوَالَى عَلَيْكَ هَاتِفُ الْعِلْمِ (٥) فَاعْلَمْ أَنَّكَ مُحْتَوٌّ عَلَى الْعَمَلِ . وَإِذَا أُشْهِدَتْ غَيْبُ حَالِكَ ، فَاعْلَمْ أَنَّكَ مَخْصُوصٌ بِالْيَقِظَةِ . وَإِذَا غُيِّبَتْ عَنْ شَاهِدِ أَمْرِكَ ، فَاعْلَمْ أَنَّكَ غَيْرُ قَابِلٍ لَوَاقِعِ الْمَوْعِظَةِ ؛ وَإِذَا اسْتَوْحِشْتَ مِنْ بَقَاعِ الذِّكْرِ ، فَاعْلَمْ أَنَّكَ

(١) ص : خَطَر .

(٢) الرُّوحُ يَفْتَحُ الرِّاءَ : الرِّاحَةُ وَالذَّعِيمُ .

(٣) خَرَمَ فِي الْأَصْلِ أَعْلَنَهَا ، اكْمَلَنَاهُ مِنْ : الْمُلْخَصِ .

(٤) أَيْ : أَلْقَى غَلِيَّ مُصَابِكِ .

معزول عن الولاية . وإذا غميت عن الاعتبار بآثار النسف ، فاعلم أنك مخلى من
يَمْن الهداية . وإذا استحسن القول واستقلت العمل ، فاعلم أنك بعيد من التوفيق
والعناية اهـ .

يا هذا ! إن كنت ثاكلاً فَنَحْ عَلَى ما أُصِبت به ؛ وإن كنت مكروباً بالنسر ، فَنَحْ .
فلعلك تشفى غليلك فيه ؛ وإن كنت طالباً فَنَحْ ، فعساك تصل إلى بغيتك منه ؛ وإن
كنت واجداً فاحفظ ، فإنك غير واثق من ثبات ما ظفرت به . وتَلَطَّف . جهذك . حتى
تقف على مكنون أمرك ، فلعلك مُسْتَدْرِجٌ من حيث لا تعلم . ولعلك مرادٌ
بالخصوصية وأنت مُسْتَكْتَمٌ . زَيْن وجهك بالصورة البهية . حَسَن أترك بالنية القوية
التقية . أنت في مناط الربوبية فلا تهبط إلى قاع العبودية . صانوك فلا تَبْذُلُ (١) .
أعزوك ، فلا تَبْذُلُ . أعلوك ، فلا تَسْفُلُ . غسلوك ، فلا تتوسخ . نقوك ،
فلا تلتطخ . يَسْرُوك فلا تتعسر . قَرَّبوك ، فلا تتباعد . أَحْبَبوك ، فلا تبغض . جَدُّوا
بك ، فلا تَكْسُلُ . استخدموك ، فلا تَتَكَبَّلُ . اعتفوك ، فلا تتعبد . أقالوك ،
فلا تتعثر . دعوك ، فلا تتأخر . نسبوك ، فلا تجحد . جبروك ، فلا تنكسر .
أَنْبَتوك ، فلا تَذُو . حَسَنوك ، فلا تَقْبِحُ . حَلَّوك ، فلا تَسْمُجُ . عَلَّموك ، فلا تجهل .
نُوهوا بك ، فلا تَحْمَلُ . قَوْموك ، فلا تَضَعُفُ . لطفوك ، فلا تكثف . أَسْرُوك ،
فلا تنكشف . انتظروك ، فلا تتوقَّف . أَمَّنوك ، فلا تتخوف . قَوْمُوك ،
فلا تَتَعَقَّفُ (٢) . نَدُّوك ، فلا تَنَشَفُ .

يا هذا ! إنك إن عرفت هذه اللغة ، واستخرجت حالك من هذا الديوان ،
وَحَصَلْتَ مَالَكْ وعليك من هذا الحساب ، أوشك أن تكونَ من المجذوبين إلى
حظوظهم ، والراسخين في علمهم ، والخالدين في نعمتهم . وإن كنت عن هذه
الكنائيات غَمِيّاً ، وعن هذه الإشارات أعجمياً ، طاحت بك الطوائج ، وناحت عليك
النوائج ، ولم توجد في زُمرَةِ الغوادي والروائج . مَطَرَتْ سماءُ المحبة ، فلم تبطلْ
بقطرة من قطراتها . وهبَّت ريحُ الولاية ، فلم تَعْبُقْ بنسيم من نسائنها . وغنَّت ضماير
الحِجَم ، فلم تطرب على لحن من لحنونها . وجُلِّيت عرائس الهدى فلم تشبث بذيل

(١) تَبْذُلُ وابتذل : ترك الاحتشام والتصون .

(٢) انعَقَف الشيء وانعَقَف : تعوَّج وانعطف .

من أذبال واحدة منها . فياجافى الطبع ، ويا قاسى القلب ، وياسىء الاختيار ! كيف يطعم الطامع فى رُشدك ، وهذا نظرك لنفسك ! أشهد أنك غيبين^(١) الرأى ، مسلوب التوفيق . على أنه قد بقى من شمسك شفى^(٢) ، فإن تداركت يقينك رجوت لك أن نسلو عن فائتك ، وإن جَنَحْتَ إلى التوانى وذهبت فى آفاق الأمانى لم يَرُثْ من حالك إلا حسرة ، ولم تمضغ بقمك إلا جمره . يا هذا ! خَفَضْ أَسَى عما ساءك طُلأبه :

ما كلُّ شائِمٍ بارق يُسقاه !

قد يَسَلِّمُ المرءُ مما قد يحاذره وقد يصير إلى المكروه بالحذر وما هو كائنٌ ، وإن استَظَلْنَا إليه النُّهى^(٣) ، يوشك أن يكونا ما خَطَبُ من حُرِّمِ الإرادة وإدعاً خَطَبُ الذي حُرِّمِ الإرادة جاهدا

يا هذا ! خُذْ من التصريح ما يكون بياناً لك فى التعريض ؛ وَحَصِّلْ من التعريض ما يكون زيادة لك فى التصريح ، واستيقن أنه لا حرف ولا كلمة ، ولا بِيَمَّةَ ولا علامة ، ولا اسم ولا رسم ، ولا ألف ولا ياء ، إلّا وفى مضمونه آية تدل على سرٍ مَطْوًى وعلانية منشورة ، وقدرة بادية وحكمة مجبورة ، وإلهية لائقة وعبودية شائقة ، وخافية مشوقة وبادية معوقة . فاصرف زمانك كله فى قَلَى هذه الأنباء^(٤) واستنباط هذه الأنباء . على أن زمانك أقصر من ذاك ، أعنى أن يطول لك حتى تقف على كنه حقيقته ، على ما فى باطن ذرة من هذه القصة . وهذه الإشارة ، وإن كانت محدثة للناس فى النفس الضعيفة ، فإنها مُبَشِّرَةٌ بعظم الحال فى الغاية المنيفة . فائتَرِزْ ، حاطك الله ، بالانكماش ؛ وارْتَدِ بالجهد ، واكتمل بالسهر ، واغْرَ^(٥) بالفكر ، وَحَرِّمْ على بالك أن يَلْمَ به الهوينا والفتور . وإذا حَلَمَصَ النوم بمرادك ، فتعلّل به فى

(١) الغيبين : الضعيف الرأى .

(٢) شفى الشمس : تشفى شفى : غزبت .

(٣) استهلكت النهى : النهى فى الوصول والبلوغ ، واستهلكت أى وجدناه طويلا ، أى وجدنا الوصول إليه عزيزا . والبيت للبحترى ، وقد ورد ديوانه : « النهج » (ط ص ١٩٢ ش . طبع الاستقامة سنة ١٣٠٠ هـ)

(٤) لعلها جمع (لم يرد فى لسان العرب) ابنة ، وهى العيب . والجمع الوارد هو ابن .

(٥) غرى بالشئ يغزى وغرى به غرّ وغراء : أبلغ به من حيث لا يحمله عليه حامل .

اليقظة . وِزَنَ واتَّزَنَ ، واخضع واستكن ، وتمهل واستمكن ، وانظر واستحسن ،
وسل واستبين ، وخَفَّ واستأمن ، وَقَرَّ واطمأنن ؛ وإرجع في كل حادث فادح ، وفي
كل مغلق وفاتح ، إلى ربك ، بل كن معه وعنده حتى لا تحتاج إلى الرجوع إليه .
وإذا وردته فلا تصلر عنه ، وإذا صدّرت عنه فلا تنسه .

يا هذا ! الحديث ذو شجون ، والقلب طافح بسوء الظنون بما لعله يكون أو
لا يكون . فكّر يخالطه جهل وجنون ، ويفارقه علم ويقين . لكن بقى أن تملك زمام
الفكر كما تملك عنان الذكر ، لأن القلب هدف ، والهدف لا يزول عن تَجَاهِ الرامى
ولا ينحرف ، إلى غير جهة المسدّد . فمن لك الآن بقوة بها تدبّر فكرك ، أو تكرر
ذكرك ، أو تأمن في أضعاف مكرّك وتكرّك ! إنك ربما أعوججت في طيّ مستقيم .
واستقمت في المَعْوَج . وذلك لأنك مملوك ، والمملوك لا يكون مالكا ، والأول
لا يكون ثانياً ، والصاعد لا يكون نازلاً .

هذا ، فديتك ! نبأ غريب استنبط من الغيب المكنون ، والسّر المخزون . فإذا
كان هذا خبراً عن بعض ما تراه العين ، فأين تجدك فيما يجده القلب ! ثم أين أنت
عما وراء ذلك مما لا يبدو إلا بإذن الحق الذي أخفى الخوافى في البوادي ، وأبدى
البوادي في الخوافى ، ثم حكم بالبوادي على أنها الخوافى ، وعكس الخوافى على
أنها البوادي ، لتكون ملكوته محفوفة بالعبّرة بعد العبّرة ، وليقلب المتصفّحون عنها
بالحسرة بعد الحسرة ؟ ذلك سرٌّ لا سبيل إلى السؤال عنه ، لأنه جُرّاة عليه ، والجُرّاة
موجبة للمقت ، والمقت باب إلى السخط ، والسخط جالب للبعد . ولا سبيل أيضاً
إلى الجواب عنه ، لأنه مَحْوَ للكل ، ونطويح للعقل ، ولَبَسٌ^(١) على التحصيل
وطَمَس على الدليل ، واغتراب في الوطن ، واجتذاب للحرّ ، واختلاط للقيح في
الحسن . فسبحان من وارى منافع ما جهل من سرّه في عَرَضٍ^(٢) ما عُرِف من
علانيته ! وسبحان من لو شاء لأرانا في الذي أرانا غير ما أرانا ، وأنانا من لدنه سوى
ما أنانا ! فعلنا بذلك كنا على سكون لا تعتوره حركة ، أو على حركة لا يعتقبها^(٣)

(١) من : لبس عليه الامر : خلطه وجعله مشتبها بغيره .

(٢) عَرَض : نلحية .

(٣) يعتقبها .

سكون . فإن الحركة والسكون ، فيما كان ويكون ، قد أبليا جِدَّتْنا^(١) ، وأكلًا جِدَّتْنا ، وأضعفًا شِدَّتْنا ، وأفنيا عُدَّتْنا . فلم يبق منا إلَّا دُمَاء^(٢) ينبض في حُشاشاتٍ مضمحلة ، لا يطرُقها طارق إلا بِجِدَّتْنا غريب ، والأحوال مُرادة ، والأوقات مُباداة . فلا حسيْس^(٣) قُتِعِلُّ به ، ولا أنيس فيستراح إليه . إنما هو رنين وأنين ، وحنين وزفرات ، تُسَخِّن^(٤) العيون ، وتخيِّلُ الظنون ، وتُبْرِزُ الفنون من مَلاحِظِ العيون . فأين الأمان ، وإنا^(٥) أتينا من المأمن ! وأين المطلوب ، وإنما عطبنا في الطلب ! وكيف الطلب ، وإنا هلكنا بالوجدان ! وَمَنْ لنا بالخبر ، وقد بُؤْنَا بالأثر ! وهل لنا من مناص ، وقد أُنجِدْنَا بالنواصي ! هيهات ! اليأس مما لا ينال إحدى الراحتين ، والسَّلْوة عما لا يُدْرِك إحدى العاقبتين . بلى ! إِنْ صَدَقَ الْقَالُ وَصَحَّ الرَّجْرُ ، وصادف الإلهام حقًا ، وارتفع الخُلُقُ عن أن يكون خَلَقًا^(٦) ، فلعلَّ نسيم الأشجار يعبث بهذه الأرواح المتهتكة ، ويتميز بهذه الصفات المشتركة ، فَتَكُرَّ على خزائن الغيب بالنَّهَبِ ، وَتُوقَّحَ وجوهنا بالاعتذار ، ونخلع أرساننا^(٧) بالتملق ، ونسترد حقوقنا المغصوبة ، ونتبادر إلى أعلامنا المنصوبة ، ثم نجلس على منابر الرضوان مترملين في عِطاف أولياء الحق ، نحمد على آفاتٍ زالت طالما خُرِجَتْ الصدورُ بها ، ونقترح أمانِيَّ طالما طَمَحَتِ العيون إليها .

فإذا كان ذلك وعن قريب يكون ذلك ونشاهد ما هنالك ، فيالك من رَوْحٍ لا كرب بعده ، ويالك من صَفْوٍ لا كدر معه ، ويالك من وَضَلٍ لا هَجَرٍ يشيعه ، ويالك من قَبُولٍ لا رَدٍّ يريه ! اللهم لا تحرمنا هذه المُقَامَةَ^(٨) في دار المقام ، فإنك أنطقتنا بوصفها ، وشوقتنا إليها بذكرها . فبُحْرمة إنطالقك لنا بوصفها ، وبذمام تشويقك إيانا إياها ، إلَّا أنعمتَ بآلتنا بالقرار معك ، وأقررتَ أعيننا بالنظر إلى وجهك ، وحققت آمالنا في ذرى دار عزِّك ، وصدقتَ رجاءنا بما أسلفتنا من فضلك ، فإنك الجواد إذا

(١) الجِدَّة : بكسر الجيم : ضد البلى .

(٢) دُمَاء : بقية النَّفْس .

(٣) حسيِس : صوت خفى .

(٤) اسخَنَ الله عَيْنَهُ وبِعَيْنِهِ : أى انزل ما يبيكيه . وعكسه : اقر الله عينه .

(٥) ص : ابن .

(٦) خَلَقًا : أى فلسدا .

(٧) جمع رُشَن : حبل . أى قِوَانَا .

(٨) المقامة (بضم الميم الاولى) : الإقامة .

لم تُسأل ، فيكف إذا سُئِلْتَ ! والمنعِمُ إذا لم تُطالِب ، فكيف إذا ضُوبِت !
يا هذا ! قد اخترط الحق لساناً لا يمرُّ بصُدعٍ إلا شَغَبَهُ (١) ولا يُلِمُّ بقُنبٍ
إلا رَغَبَهُ (٢) ، ولا يُطْلُ على فاسدٍ إلا أصلحه ، ولا يقرع باباً إلا فتحه ، ولا يَبُلُّ (٣)
على نَبْتٍ إلا اعلولب (٤) ، ولا يجتاز بوادٍ إلا اعشوشب . فأصْبَحْ إليه ، وأملأ عينك
منه ، فليس في كل حينٍ تُحال عن الماء والطين ، ولا في كل زمانٍ تُخصُّ بالأمَان ،
ولا في كل بُقعةٍ تؤهل للرفعة ، ولا في كل وقتٍ تُناغى بلحنٍ مُطرب . أو تُناجى
بلسانٍ مُعرب . فالبدارُ البدار ، إلى محل الأبرار الأخيار ، الذين يجلو بصحبته
الحنظلُ الحَوْلَى (٥) ، ويخف برؤيتهم الخفوف عن هذا العالم السفلى إلى محل
ذلك العلوى . ومتى اتهمتنى (٦) في هذه النصيحة فشاوِرْ عقلك وإلا فاستصح أوثق
الناس في نفسك ، وأوضَحْهم سِمةً في الشفقة عليك . وإلا فقدَم الاستخارة لله عز
وجل ، فإنه إذا استَهْدَى هَدَى ، وإذا استَتَصَحَّ أَسَدَى ، وإذا فُزِعَ إليه كَفَلَ ، وإذا
تَوَكَّلَ عليه سَهَّلَ ، وإذا طُلب ما عنده جاد ، وإذا سئل ثانياً وثالثاً أعاد ؛ لا يؤوده (٧)
شيء ، ولا يعوزه شيء ، ولا يفوته شيء . وكيف يؤوده أو يعوزه أو يفوته وهو أول كل
شيء وآخره ، ومُبرِزه ومُظهِره ومُسِرِّه ومُضْمِرِه !
ذلك الله ربُّ العالمين .

يا هذا ! دارت اللغاتُ على مراكز المعاني بقُوَت المُذَكِّ ، وإدراك الفائت ،
بلا رسم معهود ولا أثر مشهود ولا دليل قاطع ورائد صادق ، بل طسم وقسم وحسم ؛
إن جُهل فبالواجب ، وإن عُلِم فهو العَجَب العاجب . اللهم إنا في سَكْرَةٍ من
وارداتك ، وفي حيرة من مجارى أقدارك ؛ وليتك إذ لم تُخصَّنَا بانكشاف العين ، لم
تُشعرنا التمني لما لم تُجربِه مشيئتكَ ، ولم يسبق في معلومك .
إلهنا ! قُدْنَا بزمان طاعتك إلى كريم حضرتك ، واعصمنا من كيد كل كائد لنا من

(١) شَغَبَ من باب قطع : جمع ، فرق ، أصلح ، أفسد . ضد .

(٢) رَغَبَ : كسر رُغْبَه وإزاله .

(٣) بُلُّ ، يَبُلُّ : امطر الويل وهو شديد المطر .

(٤) مأخوذة على وزن اعشوشب من غُلَب : من باب نصر : اشتد وقسا .

(٥) أى الذى بقى عاماً ، ولعله يكون شديد المرارة .

(٦) اتهمه بكذا اتهاماً : ادخل عليه التَّهْمَة (كهمزة) . أى ما يتهم عليه .

(٧) اد ، يؤود : أعيا ، أعجز .

أجلك ، وأمنحُ أسماءنا من ديوان غيرك ، واكتبنا في المُنيين^(١) إليك ، الذاكرين لك ، المفتخرين بك ، المبتهجين بقربك ، المنعمورين بعطائك ، المذكورين بحضرتك ، المتوجين بتاج صفوتك ، المخصوصين بالاطلاع على إسرارك وإعلانك ، المطمئنين على بساط خبرك وعيانك ، ياذا الجلال والإكرام !

رسالة الغربة^(٢)

سألتني - رَفَقَ اللهُ بِكَ ، وَعَظَفَ على قلبك - أن أذكر لك الغريب ومَحِنَةَ ، وَأَصِفَ لك الغُربة وعجائبها ، وأمرُ في أضعاف ذلك بأسرارٍ لطيفة ومَعَانٍ شريفة ، إما مُعْرَضًا ، وإما مُصْرَحًا ، وإما مُبْعَدًا ، وإما مُقَرَّبًا . فكنت على أن أُجيبك إلى ذلك . ثم إنني وجدت في حالي شاغلًا عنك ، وحائلاً دونك ، ومُفَرِّقًا بيني وبينك . وكيف أخْفِضُ الكلام الآن وأُرفِعَ ، وما الذي أقول وأصنع ، وبماذا أصبر ، وعلى ماذا أجزع ؟ وعلى العلات التي وصفتها والقوارف التي سترتها أقول :

إِنَّ الْغَرِيبَ بِحَيْثُ مَا حَظَّتْ رُكَايَتُهُ ذَلِيلٌ
وَيَدُ الْغَرِيبِ قَصِيرَةٌ وَلِسَانُهُ أَبْدَأُ كَلِيلٌ
وَالنَّاسُ يَنْصُرُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَنَاصِرُهُ قَلِيلٌ
وقال آخر :

وما جَزَعًا مِنْ خَشْيَةِ الْيَمِينِ أَخْضَلَتْ^(٣) دُمُوعِي ، وَلَكِنَّ الْغَرِيبَ غَرِيبٌ
يا هذا ! هذا وصفُ غريب نأى عن وطنِ بَنِي الْمَاءِ وَالطِّينِ ، وَيَتَعَدُّ عَنْ أَلْفٍ لَهُ
عَهْدُهُمُ الْخَشَوَةُ وَاللَّيْنُ ، وَلَعَلَّهُ عَاقَرَهُمُ الْكَأَسُ بَيْنَ الْغُدْرَانِ وَالرِّيَاضِ ، وَاجْتَلَى
بَعِينُهُ مَحَاسِنُ الْحَدَقِ الْمَرَاضِ ؛ ثُمَّ إِنْ كَانَ عَاقِبَةُ ذَلِكَ كُلِّهِ إِلَى الذَّهَابِ وَالْانْقِرَاضِ ،
فَإِنَّكَ أَنْتَ عَنْ قَرِيبٍ قَدْ طَالَتْ غُرْبَتُهُ فِي وَطَنِهِ ، وَقَلَّ حِظُّهُ وَنَصِيبُهُ مِنْ حَبِيبِهِ وَسَكَنِهِ ؟
وَأَيْنَ أَنْتَ عَنْ غَرِيبٍ لَا سَبِيلَ لَهُ إِلَى الْأَوْطَانِ ، وَلَا طَاقَةَ بِهِ عَلَى الْإِسْطِيطَانِ ؟ قَدْ عَلَاهُ
الشُّحُوبُ وَهُوَ فِي كَيْنَ ، وَغَلَبَهُ الْحُزْنُ حَتَّى صَارَ كَأَنَّهُ شَيْءٌ^(٤) . إِنْ نَطَقَ نَطَقَ حُزْنَانِ

(١) اتلَبَ إِلَيْهِ : رَجَعَ ، عَادَ ، التَّجَا .

(٢) عنوان الرسالة في النص الأصلي رسالة (با) . والعنوان من وضعنا .

(٣) خَضِلَ (من باب فرح) خَضَلًا ، وَأَخْضَلَ وَأَخْضُلًا وَأَخْضُوضًا : فَيَ وَابْتَل ، فَهُوَ خَضِلٌ وَخَاضِلٌ .
(٤) الشُّيْءُ (وبهاء) الغربة الخلق الصغيرة ، والجمع : شَيْئَانِ .

منقطعا ، وإن سكت سكت حيران مرتدعا ؛ وإن قرب قرب خضعا ، وإن بُعد بعد خاشعا ، وإن ظهر ظهر ذليلا ، وإن توارى توارى عليلا ؛ وإن طلب طلب واليأس غالب عليه ، وإن أمسك أمسك والبلاء قاصد إليه ؛ وإن أصبح أصبح حائل اللون من وسوس الفكر ، وإن أمسى أمسى مُتتهب السر من هوائك السُّر ؛ وإن قل قل قال هائبا ، وإن سكت سكت خائبا ؛ قد أكله الخمول ، ومضَّه الذبول ، وحالقه النحول ؛ لا يتعنى إلا على بعض بنى جنسه ، حتى يفضى إليه بكابنات نفسه ؛ ويتعلل برؤية طلعت ، ويتذكر لمشاهدته قديم لوعته ؛ فيشر الدموع على صحن خده ، طالبا للراحة من كده .

وقد قيل : الغريب مَنْ جَفَاه الحبيب . وأنا أقول : بل الغريب من واصله الحبيب ، بل الغريب من تغافل عنه الرقيب ، بل الغريب من حابه الشريب^(١) ، بل الغريب مَنْ نُودى مِنْ قريب ، بل الغريب من هوى غريته غريب ، بل الغريب من ليس له نسيب ، بل الغريب من ليس له من الحق نصيب . فإن كان هذا صحيحا ، فتعال حتى نبكى على حالٍ أحدثت هذه النفوة ، وأورثت هذه الجفوة :
لعل انحذار الدُّمْعِ يُعْقِبُ راحةً من الوجد أو يَشْفِي نَجىّ البلايل^(٢)
يا هذا ! الغريب من غرَبَتْ شمسُ جماله ، واغترب عن حبيه وعُدَّاله ، وأغرَب في أقواله وأفعاله ، وغرَب في إدباره وإقباله ، واستغرب في طمره^(٣) وسرِّباله . يا هذا ! الغريب من نطق وصفه بالمحنة بعد المحنة ، وذُلَّ عنوانه على الفتنة عُقْبَ الفتنة ، وبانت حقيقته فيه في الفينة حَدُّ الفينة . الغريب من إن حضر كان غائبا ، وإن غاب كان حاضرا . الغريب من إن رأيته لم تعرفه ، وإن لم تره لم تستعرفه . أما سمعت القائل حين قال :

يَمْ التَّعَلُّ ! لا أَهْلَ ولا زَمَنَ ولا نَدِيمَ ، ولا كَأْسَ ، ولا سَكَنَ^(٤)
هذا وصفُ رجل لحقته الغربة ، فتَمَنى أهلا يَأْنَسُ بهم ، ووطنا يَأْوِي إليه ، ونديما يَحُلُّ عُقْدَ سِرِّه معه ، وكأسا يَتَشَى منها ، وسكنا يتوَادع عنده . فأما وصف الغريب

(١) القريب : من يشارك في الشرب ، من يسقى أو يسقى معك : النديم ، ويقصد به نديم المحبوب .

(٢) هذا البيت لدى الرُّمَّة (راجع ديوانه ، نشر كارتني ص ٤٩٢ بيت رقم ٢ . كمبردج سنة ١٩١٩م/ ١٣٣٧هـ) .

(٣) الطمر : الثوب البالي : والسربال : القميص ، أو كل ما يلبس .

(٤) السكن (محرّكة) : كل ما يستأنس به .

الذى اكتشفته الأحزان من كل جانب ، واشتملت عليه الأشجان من كل حاضر وغائب ، وتحكمت فيه الأيام من كل جانب وذاهب ، واستغرقت الحسرات على كل فائت وأئيب ، وشنت الزمان والمكان بين كل ثقة ورائب ، وفى الجملة ، أتت عليه أحكام المصائب والنوائب ، وحطته بأيدي العوائب عن المراتب ، فوصف يخفى دونه القلم ، ويفنى من ورائه القرطاس ، ويشل عن بَجْشه^(١) اللفظ ، لأنه وصف الغريب الذى لا اسم له فيذكر ، ولا رسم له فيشهر ، ولا طي له فيشر ، ولا عذر له فيعذر ، ولا ذنب له فيغفر ، ولا عيب عنده فيستر . اهـ .

هذا غريب لم يتزحزح عن مسقط رأسه ، ولم يتزعزع عن مهب أنفاسه . وأغرب الغرباء من صار غريباً فى وطنه ، وأبعد البعداء من كان بعيداً فى محل قربه ، لأن غاية المجهود أن يسلم عن الموجود ، ويغمض عن المشهود ، ويقصى عن المعهود ، ليجد من يغنيه عن هذا كله بعتاء ممدود ، ورقد^(٢) مرفود ، وركن موطود^(٣) ، وحيد غير محلود .

يا هذا ! الغريب من إذا ذكر الحق هجر ، وإذا دعا إلى الحق زجر . الغريب من إذا أسند كذب ، وإذا تظاهر^(٤) عذب . الغريب من إذا امتار لم يمر^(٥) ، وإذا قعد لم يز . يا رحمتا للغريب^(٦) ! طال سفره من غير قدوم ، وطال بلاؤه من غير ذنب ، واشتد ضرره من غير تقصير ، وعظم عناؤه من غير جدوى !

الغريب من إذا قال لم يسمعوا قوله ، وإذا رآه^(٧) لم يدوروا حوله . الغريب من إذا تنفس أحرقه الأسى والأسف ، وإن كتم أكمنه الحزن واللَّهف . الغريب من إذا أقبل لم يوسع له ، وإذا أعرض لم يسئل عنه . الغريب من إذا سأل لم يعط ، وإن سكت لم يبدأ . الغريب من إذا عطس لم يشمت^(٨) ، وإن مرض لم يتفق . الغريب

(١) وشل يشل : قل وضعف واقتقر : ومنه الوشل . الماء القليل . واليجس . تفجر الماء ، ومنه . عين بجيس : غزيرة .

(٢) أى : عطاء مغطى .

(٣) وطيد ، ثابت .

(٤) تنزه عن الأدناس . أو أصلها : تظاهر (بالظاء المعجمة) ؟

(٥) مار عياله بعير ميراً وأمارهم وأمارلهم : جلب لهم الطعام .

(٦) يا رحمتنا للغريب بالبلد الخارج ماذا بنفسه صنعاً !

(٧) من : رواء .

(٨) التشميم والتسميت : الدعاء للعاطس .

من إن زار أغلق دونه الباب ، وإن استأذن لم يُرفع له الحجاب اهـ .
 الغريب مَنْ إذا نادى لم يُجب ، وإن هادى لم يُحب . اللهم إنا قد أصبحنا غرباء
 بين خلقك ، فآنسنا في فنائك . اللهم وأمسينا مهجورين عندهم ، فصلنا
 بحبائك^(١) . اللهم إنهم عادونا من أجلك لأننا ذكرناك لهم فنفروا ، ودعوناهم إليك
 فاستكبروا ، وأوعدناهم بعذابك فتحيروا ، ووعدناهم بثوابك فتجبروا ، وتعرفنا بك
 إليهم فتتكروا ، وصُنَّاك عنهم فتتمروا ؛ وقد كُنَّا^(٢) عن نذيرهم ، ویشنا من
 توقيهم .

اللَّهُمَّ إنا قد حاربناهم فيك ، وسالمناهم لك ، وحكمتنا لهم عنهم لوجهك .
 وصبرنا على أذاهم من أجلك ؛ فخذ لنا بحقنا منهم ، وإلا فاصرف قلوبنا عنهم ؛
 وأنسنا حديثهم ، واكفنا طيبهم وخبيثهم .

أيها السائل عن الغريب ومحتته ! إلى ههنا بلغ وصفى في هذه الورقات . فإن
 استزدت زدت ، وإن اكتفيت اكتفيت ، والله أسأل لك تسديداً في المبالغة ، ولي
 تأييداً في الجواب ، لتتلاقى على نعمته ، ناطقين بحكمته ، سابقين إلى كلمته .
 يا هذا ! الغريب في الجملة من كله حُرقة ، وبعضه فُرقة ، وليله أَسَف ، ونهاره
 لهف ، وغداؤه حَزَن ، وعشاؤه شَجَن ، وآراؤه^(٣) ظَن ، وجميعه فِتَن ، ومفرقه
 مَجَن ، وسره عَلَن ، وخوفه وَطَن .

الغريب من إذا دعا لم يُجب ، وإذا هاب لم يُهب .
 الغريب مَنْ « إذا » استوحش استوحش منه ؛ استوحش لأنه يرى ثوب الأمانة
 ممزقاً ، واستوحش منه لأنه يجد لما بقلبه من الغليل مُحرقاً .
 الغريب مَنْ فَجَعته مُحَكِّمة ، ولوعته مُضَرِّمة .

الغريب من لُبسته خِرقة ؛ وأكلته سَلْقة ، وهَجَعته خَفْقة .
 دع هذا كله ! الغريب من أخبر عن الله بأنباء الغيب داعياً إليه . بل الغريب من
 تهالك في ذكر الله متوكلاً عليه ، بل الغريب من توجه إلى الله قالياً لكل من سواه . بل
 الغريب من وهب نفسه لله متعرضاً لجدواه .

(١) الحياء (بكسر الحاء) العطية : مهر المرأة .
 (٢) جَفَت عنه الكيع واتكاع ، كُنِعاً وجميعوعة : إذا هبته وجَبِنَتْ عنه ، فهو : كانع . وهم : كاعة .

(٣) ص : ورواه . وظنن جمع ظَنِّه بالكسر : نُهْمَة . لو : وراؤه : جمع رؤية .

يا هذا ! أنت الغريب فى معنك .

أيها السائل عن الغريب ! اعمل واحدة ولا أقل منها ، وإذا أردت ذكّر الحق فأنسَ ما سواه ، وإذا أردت قُرْبَه فابعد عن كل ما عداه ، وإذا أردت المكانة عنده فذغ ما تهواه لما تراه ، وإذا أردت الدُّعاء إليه فَمَيِّزْ مالك مما عليك فى دعواه . طاعتك كلها مدخولة ، فلذلك ما هى ليست مقبولة . هممك كلها فاسدة ، فلذلك ليست هى صاعدة . أعمالك كلها زائفة ، فلذلك ليست نافعة . أحوالك كلها مكروهة ، فلذلك ليست هى مرفوعة . وملك ! إلى متى تتخدع ، وعندك أنك خادع ؟ وإلى متى تظن أنك رابح ، وأنت خاسر ؟ وإلى متى تدعى ، وأنت منقَى ؟ وإلى متى تحتاج ، وأنت مكفى ؟ وإلى متى تبدى القلق ، وأنت غنى ؟ وإلى متى تهبط ، وأنت على ؟ ما أعجب أمر تراه بعينك ، ألهاك عن أمر لا تراه بعقلك . الحمار أيضاً يرى بعينه ولا يرى بغيرها . أفأنت كالحمار فتعذر ؟ فإن لم تكن حماراً ، فلم تشبه به ؟ وإن كنت ، فلم تدعى فضلاً عليه ؟ وإذا لم تكن حماراً بظاهر خَلْقِكَ وصِبْغَتِكَ ، فلا تَكُنْهُ أيضاً بباطن نيتك وجَلْبَتِكَ . قد والله فَسَدَتْ فساداً لا أرجوك معه لفلاح ، ولذلك ما أدرى بآى لسان أحاورك ، وبآى خُلُقٍ أجاورك ، وفى أى حقيقةٍ أشاورك ، وبآى شىء أداورك ؟ سُركُ كُفران ، ولفظك بُهتان ، وسرُورك طغيان ، وحزنك عصيان ، وغناك مرح ويطر ، وفقرك ترح وضجر ، وشبَعُكَ كُظَّةٌ^(١) وتُخمة ، وجُوعك قنوط وتُهمه ، وغزوك رياء وسُمعة ، وحجُجك حيلة وخُدعة ، وأحوالك كلها بَهْرَجَ وزَيْفَ ، وأنت لا تحاسب نفسك عليها : هَلُمَّ ، ولا : يَلُمَّ وكيف اهـ .

ما أسعد من كان فى صدره ودیعة الله بالإيمان فحفظها حتى لا يسلبها منه أحد !
أتدرى ما هذه الودیعة ؟

هى والله ودیعة رفيعة هى التى سبقت لك منه وأنت بَدَدَ^(٢) فى التراب لم تجمعك بَعْدُ الصورة ، ولم يقع عليك اسم ، ولم تُعرَفْ لك عَينٌ ، ولم يَدُلَّ عليك خبر ، ولا يحويك^(٣) مكان ، ولم يَصِفِكَ عيان ، ولم يُحِطْكَ بيان ، ولم يأت عليك أوان . أنت فى ملكوت غيب الله ثابتٌ فى علم الله ، عَطُلٌ^(٤) من كل شىء إلا من مشیة

(١) الكظة (بالكسر) : البطنة .

(٢) أى متفرق .

(٣) من : يحوى .

(٤) عطل (بضمسين) متجرد ، عار عن .

الله . تُرَشِّحْ لمعرفته ، وتُلحِظْ فى صفوته ، وتُؤَهِّلْ لدعوته . فما أَسْعَدَكَ أيُّها العبد ! فهذه العناية القديمة من ربك الكريم الذى نظر لك قبل أن تنظر لنفسك ، وأيدك بما لم تهتد إليه همتك ، حتى إذا نَشَرَ مَطْوِيَّكَ وَرَتَّقَ مُفْتَقَّكَ ، وجمع مَفْتَرَقَكَ ، وَقَوِّمَ مُنَادَكَ^(١) ، وَسَوَّى مُعْوَجَّكَ وفتح عينك ، وطرح شعاعها على ملكوته التى جعلها قُبَاةَ بَصْرِكَ ، وَعَرَّفَكَ نَفْسَكَ ، ودعاكَ بِاسْمِكَ ، وشهرك بِحِكْمَتِهِ فَيْكَ ، وأظهر قُدْرَتَهُ عَلَيْكَ ، وَعَجَّبَكَ وَعَجَّبَ غَيْرَكَ مِنْكَ ، ولاطفكَ ولطف لك ، وَبَيَّنَّ لَكَ مَكَانَتَكَ إِذَا أَطَعْتَ ، ومهانتَكَ إِذَا عَصَيْتَ . وثَبَّتْ عَلَى شَهَوَاتِكَ فتناولتها ، وعلى لَذَائِكَ فأنهمكت فيها ، وعلى معاصيك (لمن هذا حديثه معك) فركبت سنامها ، ولم تفكر فيما خلفها وأمامها . ولما قيل لك : أَتَى اللَّهَ ! أَخَذَتْكَ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ ، وَبُؤَتْ فِيمَا فَيْكَ مِنْ نَعَمِ اللَّهِ عَلَيْكَ تَهَرُّ^(٢) عَلَى نَاصِحِكَ ، وَتَهَزُّ بِالْمَشْفِقِ عَلَيْكَ ، وَتُحَاجُّهُ بِالْجَهَالَةِ ، وَتَقَابِلُهُ بِالْكِبْرِيَاءِ وَالْمَخِيلَةِ^(٣) . إِنَّكَ عِنْدَى لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ، بَلْ مِنْ الْمَجْرُمِينَ ، بَلْ مِنَ الظَّالِمِينَ ، بَلْ مِنَ الْفَاسِقِينَ ، بَلْ مِنْ مَن قَدْ تَعَرَّضَ لِأَنْ يَسْلُبَهُ اللَّهُ مَا أَعْطَاهُ ، وَيَجْعَلَ النَّارَ مَأْوَاهُ ، حَتَّى يَصِيرَ عِبْرَةً لِمَنْ وَرَاهُ^(٤) . اهـ .

يا هذا ! أَحَجَرُ أَنْتَ ؟ فما أَقْسَى قَلْبِكَ ! وما أَذْهَبَكَ فِيمَا يَغْضِبُ عَلَيْكَ رَبُّكَ ! أَيْبِنِكَ وَبَيْنَ نَفْسِكَ يَرَّةً^(٥) ؟ أو كَيْدَ ؟ هل يَفْعَلُ الْإِنْسَانُ الْعَاقِلُ بَعْدُوهُ مَا تَفْعَلُهُ أَنْتَ بِرُوحِكَ ؟ لا يَنْفَعُكَ وَعِظٌ وَإِنْ كَانَ شَافِئاً ، ولا يَنْجَعُ فَيْكَ نُصْحٌ^(٦) . وَإِنْ كَانَ كَافِئاً ! اللهم تفضل علينا بعفوك إن لم نستحق رضاك .
ياذا الجلال والإكرام .

(١) المنادى : المعوج .

(٢) هز القلب : تبيح وكثر عن انبغابه .

(٣) الكبرياء .

(٤) أى وراءه ، يقبع سيرته .

(٥) يَرَّة : ثار .

(٦) نصحاً .

لماذا أحرقت كتيبي

كان أبو حيان التوحيدي قد أحرق
في أزمة غضبية كتبه « لقلّة جدواها ،
وضنا بها على من لا يعرف قدرها
بعد موته » على حد قوله ، فكتب إليه
القاضي أبو سهل على بن محمد
يلومه على فعلته فأجابه أبو حيان
برسالة عاطفية مُسَوِّغاً فيها إقدامه
على حرق كتبه .

اعتمدنا على الطبعة الصادرة في
دمشق بتحقيق د. إبراهيم الكيلاني .

نص الرسالة بسم الله الرحمن الرحيم

(. . خَرَسَكَ اللهُ أَيُّهَا الشَّيْخُ مِنْ سُوءِ ظَنِّي بِمُودَتِكَ ، وَطُولِ جَفَائِكَ ، وَأَعَاذَنِي مِنْ مَكَافَأَتِكَ عَلَى ذَلِكَ ، وَأَجَارَنَا جَمِيعاً مِمَّا يُسَوِّدُ وَجْهَ عَهْدٍ إِنْ رَعَيْنَاهُ كُنَّا مُسْتَأْنِسِينَ بِهِ ، وَإِنْ أَهْمَلْنَاهُ كُنَّا مُسْتَوْحِشِينَ مِنْ أَجَلِهِ ، وَأَدَامَ اللهُ نِعْمَتَهُ عِنْدَكَ ، وَجَعَلَنِي عَلَى الْحَالَاتِ كُلِّهَا فِدَاكَ .

وإفانني كتابك غَيْرَ مُحْتَسِبٍ وَلَا مُتَوَقِّعٍ ، عَلَى ظَمَأِ بَرَحٍ بِي إِلَيْهِ ، وَشَكَرْتُ اللهُ تَعَالَى عَلَى النِّعْمَةِ بِهِ عَلَيَّ ، وَسَأَلْتُهُ الْمَزِيدَ مِنْ أَمْثَالِهِ ، الَّذِي وَصَفْتُ فِيهِ بَعْدَ ذِكْرِ الشُّوقِ إِلَيَّ ، وَالصَّبَابَةِ نَحْوِي مَا نَالَ قَلْبِكَ ، وَالتَّهَبُّ فِي صَدْرِكَ مِنَ الْخَبَرِ الَّذِي نَمَى إِلَيْكَ فِيمَا كَانَ مِنِّي مِنْ إِحْرَاقِ كَتَبِي النَّفِيسَةِ بِالنَّازِ وَغَسَلِهَا بِالمَاءِ ، فَعَجْتُ مِنْ انْزَوَاءِ وَجْهِ الْعُذْرَتِكَ فِي ذَلِكَ ، كَأَنَّكَ لَمْ تَقْرَأْ قَوْلَهُ جَلَّ وَعَزَّ : (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ^(١)) وَكَأَنَّكَ لَمْ تَأْتِ^(٢) لِقَوْلِهِ تَعَالَى : (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ^(٣)) وَكَأَنَّكَ لَمْ تَعْلَمْ أَنَّهُ لَا ثَبَاتَ لَشَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِنْ كَانَ شَرِيفَ الْجَوْهَرِ ، كَرِيمَ الْعَنْصَرِ ، مَادَامَ مُقَلِّباً بَيْنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، مَعْرُوضاً عَلَى أَحْدَاثِ الدَّهْرِ وَتَعَاوُدِ الْأَيَّامِ : ثُمَّ إِنِّي أَقُولُ ، إِنْ كَانَ - اِيْذَكَ اللهُ - قَدْ نَقَبَ خُفَّكَ مَا سَمِعْتُ ، فَقَدْ أَدْمَى أَظْلَى^(٤) مَا فَعَلْتُ ، فَلَيْهُنَّ عَلَيْكَ ذَلِكَ ، فَمَا انْبَرَيْتُ لَهُ ، وَلَا أَجْتَرَأْتُ عَلَيْهِ حَتَّى اسْتَخَرْتُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ أَيَّاماً وَلِيَالِي حَتَّى أَوْحَى إِلَيَّ فِي الْمَنَامِ بِمَا بَعَثَ رَاقِدَ الْعَزْمِ ، وَاجِدَ فَاتَرَ النِّيَّةِ ، وَأَحْيَا مِيتَ الرَّأْيِ ، وَحَثَّ عَلَى تَنْفِيزِ مَا وَقَعَ فِي الرُّوْعِ ، وَتَرْبِيعِ فِي الْخَاطِرِ ؛ وَأَنَا أَجُودُ عَلَيْكَ الْآنَ بِالْحُجَّةِ فِي ذَلِكَ إِنْ طَالَبْتَ ، أَوْ بِالْعُذْرِ إِنْ اسْتَوْضَحْتَ . لِيَتَّقَ بِي فِيمَا كَانَ مِنِّي ؛ وَتَعْرِفَ صُنْعَ اللهِ تَعَالَى فِي ثَنِيهِ لِي .

إِنَّ الْعِلْمَ - حَاطَكَ اللهُ - يُرَادُّ لِلْعَمَلِ ، كَمَا أَنَّ الْعَمَلَ يُرَادُّ لِلنَّجَاةِ ؛ فَإِذَا كَانَ الْعَمَلُ قَاصِراً عَنِ الْعِلْمِ ، كَانَ الْعِلْمُ كَلّاً عَلَى الْعَالَمِ ، وَأَنَا أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ عِلْمٍ عَادَ كَلّاً ، وَأَوْرَثَ ذُلّاً ، وَصَارَ فِي رَقَبَةٍ صَاحِبِهِ غُلّاً .

(١) القرآن الكريم : ٢٨ - ٨٨ سورة القصص .

(٢) تابه : تكفرت .

(٣) القرآن الكريم : ٥٥ - ٢٦ سورة الرحمن .

(٤) الاقل : باطن الاصبع .

ثم أعلم - عَلمَكَ اللهُ الخَيْر - أنَّ هذه الكُتُبُ حَوَتْ مِنْ أَصْنَافِ الْعِلْمِ ، سِرَّهُ
وَعَلَانِيَتَهُ ، فَأَمَّا مَا كَانَ سِرًّا فَلَمْ أَجِدْ لَهُ مَنْ يَتَحَلَّى بِحَقِيقَتِهِ رَاجِعًا ، وَأَمَّا مَا كَانَ غَلَابِيَّةً
فَلَمْ أَصِبْ مَنْ يَحْرُسُ عَلَيْهِ طَالِبًا ، عَلَى أَنِّي جَمَعْتُ أَكْثَرَهَا لِلنَّاسِ ، وَلَطَلَبِ الْمَثَالَةِ
مِنْهُمْ ، وَلَعَقْدِ الرِّيَاسَةِ بَيْنَهُمْ وَلِمَدِّ الْجَاهِ عِنْدَهُمْ ، فَحَرَمْتُ ذَلِكَ كُلَّهُ ، وَلَاشَكَّ فِي
حُسْنِ مَا اخْتَارَهُ اللهُ لِي ، وَنَاطَهُ بِنَاصِيَتِي ، وَرَبَطَهُ بِأَمْرِي ، وَكَرِهْتُ مَعَ هَذَا وَغَيْرِهِ أَنْ
تَكُونَ حِجَّةً عَلَيَّ لَا لِي .

وَمِمَّا شَحَذَ الْعَزَمَ عَلَى ذَلِكَ ، وَرَفَعَ الْحِجَابَ عَنْهُ أَنِّي فَقَدْتُ وَلَدًا نَجِيًّا ، وَصَدِيقًا
حَبِيبًا ، وَصَاحِبًا قَرِيبًا وَتَابِعًا أَدِيبًا ، وَرَئِيسًا مُنِيبًا فَشَقَّ عَلَيَّ أَنْ أَدْعَهَا لِقَوْمٍ يَتَلَاعَبُونَ
بِهَا ، وَيُدْنَسُونَ عِرْضِي إِذَا نَظَرُوا فِيهَا ، وَيَسْتَمْتُونَ بِسَهْوٍ وَغِلْطَى إِذَا تَصَفَّحُوهَا ،
وَيَتَرَاءَوْنَ نَقْصِي وَعَيْبِي مِنْ أَجْلِهَا .

فَإِنْ قُلْتَ : وَلِمَ تَسْمُهُمْ بِسُوءِ الظَّنِّ ، وَتُقَرِّعُ جَمَاعَتَهُمْ بِهَذَا الْعِيبِ ؟ فَجَوَابِي لَكَ أَنْ
عِيَانِي مِنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ هُوَ الَّذِي يُحَقِّقُ ظَنِّي بِهِمْ بَعْدَ الْمَمَاتِ ، وَكَيْفَ أَتْرَكُهَا لِأَنَاسٍ
جَاوَرَتْهُمْ عَشْرِينَ سَنَةً فَمَا صَحَّ مِنْ أَحَدِهِمْ وَدَادُ ؟ وَلَا ظَهَرَ لِي مِنْ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ
جِفَاطٌ ، وَلَقَدْ أَضْطَرَرْتُ بَيْنَهُمْ بَعْدَ الشُّهُرَةِ وَالْمَعْرِفَةِ فِي أَوْقَاتٍ كَثِيرَةٍ إِلَى أَكْلِ الْخُضْرِ
فِي الصُّخَرَاءِ وَإِلَى التَّكْفِيفِ الْفَاضِحِ عِنْدَ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَةِ ، وَإِلَى بَيْعِ الدِّينِ وَالْمُرُوءَةِ ،
وَإِلَى تَعَاطِي الرِّيَاءِ بِالسُّمْعَةِ وَالتَّفَاقُ ، وَإِلَى مَالٍ لَا يَحْسُنُ بِالْحُرِّ أَنْ يَرْسِمَهُ بِالْقَلَمِ ،
وَيَطْرَحَ فِي قَلْبِ صَاحِبِهِ الْأَلَمَ ، وَأَحْوَالِ الزَّمَانِ بَادِيَةً لِعَيْنِكَ ، بَارِزَةً بَيْنَ مَسَائِكَ
وَصَبَاحِكَ ، وَلَيْسَ مَا قُلْتُهُ بِخَافٍ عَلَيْكَ ، مَعَ مَعْرِفَتِكَ وَفُطْنَتِكَ وَشِدَّةِ تَتَبُعِكَ
وَتَفَرُّغِكَ ، وَمَا كَانَ يَجِبُ أَنْ تَرْتَابَ فِي صَوَابِ مَا فَعَلْتُهُ وَأَتَيْتُهُ بِمَا قُلْتُهُ وَوَصَفْتُهُ ،
وَبِمَا أَمْسَكْتُ عَنْهُ وَطَوَيْتُهُ ، إِمَّا هَرَبًا مِنَ التَّطْوِيلِ ، وَأَمَّا خَوْفًا مِنَ الْقَالِ وَالْقِيلِ ، وَبَعْدُ
فَقَدْ أَصْبَحْتُ هَامَةً الْيَوْمَ أَوْغِدُ ، فَانِي فِي عَشْرِ التَّسْعِينَ ، وَهَلْ لِي بَعْدَ الْكِبَرَةِ وَالْعَجْزِ
أَمَلٌ فِي حَيَاةٍ لَذِيذَةٍ ؟ أَوْ رَجَاءٌ لِحَالٍ جَدِيدَةٍ ؟ أَلَسْتُ مِنْ زُمْرَةِ مَنْ قَالَ الْقَائِلُ فِيهِمْ :
نَرُوحُ وَنَخْدُو كُلُّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ وَعَمَّا قَلِيلٍ لَا نَرُوحُ وَلَا نَخْدُو

وَكَمَا قَالَ الْآخَرُ :

تَفَوُّتُ دَرَاتِ الصُّبَا فِي ظِلَالِهِ إِلَى أَنْ أَتَانِي بِالْغُطَامِ مَشِيبٌ
وَهَذَا الْبَيْتُ لَلرُّودِ الْجَعْدِيِّ وَتَمَامُهُ يَضِيقُ عَنْهُ هَذَا الْمَكَانُ ، وَاللهُ يَا سَيِّدِي لَوْ لَمْ

أَتَعْظُ إِلَّا بِمَنْ فَقَدْتُهُ مِنَ الْإِخْوَانِ وَالْأَخْدَانِ فِي هَذَا الصُّقْعِ مِنَ الْغُرَبَاءِ وَالْأَدْبَاءِ وَالْأَحْبَاءِ
لَكَفَى ، فَكَفَيْتَ بِمَنْ كَانَتْ الْعَيْنُ تَقْرَأُ بِهِمْ ، وَالنَّفْسُ ، تَسْتَنِيرُ بِقُرْبِهِمْ فَقَدْتَهُمْ بِالْعِرَاقِ
وَالْحِجَازِ وَالْجَبَلِ وَالرَّيِّ ، وَمَا وَالِي هَذِهِ الْمَوَاضِعِ ، وَتَوَاتَرَ إِلَى نَعْيِهِمْ ، وَاسْتَدَّتْ
الْوَاعِيَةُ بِهِمْ فَهَلْ أَنَا إِلَّا مِنْ غُنْصَرِهِمْ ؟ وَهَلْ لِي مَحِيدٌ عَنْ مَصِيرِهِمْ ؟ أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى
رَبُّ الْأَوَّلِينَ أَنْ يَجْعَلَ اعْتِرَافِي بِمَا أَعْرِفُهُ مَوْصُولًا بِتَرْوَعِي عَمَّا أَقْتَرُهُ ، إِنَّهُ قَرِيبٌ
مُجِيبٌ .

وَبَعْدُ ، فَلِي فِي احْرَاقِ هَذِهِ الْكُتُبِ أَسْوَةٌ بَاطِلَةٌ يُقْتَدَى بِهِمْ ، وَيُؤْخَذُ بِهَيْدِهِمْ ،
وَيُعْشَى إِلَى نَارِهِمْ ، مِنْهُمْ : أَبُو عَمْرِو بْنِ الْعَلَاءِ^(١) ، وَكَانَ مِنْ كِبَارِ الْعُلَمَاءِ مَعَ زَهْدٍ
ظَاهِرٍ وَوَرَعٍ مَعْرُوفٍ ، ذَفَنَ كِتَابَهُ فِي بَطْنِ الْأَرْضِ فَلَمْ يَوْجَدْ لَهَا أَثَرٌ . وَهَذَا دَاوُدُ
الطَّائِي^(٢) وَكَانَ مِنْ خِيَارِ عِبَادِ اللَّهِ زُهْدًا وَفَقْهًا وَعِبَادَةً ، وَيُقَالُ لَهُ نَاجُ الْأُمَةِ ، طَرَحَ كِتَابَهُ
فِي الْبَحْرِ وَقَالَ يُنَاجِيهَا : نَعَمْ الدَّلِيلُ كُتِبَ ، وَالْوَقُوفُ مَعَ الدَّلِيلِ بَعْدَ الْوُصُولِ عَنَاءٌ
وَذُهُولٌ ، وَبِلَاءٌ وَخُمُولٌ .

وَهَذَا يُوسُفُ بْنُ أَسْبَاطٍ^(٣) : حَمَلَ كِتَابَهُ إِلَى غَارٍ فِي جَبَلٍ وَطَرَحَهُ فِيهِ وَسَدَّ بَابَهُ ،
فَلَمَّا عُوتِبَ عَلَى ذَلِكَ قَالَ : دَلَّنَا الْعِلْمُ فِي الْأَوَّلِ ثُمَّ كَادَ يُضِلُّنَا فِي الثَّانِي ، فَهَجَرْنَاهُ
لُوجُهُ مِنْ وَضَلْنَاهُ ، وَكِرِهْنَاهُ مِنْ أَجْلِ مَا أَرَدْنَاهُ .

وَهَذَا أَبُو سُلَيْمَانَ الدَّارَانِي^(٤) : جَمَعَ كِتَابَهُ فِي ثَنُورٍ وَسَجَرَهَا بِالنَّارِ ثُمَّ قَالَ : وَاللَّهِ
مَا أَحْرَقْتُكَ حَتَّى كِدْتُ أَحْتَرِقُ بِكَ ! وَهَذَا سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ مَرَّقَ أَلْفَ جُزْءٍ وَطَيَّرَهَا فِي

(١) أَبُو عَمْرٍو زَيْنُ بْنُ عَمَّارٍ التَّمِيمِيُّ الْمَازَنِيُّ الْبَصْرِيُّ أَحَدُ أَثَمَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَاحِدِ الْقُرَاءِ السَّبْعَةِ قَالَ ابْنُ خُلَّكَانَ :
كَانَ أَعْلَمَ النَّاسِ بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَالْعَرَبِيَّةِ وَالشَّعْرِ ، وَهُوَ فِي الطَّبَقَةِ الرَّابِعَةِ مِنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، وَقَالَ
الزَّيْبِيدِيُّ : كَانَ أَوْسَعَ عِلْمًا بِكَلَامِ الْعَرَبِ وَلِقَائِهَا وَغَرِيبِهَا مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي اسْحَاقَ . وَكَانَ مِنْ جِلَّةِ الْقُرَاءِ
وَالْمَوْلُوثِ بِهِمْ ، وَفِيهِ قَالَ الْفَرَزْدَقُ مَادِحًا :

مَازَلْتُ أَغْلِقُ أَبْوَابًا وَافْتَحْتُهَا حَتَّى أَتَيْتُ أَبَا عَمْرٍو بِنِ عَمَّارٍ
وَقَالَ صَاحِبُ الْوَفِيَّاتِ : قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ : كَانَ أَبُو عَمْرٍو أَعْلَمَ النَّاسِ بِالْقُرْآنِ وَالْعَرَبِيَّةِ وَأَيَّامِ الْعَرَبِ ، وَكَانَ
دِفَاتِرُهُ مَلَأَ بَيْتَ إِلَى السَّقْفِ ثُمَّ تَنَسَّكَ فَاحْرَقَهَا ، تَوَفَّى أَبُو عَمْرٍو سَنَةَ ١٥٤ هـ . أَوْ ٥٧ هـ . أَوْ ٥٩ هـ .

(٢) أَبُو سُلَيْمَانَ دَاوُدُ بْنُ نَصِيرٍ الطَّائِي الْكُوفِيُّ صُوفِيٌّ ، شَغَلَ نَفْسَهُ بِالْعِلْمِ وَدَرَسَ الْفَقْهَ ثُمَّ اخْتَارَ الْعَزَلَةَ
وَالْإِنْقِرَادَ وَالْخُلُوتَ وَالْعِبَادَةَ وَاجْتَهَدَ فِيهَا إِلَى آخِرِ عَمْرِهِ ، قَدِمَ فِي أَيْلَمِ الْمَهْدِيِّ ثُمَّ عَادَ إِلَى الْكُوفَةِ وَبِهَا كَلَفَتْ
وَفَاتَهُ سَنَةَ ١٦٠ هـ . وَكَانَ مُحَارِبٌ بَيْنَ ثَمَّارٍ يَقُولُ : « لَوْ كُنَّا دَاوُدَ فِي الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ لَقَصَّ اللَّهُ تَعَالَى شَيْئًا مِنْ
خَيْرِهِ » .

(٣) يُوسُفُ بْنُ أَسْبَاطٍ الشَّيْبَانِيُّ أَحَدُ الزَّهَادِ الْوَاغِظِينَ قَالَ الْبُخَارِيُّ : « كَانَ قَدْ ذَفَنَ كِتَابَهُ ، فَكَانَ لَا يَجِيءُ بِحَدِيثِهِ
كَمَا يَنْبَغِي » .

(٤) أَبُو سُلَيْمَانَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ عَطِيَّةِ الْعَنْسِيُّ الدَّارَانِيُّ الزَّاهِدُ الْمَشْهُورُ مِنْ أَهْلِ دَارِيَا أَحَدِي قُرَى
دِمَشْقَ ، كَانَ مَتَصُوفًا ، مِنْ جِلَّةِ السُّلَدَاتِ وَأَرْيَابِ الْجَدِّ فِي الْمَجَاهِدَاتِ ، تَوَفَّى سَنَةَ ٢١٥ هـ .

الريح وقال :

لَيْتَ يَدِي قُطِعَتْ مِنْ هَاهُنَا ، بَلْ مِنْ هَاهُنَا وَلَمْ أَكْتُبْ حَرْفًا !

وهذا شيخنا أبو سعيد السيرافي^(١) . سَيِّدُ الْعُلَمَاءِ قَالَ لَوْلَدَهُ مُحَمَّدٌ : قَدْ تَرَكْتُ لَكَ هَذِهِ الْكُتُبَ تَكْسِبُ بِهَا خَيْرَ الْأَجَلِ ، فَإِذَا رَأَيْتَهَا تَخَوَّنَكَ فَاجْعَلْهَا طُعْمَةً لِلنَّارِ ، وَمَاذَا أَقُولُ وَسَامِعِي يُصَدِّقُ أَنَّ زَمَانًا أُخْرِجَ مِثْلِي إِلَى مَا بَلَغَكَ ، لَزَمَانَ تَدْمَعُ لَهُ الْعَيْنُ حَزَنًا وَأَسَى ، وَيَقْطَعُ عَلَيْهِ الْقَلْبُ غَيْظًا وَجَوَى ، وَضَنَى وَشَجَى ، وَمَا يَصْنَعُ بِمَا كَانَ وَحَدَّثَ وَبَانَ ، إِنْ احْتِجَّتْ إِلَى الْعِلْمِ فِي خَاصَّةِ نَفْسِي فَقَلِيلٌ ، وَاللَّهِ تَعَالَى شَافٍ كَافٍ ، وَإِنْ احْتِجَّتْ إِلَيْهِ لِلنَّاسِ فَفِي الصَّدْرِ مِنْهُ مَا يَمَلَأُ الْقِرْطَاسَ بَعْدَ الْقِرْطَاسِ ؛ إِلَى أَنْ تَقْنَى الْأَنْفَاسُ بَعْدَ الْأَنْفَاسِ (ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)^(٢) فَلِمَ تُعْنَى عَيْنِي - أَيْدِكَ اللَّهُ - بَعْدَ هَذَا بِالْجَبْرِ وَالْوَرَقِ وَالْجِلْدِ وَالْقِرَاءَةِ وَالْمُقَابَلَةِ وَالتَّصْحِيحِ ، وَبِالسَّوَادِ وَالْبَيَاضِ ، وَهَلْ أَدْرَكَ السَّلْفُ النَّصَالِحَ فِي الدِّينِ الدَّرَجَاتِ الْعُلَى إِلَّا بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ ، وَإِخْلَاصِ الْمُعْتَقَدِ ، وَالزُّهْدِ الْغَالِبِ فِي كُلِّ مَارَاقٍ مِنَ الدُّنْيَا وَخَدَعٍ بِالزُّبُرِجِ^(٣) وَهَوَى بِصَاحِبِهِ إِلَى الْهُبُوطِ ؟ وَهَلْ وَصَلَ الْحُكَمَاءُ الْقَدَمَاءُ إِلَى السَّعَادَةِ الْعَظْمَى إِلَّا بِالْاِقْتِصَادِ فِي السَّعَى ، وَالْإِثْرَ بِالرِّضَا بِالْمَيْسُورِ ، وَإِلَّا بَيِّدَ مَا فَضَّلَ عَنْ الْحَاجَةِ لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ؟ فَأَيُّنَ يُذْهَبُ بِنَا وَعَلَى أَيِّ بَابٍ نَحْطُ رِحَالَنَا ؟ وَهَلْ جَامِعُ الْكُتُبِ إِلَّا كَجَامِعِ الْفُضَّةِ وَالذَّهَبِ ؟ وَهَلِ الْمَنْهُومُ بِهَا إِلَّا كَالْحَرِيصِ الْجَشِعِ عَلَيْهِمَا ؟ وَهَلِ الْمَغْرَمُ بِحَبِّهَا إِلَّا كَمَكَاثِرِهِمَا ؟ هَتِيبَاتِ الرَّحِيلِ وَاللَّهُ قَرِيبٌ ، وَالثَّوَاءُ قَلِيلٌ ، وَالْمُضْجَعُ مُقْضٍ^(٤) ، وَالْمَقَامُ مُبْضٍ^(٥) ، وَالطَّرِيقُ مَخُوفٌ ، وَالْمَعِينُ ضَعِيفٌ ، وَالْاِغْتِرَارُ غَالِبٌ ، وَاللَّهُ مِنْ وَرَاءِ هَذَا كُلِّهِ طَالِبٌ ، نَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى رَحْمَةً يُظَلِّلُنَا جَنَاحَهَا ، وَيُسَهِّلَ عَلَيْنَا فِي هَذِهِ الْعَاجِلَةِ غَدَوَهَا وَرَوَاحَهَا ؛

(١) أبو سعيد الحسن بن عبدالله المزباني السيرافي النحوي القاضي الفقيه كان يدرس في بغداد القرن وعلومه وكان عفيفا متقشفا وهو أستاذ أبي حيان التوحيدي الذي قال عنه : « شيخنا أبو سعيد السيرافي هو اليوم علم العالم . وشيخ الدنيا . ومقنع أهل الأرض ، توفي السيرافي سنة ٣٦٨ هـ . »

(٢) سورة يوسف ١٢ - ٢٨ .

(٣) زُبُرَجُ الشَّيْءِ : حَسَنُهُ وَزِينُهُ . الزُّبُرِجُ : الزَّيْنَةُ مِنْ وَشْيٍ أَوْ نَحْوِهِ .

(٤) قَضَ وَاقْضَى الْمَكَانَ أَوْ الطَّعَامَ : صَارَ فِيهِ الْقَضِيضُ أَيْ صَغَارَ الْحَصَى ، وَاقْضَى الْمَضْجَعُ : خَشِنَ وَيُقَالُ : اقْضَى اللَّهُ مَضْجَعَهُ . خَشِنَهُ .

(٥) امْضَهُ . أَلَمَهُ وَمَمَضَ : مَوْلَمَ .

فالويل كلَّ الويل لمن بُعد عن رحمته بعد أن حصل تحت قدره فهذا هذا ، ثم إني - أيدك الله - ما أردت أن أجيبك عن كتابك لطول جفائك ، وشدة التوالتك عمن لم يزل على رأيك مجتهداً ، وفي محبتك على قربك ونأيك ، مع ما أجده من إنكسار النشاط ، وانطواء الانبساط ، لتعاود العلل على ، وتخاذل الأعضاء منى فقد كلَّ البصر ، وانعقد اللسان ، وجمدَ المخاطر ، وذهب البيان ، وملَّك الوسواس ، وغلب اليأس من جميع الناس ، ولكنى خَرَسْتُ منك ما أضعته منى ، وَوَقَّيْتُ لك بما لم تَفِ به لى ، وَبَعِزُّ عَلَى أَنْ يَكُونَ لِي الْفَضْلُ عَلَيْكَ ، أَوْ أُخْرِزَ الْمُزِيَّةُ دُونَكَ ، وما حَدَانِي على مكاتبتك إلا ما أتمثلُهُ من تشوُّقك إلی ، وتحرقك على ، وَأَنَّ الحديث الذى بَلَغَكَ قد بَدَّدَ فِكْرَكَ وَأَعْظَمَ تَعْجَبَكَ ، وَحَشَّدَ عَلَيْكَ جَزَعَكَ وَالْأَوَّلُ يَقُولُ :

وَقَدْ يَجْزَعُ الْمَرْءُ الْجَلِيلُ وَيَسْتَلِي
عَزِيمَةً رَأَى الْمَرْءَ نَائِبَةً الدَّهْرِ
تَعَاوِدُهُ الْأَيَّامَ فِيمَا يَنْوُو بِهِ

فَيَقْوَى عَلَى أَمْرٍ وَيَضْعُفُ عَنْ أَمْرٍ
على أَنَّى لَوْ عَلِمْتَ فِى أَى حَالٍ غَلَبَ عَلَى مَا فَعَلْتَهُ ، وَعِنْدَ أَى مَرَضٍ ؛ وَعَلَى أَيْ عُسْرَةٍ وَفَاقَةٍ لَعَرَفْتَ مِنْ عُذْرِي أَضْعَافَ مَا أَبْدَيْتَهُ ، وَاحْتَجَجْتَ لِي بِأَكْثَرِ مِمَّا نَشَرْتَهُ وَطَوَيْتَهُ ، وَإِذَا أُنْعِمْتَ النَّظَرُ تَيَقَّنْتَ أَنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَزَّ فِى خَلْقِهِ أَحْكَاماً لَا يِعَازَرُ^(١) عَلَيْهَا وَلَا يَغَالِبُ فِيهَا ، لِأَنَّهُ لَا يُبْلَغُ كُنْهَهَا ، وَلَا يُنَالُ غَيْبُهَا ، وَلَا يُعْرَفُ قَائِبُهَا ، وَلَا يُقْرَعُ بِأَيُّهَا ، وَهُوَ تَعَالَى أَمْلَكَ لِنَوَاصِينَا ، وَاطْلَعُ عَلَى أَدَانِينَا وَأَقَاصِينَا ، لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ، وَبِيَدِهِ الْكُسْرُ وَالْجَبْرُ ، وَعَلَيْنَا الصِّمْتُ وَالصَّبْرُ ، إِلَى أَنْ يُوَارِنَا اللَّحْدُ وَالْقَبْرُ وَالسَّلَامُ .
إِنْ سَرَّكَ - جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ - أَنْ تَوَاصِلَنِي بِخَبْرِكَ ، وَتَعْرِفَنِي مَقَرَّ خَطَابِي هَذَا مِنْ نَفْسِكَ فَافْعَلْ ، فَإِنِّي لَا أَدْعُ جَوَابَكَ إِلَى أَنْ يَقْضَى اللَّهُ تَعَالَى تَلَاقِيَّ يَسُرُّ النَّفْسَ ؛ وَيَذَكِّرُ حَدِيثَنَا بِالْأَمْسِ ؛ أَوْ يَفْزِقُ نَصِيرُ بِهِ إِلَى الرُّمُسِ ؛ وَنَفْقُدُ مَعَهُ رُؤْيَا هَذِهِ الشَّمْسِ ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ خَاصّاً بِحَقِّ الصَّفَاءِ الَّذِى بَيْنِي وَبَيْنَكَ ؛ وَعَلَى جَمِيعِ إِخْوَانِكَ عَاماً بِحَقِّ الْوَفَاءِ الَّذِى يَجِبُ عَلَى وَعَلَيْكَ وَالسَّلَامُ .

(١) عَزَّوَجَلَّ : عَرَضَهُ فِى الْعَزَّةِ .

□ محتويات الكتاب □

..... مقدمة	(ص ٢)
..... البصائر والذخائر	(ص ١٧)
..... الصداقة والصديق	(ص ٢٩)
..... مثالب الوزيرين	(ص ٤٧)
..... الأمتاع والمؤانسة	(ص ٦٧)
..... الهوامل والشوامل	(ص ١٠٥)
..... المقابسات	(ص ١٥٣)
..... الاشارات الالهية	(ص ١٧٩)
..... لماذا احرق كتيبي ؟	(ص ١٩٣)

رقم الايداع
٩٥/٩٢٣٠
الترقيم الدولى
I - S.B.N.
977 - 08 - 0259

خلاصة التوحيدى

على بن محمد بن العباس أبو حيان التوحيدى ، إمام النثر العربى ، المجدد ، المؤصل ، ناصع الموهبة . عميق المعاناة ، وأعظم من عبر عن غربة الإنسان . حياة عاصفة ، وظروف شاقة يتحداها بموهبته الفذة . تناقض صعب بين الأديب المدرك لقيمة ذاته ، وسبل تأمين العيش التى يجب أن يسلكها ، تناقض أوصله إلى حرق كتبه فى مشهد رهيب ، ما وصلنا منها قليل . وما تم تحقيقه وطبعه أصبح فى ندرة المخطوطات . ومع احتفال مصر بالذكرى الألفية للتوحيدى يقدم المجلس الأعلى للثقافة هذه المختارات من أعماله . أعدها الأديب الروائى جمال الغيطانى بعد معايشة نثر التوحيدى سنوات طويلة . لنتعرف المختارات بآثار التوحيدى فقط ولكنها تقدم رؤية فريدة تضى أبعادا جديدة على نثر التوحيدى وإبداعه ، تجعله ميسرا . متاحا للكافة ، هذا النثر الرائع ، الجميل ، المكتوب منذ ألف عام ، والذي يبدو كأنه كُتب اليوم ، وهكذا سيقرأ بعد مئات الأعوام . تلك نصوص تتجاوز الأزمنة والأمكنة وتستقر فى أعماق نقاط الوجدان الإنسانى .

To: www.al-mostafa.com